دولة يثرب

بصائر في عالم الوفود

THE STATE OF YATHRIB

Studies in the Year of Deputations

خليل عبد الكريم

KHALĪL ‘ABD-UL- KARĪM

www.muhammadanism.org
January 3, 2008
Arabic

دولة يثرب

بصائر في عام الوفود
وفي أخباره

خليل عبد الكريم

دولة يثرب

بصائر في عام الوفود

وفي أخباره

دولة يثرب

بصائر في عام الوفود وفي أخباره

خليل عبد الكريم

سينا للنشر ــ الانتشار العربي
London – Beirut – Cairo

الطبعة الأولى ١٩٩٩

المحتويات

[Blank Page]

سيرة محمد ثرية سخيّة معطاءة، ذلك أن لو وجوهاً عديدة فهو قد أسس ديناً قيّماً نافس به الموسوية أو اليهودية التي ظهرت قبله بما يقرب من ألفي عام والعيسوية أو المسيحية أو النصرانية التي سبقته بأكثر من ستة قرون.

وهو ثائر قام بثورة من أهم الثورات التي ظهرت في العصور الوسيطة بل في تاريخ العالم فَلَجَت في تغيير ملامح المنطقة التي انبثقت فيها والدول المجاورة بل وغير المجاورة ــ الملامح العقائدية واللغوية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافة والمعرفية ــ تغييراً يكاد يكون جِذْريّاً وهو ما لم تحققه إلا قلةٌ نادرة من الثورات.

وبنى دولة حكمت بعده دهراً طويلاً حتى إنه يمكن أنْ يُقال إنّ قريشاً من القبائل أو الأسرات أو العائلات القليلة التي حكمت قروناً ممتدة وبلاداً عديدة ورقعة وسيعة. حقيقة إن أجداد محمد هم الذين وضعوا أحجار أساس تلك الدولة بيد أنه هو الذي استطاع أن يقيم بنيانها ويعلّيه.

وهو قائد محنّك كان يخرج على رأس جنوده ويتقدمهم؛ صحيح أنه لم يُكتب له النصر في كل المعارك التي خاضها إنما يرجع ذلك إلى أسباب لا يد له فيها أو لأخطاء ارتكبها جنوده.

وهو ذو شخصية سيادية (كارزمية) تأخذ بِمجامع قلوب من يقابلونه

فينقادون له ويتبعونه ويصيرون أطوع له من بنانه... والذين فعلوا ذلك لم يكونوا أشخاصاً عاديين أو رجالاً مُهَفَّكِيْن[1] بل كانوا من الحكماء العقلاء الدهاة ذوي الحِجَى وأصحاب العقول الرواجح والصناديد والزعماء والقادة والمزاربة الجحاجح والذين لم يتمكن قبل محمد أحد من إخضاعهم والهيمنة عليهم.

وهو سياسي من طراز فريد ودبلوماسي ليس له ضروب فقد كان يخاطب كل إنسان بقدر ما يناسبه ويراوض من تدعو الحاجة إلى مراوضته ويصبر على المُحمَّق ويسوس الشَكِس العنيد بالكياسة اللائقة ويعرف للناس أقدارهم وينزلهم منازلهم ــ وهو خطيب مُفوّه امتلك ناصية البلاغة وأمسك بمقود الفصاحة استولى على زمام اللَسن وهذه مواهب فذة هي البيئة التي نشأ فيها والمجتمع الذي ترعرع فيه تُعطي لصاحبها درجة رفيعة ومقاماً محموداً.

وهو رجل واسع التجارب عميق الخبرات وقد أفادته المهن التي امتهنها مثل الرعيّ والتجارة بالإضافة إلى الأسفار والاختلاط بأصحاب العقائد المختلفة والأديان المتعددة والملل المتنوعة الذين كانت تعجّ بهم مكة مسقط رأسه وأمدته بمخزون طويل عريض من المعارف والثقافات والمعلومات كانت كلها عوناً له في العُمالات كافة التي مارسها داعية لمعتقد جديد، حاكم دولة، قائد جيش، قاضٍ يفصل في الخصومات، مُفْتٍ يفتي في النوازل والمعضلات...

وهو زوج لعديد من الزوجات من قبائل ومن أعمار مختلفة ومن ديانات متعددة وفيهن الحرّة وملك اليمين بيد أنه بمهارة تبعث على الدَهَش وتحظى على الإعجاب تمكن من التعامل مع كل واحدة منهن بما يرضيها ويدخل السرور على قلبها وصبر صبراً جميلاً على المكائد الضرائرية التي بدرت من بعضهن، ولم يثبت في جانبه أنه أساء عِشرة واحدة منهن أو قسا عليها أو وجه إليها لفظاً عنيفاً، دعك من مدّ اليد (كناية عن الضرب)

---

(١) في المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، **المُهفّك من الرجال:** الكثير الخلط والعامة من مصر تقول: الهَفَك.

وهذه المعاملة الممتازة أمر نادر الحدوث في مجتمعه وبيئته.

تلك القسمات المتعددة لمحمد نفحت سيرته عمقاً ودسامةً وغنىً وقد مرّت بمراحل متعددة، وفي رأينا أنها لم تُدرس دراسة علمية موضوعية. وهناك فترة من عمره أطلقنا عليها في كتابات لنا سوابق (فترة التأسيس) وهي التي بدأت منذ زواجه من خديجة بنت خويلد إلى أن صدع بدعوة التوحيد، ونظراً لثراء الزوجة فقد استراح من همّ الرزق فقضى تلك الحقبة في الاختلاط بأصحاب العقائد والأديان والملل والنحل والتفكير والتأمل والصمت والتدبر والتحنث وتلك الفترة مما يؤسف له أن مؤلفات سيرته تمر عليها مرور الكرام مع أنها فترة التأسيس وحقبة التكوين وإبّان التدشين وباقي أطوار حياة محمد يستحق الدرس والتمحيص ومن العجب أن الجانب العسكري ـ الغزوات والسرايا والمهامات الخاصة ـ هو الذي فاز بـ نصيب الأسد من عناية كُتّاب سيرته...

أما سائر الأطوار أو الجوانب فلم تأخذ حظها من الاهتمام... وعلى كل فإنّ دراسة موضوعية للسيرة المحمدية أمر لازم وضرورة حازبة وذلك لفهم الإسلام فهماً صحيحاً وتقيمه تقييماً سديداً وفقهه فقهاً يتسم بالعدل... ونعني بالإسلام: الدين والثورة والدولة والتاريخ.. الخ. إذ كيف تعرف ديناً دون أن تحيطَ خبراً بمؤسِسه وكيف تتفطن دعوة من غير أن تتفرّس في حياة الداعي إليها وكيف تقيّم ثورة بلا إلمام بسيرةِ مُفجّرها وكيف توزن دولة وأنت لم تتمعن في أحوال منشئها وكيف تقدّر تاريخاً حق قدره دون أن تُعنى برأسه ومقدمه.

وحياة محمد فيها مقاطع هامة كثيرة ومن أميز مقاطعها «عام الوفود» وهو لا يعنى سنة مكونة من إثنى عشر شهراً إنما يدلّ على مرحلة زمنية استغرقت خمسة أعوام من العشرة التي قضاها محمد عندما نزح إلى قرية بني قيلة = أثرب والتي فيها حقق حلم جدوده الذي بدأ مع خامسهم قصيّ بن كلاب ابن مرّة الذي يُعدّ المؤسس الأول وواضع اللبنات البِكْر في أساسها ومحمد هو المؤسس الفعلي أقامها بأسياف بني قيلة أو الأوس والخزرج أو الأنصار كما سماهم بيد أن ذلك لم يمنع من اعتبارها منذ

اللحظة الأولى دولة قريش واختيار هذا المقطع من سيرة محمد يؤوب إلى عدة أسباب:

أ ــ أنه يغطي تصف المدة التي قضاها محمد في يثرب (سوف نشرح فيما بعد كيف أن الوفود استمرت ترد على محمد لخمس سنوات ومع ذلك سُمِّي العام التاسع وحسب بِعام الوفود أ. ﻫ).

ب ــ أنه (عام الوفود) إنضوى على كنز (بالمعنى الحرفي لـ الكلمة) من المعلومات والمعارف والمُعطيات عن الأحوال الجغرافية والاقتصادية والمعرفية والعقائدية لعرب وعُربان وأعراب وأعاريب شبه الجزيرة العربية في ذياك الوقت وعن تقاليدهم وأعرافهم ومعتقداتهم... وعن مستواهم الفكري ورتبتهم الحضارية.

ج ــ مُدَاخلات محمد مع الوفدة ومُداخلاتهم معه أضاءت الكثير من الجوانب مثل موقف الديانة التي بشّر بها محمد من الرافضين لها وهل اكتفت بالدعوة اللسانية أم سلكت طريقاً آخر معهم لاعتناقها؟

وكذا نظرة الدولة القرشية إلى الجزيرة واعتبارها منطقة النفوذ الأولى ولكن ليست النهائية، وعدّها نقطة الانطلاق إلى الخارج...

د ــ الوفود كانت سياسة في المقام الأوّل وليست دينية كما درجت على ذلك الكتابات السابقة... وليست التفرقة هنا شكلية ولكنها عضوية وكيانية وقد تمثل ذلك في اختيار أفراد الوفد وطريقة توليفه والمحاورات التي تبودلت مع محمد.

ﻫ ــ أن محمداً كان يلبّي حاجات الوفود المتعددة مرة بصفته داعياً لإعتقادية جديدة وأخرى بوصفه رأس دولة قريش وثالثة كقائدٍ لجيوشها ما أكّد أن كياناً قانونياً حقوقياً مركزياً تخلّق بخلاف ما كان سائداً قبل ذلك في أنحاء الجزيرة الأمر الذي

يعني بحسم أن الشعور بالقبلية العشائرية يلزم أن يختفي ويحلّ محله شعور بـ القومية العابرة للعواطف الضيقة والمتخطية للعصبية القبلية... وهذه خطوة بالغة التقدم ونقلة حضارية... ربما لا يدرك الكثيرون منا مدى ثوريتها في تلك الأيام.

و ــ أن ذروة عام الوفود التي تجسّمت في السنة التاسعة يُعدّ رفيقاً لـ فتح الفتوح = فتح مكة، ونديره وعديله حتى إنه من الجائر اعتبار النتائج الخطيرة التي تَرتَبت على كليهما متماهية أو حتى متداخلة؛ وبمعنى أوضح أن فتح قرية القداسة كان تتويجاً لآثار الوفادة التي بدأت منذ العام الخامس. ومن جانب آخر فإن الفتح الأكبر بدوره طرح الثمرة الكبيرة ونعنى بها قمة الوفود التي تكاثفت في العام التاسع أي أن ثمة ما يمكن أن نسميه علاقة جدلية بين الوفود والفتح:

الوفود الأولى (التي بدأت ترد من الخامس) هي التي طرحت المحصول المتميز وهو الفتح الأعظم وهذا بدوره منح المعطى البالغ الخطر وهو ذروة الوفادة وزخمها ودسمها...

والإثنان معاً وقد تشابكا واختلطا قدما الآثار الباهرة التي أفردنا لها باب (البصائر الأفقية)، وهنا ينتصب سؤال على قدر وفير من الأهمية:

أيهما (الوفود أم الفتح) حاز قصب السبق في التأثير؟

في رأينا أنها الوفود.

لماذا؟

لأن الوفود (نكرر التي بدأت في العام الخامس) مع عوامل أخرى لا شك فيها بيد أنها أقل فاعلية هي التي شجعت محمداً على الخطوة الفاصلة = فتح مكة.

فإقبالها عليه بالولاء والإذعان والطاعة ما حدث إبّانها وبسببها من سيطرة على كثير من بقاع الوسط والجنوب بل والأطراف هو الذي دعا

محمداً أن يقرر أن الأوان قد حان لمدّ السيطرة على حاضرة التقديس والمعقل الأكبر للمقاومة مركز المناوأة وعاصمة البغضاء وبؤرة العداوة وعشّ المخاصمة، وملتقى المشاكسين ومنتدى المعاندين ومحيط الصناديد الشانئين وعندما أفلح محمد في فتحها وقَهْر سادتها وتركيع زعائمها... كان ذلك إشارة لا تخفى وآية واضحة وعلامة مفهومة على الغَلَبة والإنتصار فتوالت باقي الوفود وتتابعت وأخذت تُقْدم على محمد زرافات ووحداناً وإذ تم ذلك كان بمثابة ختم التصديق ورمز التوثيق على أن محمداً غدا (سيد الناس وديّان العرب) كما وصفه شاعرهم الأعشى...

وامتزج هذان العاملان وتفاعلا شأن بعض العناصر الكيماوية فطرحا النواتج البواهر التي سوف يطالعها القارئ في (البصائر الأفقية)...

إذن الوفادة وقد سبقت وتقدمت هي العلّة الفاعلة التي أنتجت الفتح ثم واصلت (الوفادة) مسيرتها بعد فتح الفتوح (الذي أثمرته) بل زادت من كثافتها وضاعفت زخمها وعمّقت مجراها... وعَقَدت مُؤاخاة مع الفتح وتعاضداً على تقديم ذلك المحصول الوفير من المكاسب لصالح الديانة التي أسسها محمد وبشّر بها والدولة التي أقام بنيانها في يثرب.

هذا بإيجاز تبيين مُكثّفٌ لأهمية مقطع (عام الوفود) في السيرة المحمدية وما دعانا إلى الإلتفات إليه وتناوله بالدراسة الموضوعية التي نأمل أن تصبح مدخلاً لتناول باقي مقاطعها بالشاكلة نفسها وبالطريقة عينها أو ربما أكثر عمقاً، لأن المباحث الرائدة قلّ أن تخلو من هفوات، بيد أن الريادة في ذاتها وسام رفيع نأمل أن تَحظى به هذه الدراسة.

خليل عبد الكريم

الدقي في غرة المحرم ١٤١٩هـ

٢٧ أبريل/ نيسان ١٩٩٨م

لماذا البصيرة

في بداية الأمر طاف بذهني أن يحمل الكتاب عنوان (قراءة في أخبار عام الوفود) ولكن بعد إمعان التفكير عدلت عنه لعدة أسباب منها أن فيه تقليداً للفرنجة فهم الذين أشاعوا هذا المصطلح وأتعياه خاصة في الآونة الأخيرة ومنها أن كلمة قراءة لا تؤدي المعنى الذي استهدفه وسوف أطرح أدلّة الثبوت على ذلك في الفصلة الخاصة بـ (القراءة) وثالثاً وهو الأهم أن هناك كلمة عربية فصيحة[٢] تؤدي المدلول بصورة وافية وتقدمه بهيئة واضحة وتحيط به من أقطاره كافة وتسلط الضوء على مناحيه كافة لا تدع منها شاردة أو واردة وهي البصيرة. فعندما نتبصر في أخبار عام الوفود فإننا ننفذ إلى أعماقها ونفتش في دخائلها ونتفرّس في أحشائها ونفلّيها[٣]، بعكس القراءة فإنها لا تنفح هذا المضمون فقد تكون عجلى لا تدع وقتاً للتأمل والتدبر والتفكر أو تتسم بالفُرورة والخفة بل الهوج والطيشان والنزق أما رابع الأسباب فهو أن سلفنا الصالح ـ رضوان الله

---

(٢) العامة خاصة في صعيد مصر تتداولها فيما بينها بالمعنى ذاته ولو أنها تستعملها في صورة مباينة: بصارة.
(٣) في المعجم الوسيط، **فلّى** القوم: نظر إليهم متأملاً وفلى الأمر: تدبّره.

عليهم اختار هذه اللفظة للإفصاح عن بغيتهم في أحوال شبيهة بحالنا هذه ويحضرني كتاب (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ــ لـ الفيروزآبادي) ولئن نتبع السلف ــ خير من أن نقلّد الفرنجة.

وقد حملت إلينا قواميس اللغة ومعاجم اللسان العربي عدة معان لـ البصيرة فهي:

البصيرة: قوة الإدراك والفطنة وهي: العلم والخبرة، ويقال: فراسة ذات بصيرة صادقة، وفعل ذلك عن بصيرة عن عقيدة ورأي والبصيرة: الحجة والرقيب والعيرة[٤]. جمع هذا التعريف أموراً شتيتة أولها يتعلق بـ الفهم وثانيها بالمعرفة وثالثها بالتجارب ورابعها بالدربة في استبطان الأمور وخامسها بالبرهان والدليل ولا شك أن اللفظة التي تضم هذه المعاني جميعها لفظة معجبة تغدو أولى بالتفضيل بيد أن أبا هلال العسكري وهو من أئمة اللغة لا يذهب إلى أن البصيرة هي العلم فحسب وهو يعترض على ذلك ويؤكد أن بينهما فرقاً وسيعاً فالفرق بين العلم والبصيرة: أن البصيرة هي تكامل العلم والمعرفة بالشيء[٥] وهذا الفرق يتمثل في أنه إذا كان العلم يقف في أول الشوط فإن البصيرة تجيء، في آخره بعد أن تكون المعرفة قد تكاملت والعلم قد تم وبذلك تغدو البصيرة في معتقده أكمل من العلم وأميز من المعرفة ــ أما الفيروزآبادي فيرى أن:

التبصر: التأمل والتعرف واستبصر: استبان وبصره تبصيراً/ عرفه وأوضحه.. والبصيرة عقيدة القلب والفطنة وشيء من الدم يستدل به على الرمية ودم البكر[٦]. إذن هو يرى أن البصيرة عقيدة في القلب ينتج عنها التأمل والتعرف المقرون بالاستيضاح... ثم يطلعنا على الأصل المادي للكلمة الذي نُقل إلى المدلول المعنوي فهو يقول إنه أثر الدم الذي يوجد في النصل وفيه يستدل على الرمية أي أن السهم أصاب الرمية بالفعل حتى سال منها الدم وكذلك دم البكر الذي يسيل عند افتضاضها ومنه

---

(٤) **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية.
(٥) كتاب **الفروق**، أبو هلال العسكري، تحقيق د. أحمد سليم الحمصي.
(٦) **القاموس المحيط**، الفيروزآبادي.

يستدل على عذريتها. وهو أيضاً ما انتهى إليه أبو عمر الشيباني ــ أما الأصمعي فعنده أن البصيرة هي النظر مع التحديق بشدة: وقال أبو عمر الشيباني: البصيرة من الدم: ما استدل به على الرمية.

وقال الأصمعي/ قولهم: أراه لمحاً باصراً: أي نظر بتحديق شديد[٧] ويربط مجمع اللغة العربية بين نور القلب والبصيرة وهو أمر غيبي ولذلك فهو تعريف أقرب إلى تعريفات الصوفية ولو أنه لم يقتصر عليه فضم إليه تعريفات آخر وقرن بين البصيرة والفراسة ــ وتعريف المجمع شارك غيره في اعتبار البصيرة هي الشاهد والرقيب والحجة والبرهان إذ رد اللفظ في مدلوله إلى أُسّه المادي فالدم الذي يُعثر عليه في النصل يستدل به على الرمية وبالدم الذي ينزل من الفتاة عند فضّها يتأكد به زوجها وأهلوها من عذريتها وبكورتها.

وهي أيضاً: قوة الإدراك والفطنة أو قوة الطلب المدركة أو نور القلب الذي به يستبصر ويُقال: فراسة ذات بصيرة وذات بصائر أي صادقة والشاهد والرقيب والحجة والبرهان والاستبصار في الشيء وتدبره[٨]. وتعقد بعض المعاجم آصرة بين التبصر والتأمل ففي نظرها أن التبصر هو إفراز للتأمل بمعنى أنه لا يجيء إلا ثمرة له.

التبصر: التأمل والتعرف والبصيرة: الحجة والاستبصار في الشيء[٩].

التبصر: التأمل والتعرف والبصيرة: الحجة والاستبصار في الشيء[١٠].

ويوصف الحاذق في عمله بأنه بصير به ومستبصر فيه أما الفراسة التي تصاحبها البصائر أو حتى البصيرة الواحدة فتوصف بأنها صادقة.

هو بصير بـ عمله عالم به وهو مستبصر فيه ورتبت في بستاني مبصراً

---

(٧) **إصلاح المنطق**، ابن السكيت، شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون.
(٨) **المعجم الكبير**، الجزء الثاني، حرف الباء، مجمع اللغة العربية.
(٩) **مختار الصحاح**، محمد بن أبي بكر الرازي.
(١٠) **مختار من الصحاح في اللغة**، محمد محي الدين عبد الحميد ومحمد عبد اللطيف السبكي.

أي ناظراً وهو الحافظ واجعلني بصيراً عليهم أي رقيباً وشاهداً.. وله فراسة ذات بصيرة وذات بصائر وهي الصادقة(١١). ويهتم المقرّي الفيومي بضبط الكلمة بصرت بالشيء بالضم والكسر.. بَصَراً بفتحتين علمت فأنا بصير به.. وهو ذو بصر وبصيرة أي علم وخبرة الاستبصار بـ معنى البصيرة(١٢).

من جماع ما تقدم لعل القارئ أدرك العلة في تقديمنا (البصيرة) على (القراءة) فقلّ أن تعثر على كلمة واحدة تضم بين دفتيها هذه المعاني المتعددة وجميعها بلا استثناء تقطع بالفطانة والذكاء وقوة الإدراك ومع أن جرثومتها (= أساسها) كما في العديد من الكلمات مادية بحت فإنها لم تقتصر على مدلولات مادية في هذا المجال، مثل: الشاهد والحجة والبرهان والرقيب بل إنها تعدت إلى دائرة أوسع من المعنويات مثل التمييز وقوة الإدراك والعلم والمعرفة... ثم إلى مستوى أكثر تقدماً مثل الفراسة وبعدها قفزت إلى مجال أشد رحابة وأعمق غوراً ونعني به عالم الغيب فهي نور يقذفه الله في القلب فيدرك ما لا يدركه الآخرون ويعي ما لا يحصله سواه.

---

(١١) **أساس البلاغة**، جار الله الزمخشري.
(١٢) **المصباح المنير**، المقرّي الفيومي.

القراءة... لأ... كيف؟

لماذا عدلت عن استعمال كلمة (قراءة) وفضّلت عليها كلمة (بصيرة)... فأصبح العنوان (بصائر في عام الوفود وفي أخباره) بدلاً من (قراءة في أخبار عام الوفود). أما عن تقديم (البصيرة) فقد طرحت الأسباب في الفاصلة السابقة ــ بقى أن نبرز علة تأخير كلمة (قراءة).

على عكس الشائع حتى لدى المثقفين.. تدل القراءة على الحفظ والجمع والضم لا على التدبر والتفكر والإدراك والفطانة إنها ألصق بالذاكرة والملكة الحافظة منها بالعقل والملكة المفكرة الواعية.. أما إنها تؤدي إلى العلم والمعرفة فهذا أمر لا مشاحة فيه إنما في ختام الشوط يوجد فارق بين العلم والمعرفة الناتجين من التبصر والبصيرة... وبين العلم والمعرفة اللذين يتولدان عن القراءة، علم ومعرفة البصيرة يتميزان بالإبداع والتجديد والتنوير والنسج على نول غير مسبوق... الخ.

أما علم ومعرفة.. القراءة إتباع وتقليد وتكرار واجترار وهذا ناتج عن منشأ كل منهما الذي صورناه فيما سلف.

ولقد أوضحت معاجم اللغة وقواميسها ذلك بصورة لا تدع أي مجال للشك:

قريت الماء في الحوض أقريه قرياً: جمعته فأنا قار والماء مقري[١٣].

ولما كانت الناقة تلعب دوراً متميزاً في معيشة بني يعرب كما أوضحنا في أحد كتبنا[١٤]. فإن اللغويين كثيراً ما يستشهدون بأمثلة تتصل اتصالاً مباشراً به (= ب الناقة).

ما قرأت هذه الناقة سلاً قط: ما ضمت أي ما حملت ولداً. قال حُميد بن ثور: ولم تقرأ جنيناً ولا دماً[١٥].

ففي هذين المثلين: قريت الماء في الحوض... ما قرأت هذه الناقة سلاً قط نجد أن اللفظة تدل على الجمع والحفظ والضم... الخ.

وأوضح لنا الزبيدي هذه الدلالة بصورة قاطعة:

وقرأت الناقة والشاة: حملت. وما قرأت سلاً قط أي ما حملت ملقوحاً.

قرأ الشيء: جمعه وضمه أي ضم بعضه إلى بعض وقرأت الشيء قرآناً: جمعته وضممت بعضه إلى بعض...

قال عمرو بن كلثوم لم تقرأ جنيناً أي لم تجمع جنيناً أي لم يضم جمعها على الجنين... ومعنى القرآن الجمع لأنه يجمع السور فيضمها[١٦] وبذلك يمكننا أن نردد المثل العربي القديم (قطعت جهينة كل قول)...

فالزبيدي وهو من علماء اللغة الأعلام ــ ويكفي أن نقرر أن كتابه (تاج العروس) يعتبر استدراكاً لما فات صاحب «القاموس المحيط» وهو الفيروزآبادي وهو من هو ــ قرر في حسن معاني القراءة وهي الجمع والضم والحفظ.

---

(١٣) **شرح الفصيح في اللغة**، أبو منصور ابن الجبّان، دراسة وتحقيق، د. عبد الجبار جعفر القزاز، طبعة ١٩٩١، نشر دار الشئون الثقافية العامة، بغداد.

(١٤) **العرب والمرأة: حفرية لغوية في الأسطير المخيّم**، دار سينا للنشر بالقاهرة ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

(١٥) **أساس البلاغة**، جار الله الزمخشري.

(١٦) **تاج العروس من جواهر القاموس**، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي.

وتأكيداً لهذا الرأي ــ وهو في الحقيقة ينال إجماع اللغويين كبارهم وصغارهم ــ فإنّا نتمثّل بحديثين لمحمدٍ:

وفي الحديث (أقرؤكم أُبيّ).. أي أنه أقرأ أصحابه أي اتقن للقرآن واحفظ وفي الحديث (أكثر منا ففي أمتي قراؤها) أي أنهم يحفظون القرآن نفياً للتهمة عن أنفسهم ــ قال حُميد: ولم تقرأ جنيناً ولا دماً أي لم تحصل علقه أي دماً ولا جنيناً(١٧) ومحمد كما سبق أن قلنا أفصح العرب وسيد البلغاء وكلامه حجة دامغة ففي الحديث الأول يؤكد بحزم أن أُبيّاً هو احفظ صحابته للقرآن وعبّر عن ذلك بكلمة (أقرؤكم) ــ وفي الحديث الآخر يقرر أن الجانب الأكبر بل الغالب من منافقي أمته هم قراء القرآن أي الحافظون له فهو جعل كلمة قارئ مرادفة لـ كلمة حافظ.

* * *

وهناك كلمة من الجذر نفسه نسوقها لتأكيد المعنى وتثبيت المدلول وهي كلمة القُرء وجمعها قُروء وقد وردت بـ القرآن ﴿والمطلقات يترتصن بأنفسهن ثلاثة قُروء﴾ (سورة البقرة، الآية ٢٢٨) ــ والقُرء هو الحيض والطهر (ضد) وسبق أن ذكرنا في دراسة سابقة أن من مخاريق لسان أحفاد يشجب أن الكلمة فيه تدل على المعنى ونقيضه في الوقت نفسه وبالقوة عينها.

(القرء: فيه لغتان الفتح وجمعه قرؤ وأقرؤ... والضم ويجمع على أقراء.. قال أئمة اللغة: ويطلق على الطهر والحيض.. وحكاه ابن فارس أيضاً وقال: ويُقال إنه للطهر وذلك أن المرأة الطاهرة كأن الدم قد اجتمع في بدنها وامتسك.. ويقال إنه للحيض ويقال: اقرأت إذاً حاضت إذاً طهرت)(١٨).

وهو عين ما ذهب إليه ابن السكيت:

«ما قرأت الناقة سلاً قط أي لم تلق ولداً، أي لم تحمل قط، وقد قريت الضيف وكذلك قريت الماء في الحوض... ويقال أقرأت المرأة: إذا طهرت وإذا حاضت وهو من الأضداد والقرء: الطهر، والقرء: الحيض.. يقال ما قرأت الناقة سلاً

(١٧) المصدر السابق.
(١٨) **المصباح المنير**، المقرّي الفيومي.

قط أي ما حملت ولداً وكذلك ما قرأت جنيناً»[١٩].

ونحن لا تعنينا المعركة المحتدمة بين فقهاء المذاهب الفقهية حول القرء هل هو الحيض أو الطهر ولسنا طرفاً فيها إنما الذي يهمنا هو أن هذا اللفظ في كل صورة يدل على الجمع والحفظ والامتساك. على الرغم من أن الفيروزآبادي يكرر ذات المعنى الخاص بـ القرء والقراءة وأن مدارهما على الجمع والحفظ إلا أنه أضاف مدلولات جديدة لا نجدها بهذا الوضوح في المعاجم والقواميس الآخر فهبوب الريح لوقتها المحدد فهو قراءة، كأنها (الريح حفظت ساعة انطلاقها فهبت فيها).

والتنسك حفظ لقواعد الدين، أما الغياب والانصراف فإن الصلة بينهما وبين الحفظ واهية ولم نستطيع أن نتوصل إلى الرابطة التي تجمع بينهما ــ بيد أن الذي يلفت النظر قول الفيروزآبادي (قرأه: تلاه) وهذا هو نص ما جاء في القاموس المحيط:

«قرأه: تلاه ــ القرء (بالفتح والضم): الحيض والطهر والجمع أقراء وقرؤ وجمع الطهر قرؤ وجمع الحيضات أقراء وأقرأت حاضت وطهرت.. وقرأت الرياح هبت لوقتها وقرأت الناقة حملت وقرأ الشيء جمعه وضمه وقرأ: غاب وانصرف وتنسك»[٢٠].

بيد أن أبا هلال العسكري يعارض ويؤكد أن هناك فرقاً بين الكلمتين:

(«الفرق بين القراءة والتلاوة»، إن التلاوة لا تكون إلا لكلمتين فصاعداً، والقراءة تكون للكلمة الواحدة يقال قرأ فلان اسمه ولا يقال: تلا اسمه وذلك أن أصل التلاوة في الكلمات يتبع بعضها بعضاً ولا تكون في الكلمة الواحدة إذ لا يصح فيها التلو)[٢١].

وسواء صح رأي الفيروزآبادي أو رأي أبي هلال العسكري فإن هذا لا يقدح في دلالة القراءة على الحفظ والجمع ذلك أن العسكري (أبا هلال)

---

(١٩) **إصلاح المنطق**، ابن السكيت، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر.
(٢٠) **القاموس المحيط**، الفيروزآبادي.
(٢١) **كتاب الفروق**، أبو هلال العسكري، تحقيق د. أحمد سليم الحمصي، الطبعة الأولى ١٩٩٤م/ ١٤١٥هـ، نشر: جروس برس ــ طرابلس، بيروت.

لم ينف ذلك أو يشكك فيه بل حصر الفرق في عدد الكلمات فإن كانتا اثنتين فهي تلاوة وإن كانت واحدة فهي قراءة.

ولكن ما هي القراءة؟

بعد أن أوضحنا معنى القراءة يجمل لنا أن نبين ماهيتها وما هو القرآن وما الفرق بينهما:

«قرأ الكتاب قراءة وقرانا: تتبع كلماته نظراً ونطق بها وقرأ: تتبع كلماته ولم ينطق بها وسميت حديثاً بـ (القراءة الصامتة) وقرأ الآية من القرآن: نطق بألفاظها عن نظر أو وحفظ فهو قارئ والجمع «قرأة» وقرأ السلام عليه قراءة: أبلغه إياه وقرأ الشيء قرءاً وقرآنا: جمعه وضم بعضه إلى بعض ـ أقرات المرأة حاضت وطهرت (ضد) فهي مقري وقرأ المرأة حبسها للاستبراء لتقضي عدتها فهي مقرأة.

والقرء: الحيض والطهر منه والجمع: إقراء وقرؤ واقرؤ... القراء: حسن القراءة»[٢٢].

في هذه الإجابة التي قدمها لنا مجمع اللغة العربية في معجمه الوسيط وشرح لنا ما هي القراءة وأنواعها والفرق بينهما وبين القرآن أدركنا أنه فرق في الدرجة لا في النوع فالقرآن ينصرف إلى جمع من الكلمات ضُمّت إلى بعضها البعض في حين أن القراءة هي لكلمة مفردة.

كذلك فالحافظ الكثير الحفظ هو حسن القراءة أي بالغ الجمع عميق الاستظهار والمرأة عند طلاقها فلتتأكد من براءة رحمها من أي علقة من طليقها كان يقومون بحبسها للإستبراء فيطلق عليها أنها مقراة أي محفوظة ومَسِيكَة. والذي ينطق بآي القرآن ويتلفظ بكلماته سواء عن نظر في المصحف أو عن ظهر قلب فهو قارئ أي حافظ لأنه في كلتا الحالتين ردد الألفاظ وأعادها وكررها. ولعل بعد هذه الجولة المتأنية بعض الشيء في عدد من أمهات كتب اللغة وقواميسها ومعاجمها يكون قد ترسخ في عين اليقين أن القراءة هي الجمع والحفظ والاستمساك وهذا يفسر لنا ما نقرأه في كتب السيرة أن من جمع القرآن في حياة محمد هم أربعة فقط وكلهم

(٢٢) **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية.

بلا استثناء من بني قَيْلَة «عن أنس بن مالك قال: جمع القرآن على عهد النبي ــ ص أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد، قلت لأنس: من أبو زيد؟ قال: أحد أبناء عمومتي»(٢٣) فهنا جمع القرآن أي حفظه.

وبهذا الخبر الموثق نختم أدلّة الثبوت على أن القراءة تعنى الحفظ.

لعل مما يضيء جوانب القراءة ويكشف عن المعنى الذي نرمز إليه وهو الحفظ أن نحوّم حول كلمة (إقرأ) أول كلمة تلاها محمد من القرآن أي نردد النظر فيما ورد بشأنها في كتب السيرة لنعرف ما إذا كانت تعني الحفظ والجمع؟

«فكان يأتي حراء فيتحنث فيه ــ وهو التعبد ــ الليالي ذوات العدد ويتزود ثم يرجع إلى خديجة، فتزود، لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاء الملك فقال: اقرأ، قال رسول الله ــ ص ــ فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني (من الغطّ وهو العصر الشديد) حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ (سورة العلق، الآية ١) حتى بلغ ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (نفس السورة، الآية ٥) فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة...»(٢٤).

فهنا نجد أن ملاك الرب أو جبريل أو الروح القدس السفير بين الله والرسل/ الأنبياء يطلب من محمد أن يقرأ فيرد عليه (ما أنا بقارئ) ويتكرر ذلك ثلاث مرات ولنتفرس في هذا الخبر ونفلّيه ونتدبره فنجد:

أ ــ أن محمداً أميّ لا يقرأ ولا يكتب فكيف يُطلب منه القراءة فهذا تكليف بمستحيل.

ب ــ أن الله تبارك وتعالى ــ وعلمه محيط بكل شيء ــ يعلم أن محمداً لا يقرأ فكيف يأمر واسطته جبريل أن يطلب منه ما

---

(٢٣) متفق عليه أي رواه الشيخان البخاري ومسلم في **صحيحيهما**، وأورده القرطبي في تفسيره المعروف **الجامع لأحكام القرآن**.

(٢٤) **الدرر في اختصار المغازي والسير**، ابن عبد البر الحافظ يوسف بن عبد البر التميري، (٣٦٨/ ٤٦٣هـ)، تحقيق شوقي ضيف، الطبعة الثانية، ص ٣٢، دار المعارف، مصر.

يجهل وهو القراءة فهذا عبث والله سبحانه وتعالى منزّه عنه.

ج ــ ثم ماذا يقرأ محمد؟

على فرض أن محمداً قارئ (بمعنى يعرف القراءة) فماذا يقرأ...

إن الملك لم يعرض عليه أو لم يقدم إليه شيئاً ليقرأه فإذا طلب منه القراءة مع عدم وجود المقروء فهذا ما لا يقره عاقل، إذن ما طلبه ملاك الرب من محمد في غار حراء بقوله إقرأ هو احفظ وإجمع وامأك وإستظهر الآيات والسُوَرْ التي سأنقلها إليك بلاغاً من الله جلّ شأنه.

ولقد فطن أبو القاسم السهيلي إلى هذا الملحظ شديد الخفاء:

«معنى اقرأ باسم ربك: وقوله: ما أنا بقارئ أي: أني أمي فلا أقرأ الكتب قالها ثلاثاً فقيل له اقرأ باسم ربك أي أنك لا تقرؤه بحولك ولا بصفة نفسك ولا بمعرفتك ولكن اقرأ مفتتحاً باسم ربك مستعيناً به فهو يعلمك كما خلقك وتعلمه بينهم (= بين المسلمين) تلقينا من جبريل نزله على قلبه بإذن الله ليكون من المرسلين»[٢٥].

فالسهيلي يفسر قول محمد (ما أنا بقارئ) أنه أميّ لا يقرأ الكتب ثم يعطف على المدلول الصحيح لكلمة اقرأ أي احفظ بأن محمداً سيحفظ ما يلقى إليه لا بحول نفسه ولكن باسم الرب وبمعونته وإن ذلك يتم عن طريق التلقين الذي يؤدي بدوره إلى الحفظ والجمع...

ولعل ما يدعم ذلك أن القرآن وصف المسلمين بما يلي ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾ (سورة الجمعة، الآية ٢)، ومن أقوال محمد (نحن أمّة أميّة لا نكتب ولا نحسب) وهو حديث متواتر.

إذن من بدائه العقول أن المناسب لكل هؤلاء هو الحفظ الطريق الأمثل للتعلم.

الطبري جمع بين علمي التفسير والتاريخ فكتابه في التفسير من أميز

(٢٥) **الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام،** ابن القاسم السهيلي ت ٥٨١هـ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، ص ٢٧٠ ــ ٢٧١، الجزء الأول، طبعة ١٢٩١هـ/ ١٩٧١م، نشر مكتبة شقرون، مصر.

كتب التفسير وكتابه في التاريخ يعتبر العمدة في هذا الفن ومن هنا تجيء روايته على درجة عالية من الخطورة:

«... قال: حدثنا عبد الله بن شداد قال: أتى جبريل محمداً ــ ص ــ فقال: يا محمد إقرأ.. فقال ما أقرأ فضمه ثم قال: يا محمد إقرأ قال: ما أقرأ قال: فضمه ثم قال: يا محمد إقرأ قال: وما أقرأ قال «اقرأ باسم ربك» الآية حتى بلغ (.. ما لم يعلم).. قال: فجاء إلى خديجة...»[٢٦].

عندما طلب جبريل من محمد أن يقرأ كان من الطبيعي أن يسأله: ما أقرأ؟ أي ما أحفظ؟ أي شيء أقرأه أي شيء أحفظه؟ إنك لم تلق إلي بشيء أي لم تلقّني شيئاً حتى اقرأه أي احفظه وأجمعه واستظهره وكأنما تنبه جبريل إلى معقولية رد محمد ومنطقية جوابه فلقّنه المطلوب حفظه (اقرأ باسم ربك...) إنما قد تُشكِل عبارة (ما أقرأ) إذ يجوز أن تعني النفي أي (لا أقرأ) أو الاستفهام (ما هو الذي تريدني أن أقرأه؟) ولكن الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه عن (خاتم النبيين) أورد نصاً وضع حداً لهذه الإشكالية.

«ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ماذا أقرأ، فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ، قال فقلت ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداءً لي أن يعود لي بمثل ما صنع بي فقال ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ إلى آخر (... ما لم يعلم) قال: فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتب في قلبي كتاباً..»[٢٧].

إذن كان سؤال محمد: ماذا أقرأ؟ أي ما هو الذي تريدني أن أحفظه أو... أي قول هو الذي تبغي أن تلقنني إياه لكي أقرأه أي أحفظه وأجمعه. ينقل إلينا صاحب السيرة الحلبية رواية يتوجب علينا أن نحدّق في سطورها تحديقاً شديداً.

«وفي رواية فقلت والله ما قرأت شيئاً قط وما أدري شيئاً أقرؤه أي لأني ما

(٢٦) **تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك**، الطبري (٢٢٤/ ٣١٠هـ)، الجزء الثاني، ص ٢٩٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، العدد ٣٠ من ذخائر العرب، الطبعة الرابعة ١٩٧٧م، دار المعارف، مصر.

(٢٧) **خاتم النبيين**، الشيخ محمد أبو زهرة، الجزء الأول، ص ٣٠٤، الطبعة الأولى ١٩٧٩م، دار الفكر العربي، مصر.

قرأت شيئاً فهو من عطف السبب على المسبب على المسبب قال (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم) فقرأتها فانصرف عني وهببت أي استيقظت من نومي فكأنها كتبت في قلبي كتاباً... أقول: أي استقر ذلك في قلبي وحفظته...»[٢٨].

جاء على لسان محمد عبارتين بلغتا الذروة من الأهمية:

أ ــ (والله ما قرأت شيئاً قطّ) فإن كان قصد به أنه ما أمسك كتاباً أو كراسة أو ورقة قرأ منها حرفاً... (وهو المعنى المُحدَث لـ لفظة قرأ والمخالف لأصلها أو جرثومتها أو أسها كما ورد في المعاجم والقواميس) فقد صدق وهو في كل أقواله صادق وصدوق حتى ألدّ أعدائه يبصم بالعشرة على ذلك ــ لأنه لم يوجد في جزيرة العرب حتى واقعة غار حراء كتاب من أي نوع والسماء التي أرسلت الملاك إليه لا شك تعلم ذلك فكيف تأمره أن يأتي بفعل لم يسبق له ممارسته من قبل ولا توجد الأدوات التي تساعد على إتيانه؟

أما أنه قد هدف من ردّه الاستنكاري أنني ما حفظت شيئاً قط والمعنى به هو الشعر لأن الشعر ــ هو الذي كان يتداول ويحفظ ــ فقد صدق لأنه لا ينبغي له أن يقول الشعر أو يحفظه أو يردده ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ (سورة يس، الآية ٦٩).

ب ــ (فكأنها كتبت في قلبي كتاباً أقول أي استقر ذلك في قلبي وحفظته) هذه العبارة الأخيرة من قول محمد فإنها بالإضافة إلى الشطر الأول تعني أنه حفظ الآيات التي لقنه إياها روح القدس جبريل ــ وهذا هو معنى القراءة.

وفي رواية ابن اسحق عن النبي ــ ص ــ قال (أتاني جبريل بنمط أي

(٢٨) **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون**، الشهير بـ **السيرة الحلبية**، ص ٣٨٤ ــ ٣٨٥، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ/ ١٩٨٤م، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

قطعة من ديباج فقال: اقرأ... الخ ومعنى هذا أن جبريل جاءه بكتاب مرقوم فإنْ كان هذا الكتاب المرقوم إنما أتى به جبريل ليستملي منه ويلقّن النبي ــ ص ــ ما فيه فهذا واضح لا يحتاج إلى مناقشة وإن كان عرضه ليقرأ منه النبي ــ ص ــ فإنّ الأمر يحتاج إلى مناقشة ذلك أنّ تكليفه بالقراءة من الصحيفة وهو لا يقرأ ولا يكتب تكليف بما لا يطاق فإن قيل إن الله سبحانه وتعالى علّمه حينذاك القراءة لزم عليه أنه قد انتقل بهذا من الأميّة إلى التعليم وقد عرفنا أن أميته من دعائم إعجاز رسالته والأقرب إلى الصواب أنّ جبريل ــ س ــ جاء بتلك الصحيفة ليستملي منها ويلقّن النبي القراءة[٢٩]. وهكذا فإن على الروايتين أي سواء جاء جبريل محمداً بنمط من ديباج أو بلا شيء معه فإن كلمة اقرأ تعني احفظ، تلقّن، اجمع... وهكذا تضافرت أدلّة الثبوت القوية من المصادر التراثية باذخة الدرجة على أن القراءة هي الحفظ.

وقبل أن نغادر هذه النقطة نعرّج على واقعة الغار: غار حراء التي طرحناها كأحد أدلة الثبوت فيما نذهب إليه من القراءة هي الحفظ ــ كعادتنا في كل ما نكتب نهتم اهتماماً كبيراً بالتوثيق وهذا ما فعلنا هنا بخصوص هذه الواقعة فقد استندنا إلى أمهات كتب سيرة محمد التي تلقّنها الأمة بالتجلة وبالغ الاحترام وعظيم التقدير ونذكر ها هنا حسب ترتيبها في الدراسة؟

١ ــ **الدور في اختصار المغازي والسير** لـ ابن عبد البر النميري

٢ ــ **الروض الآنف** بـ أبي القاسم السُهيّلي

٣ ــ **تاريخ الطبري**

٤ ــ **السيرة الحلبية:** إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون.

ومن المحدثين الثقات:

٥ ــ **خاتم النبيين:** لـ الشيخ محمد أبو زهرة.

---

(٢٩) **تاريخ الصحابة والتابعين،** الجزء الأول، ص ٢١، حمزة النشرتي وآخرون، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، والناشر هو المؤلف.

وقد اكتفينا بهم منعاً للإطالة والإملال والتكرار والإعادة بغير طائل ــ وقد يرى الكثيرون أن هذا مبالغة في التوثيق إذ يكتفي غيرنا في مثل هذا المقطع من المبحث بمصدر أو اثنين على الأكثر بيد أننا تعمدنا ذلك حتى نقطع الطريق على كل معاند لجوج ــ لأن الفكرة التي سوف تنتهي إليها تجيء على هامش الدراسة في هذه الخصوصية سوف تلقى معارضة شديدة من كثيرين ومن حق أي شخص أن يعارض فكما يقول الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان شيخ المذهب (إن قولنا هذا رأي نذهب إلى أنه صواب فمن يرى خلاف ذلك فليطرح حجته) إنما كل ما نرجوه أن تكون معارضة موضوعية ولنشرع في تقديم الفكرة:

ثبت من واقعة الغار (غار حراء) ومن الحوار الذي دار بين محمد وبين ملاك الرب، الروح القدس، جبريل أن (إقرأ) وهي أول كلمة أُفتتح بها القرآن تعني بما لا يدع مجالاً للشك (احفظ) ويعاضد ذلك التأهيل اللغوي الذي قدمناه لـ لفظة القراءة...

وإذ قد ثبت ذلك فإن النتيجة التي تترتب على هذه المقدمة التي وثقناها بكل ما أوتينا من مصادر أو من قوة هي أنها أي الثقافة الإسلامية ثقافة حفظ وجميع واستظهار.. الخ.

لأنها ثقافة نص، شفاهي تلقيني ألقاه ملاك الرب على محمد فحفظه ووعاه ونُقش في قلبه وهو (محمد) بدوره نقله إلى صحابته...

ولقد أدرك السلف الصالح ــ رضي الله عنهم ــ ذلك ووعوه وعياً عميقاً ولذلك كان من أعز الألقاب العلمية لديهم لقب الحافظ ــ مثل:

الحافظ الذهبي والحافظ ابن كثير والحافظ ابن حجر العسقلاني.

وفي بدّي الأمر كانوا لا يستعينون إلا بالذاكرة ملكة الحفظ ويستنكرون بل ويسخرون ممن يستعين بالكتابة وتروى عن بعض أعلامهم مثل البخاري حكايا معجبة تقطع باهتمامهم بل وباعتمادهم على الحفظ وحده دون سواه... وسار الأمر على ذلك إذ رغم التدوين فقد كان الحفظ عندهم هو الأساس...

ثم جاء المحدثون فأنكروا ذلك واستنكروا أن تكون الثقافة الإسلامية ثقافة نص وحفظ وتلقين لتوهمهم أن هذا يقدح فيها ويحط من شأنها وتغاضوا عن المدلول الأصيل لكلمة (اقرأ) ونسجوا حولها أفكاراً منحولة وملصقة ومدعاة وهم يظنون أنهم بذلك يُعلون من شأن الثقافة الإسلامية في حين أن العكس هو الصحيح لأن الأثواب الزيوف والملابس المستعارة لن تخفي الأصل مهما طال الزمن ونحن ندعوهم إلى مراجعة موقفهم والعودة إلى الجذور والاعتراف بأنها ثقافة حفظ وتلقين لأن أسها وعمادها النص وأن يبنوا أفكارهم على هذا الأساس وفي معتقدنا أن ذلك سوف يساعد كثيراً على الانتشال من وهدة التخلف الحضاري الذي يعتبر التشوش الفكري من أهم علله وأقوى أسبابه.

ثم نؤوب إلى سياقة الحديث:

إذن تفصيلنا للكلمة البصيرة على القراءة له ركائزه القوية التي تبرره ودعائمه الراسخة التي تسوغه ولم يأت اعتباطاً أو لمجرد الإعجاب بـ اللفظة الأولى أو للنفي العُصابي للفرنجة أو الحماس الأجوف لـ السلف.

ما هو الوفد؟

اجتمعت كتب الســيرة على تسمية الذين قدموا على محمد خاصة في العام التاسع الهجري بـ الوفود ومن ثم أطلق عليه «عام الوفود»؟ وإكمالاً لهذا السؤال وتتمة له نضيف:

لماذا لم يسموهم بـ المندوبين أو المرسال أو السفراء أو البريد؟

(في حديث محمد: إذا أبردتم إليّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه، حسن الاسم، وأبردتم بريداً أي أرسلتم رسولاً. أ. هـ).

إن كلمات الوفد والوفادة والوفود والوَفَدَة تضم بين دفتيها كل هذه المعاني وتزيد عليها أنها تعني الارتفاع والإشراف والسبْق (بسكون الباء) والانتصاب وهو ما قد تفتقر إليه الكلمات السوابق:

ــ الوافد السابق من الإبل والقطا سائرها والمرتفع من الخد عند المضغ.

الإيفاد: الإشراف كـ التوفّد والإرسال كـ التوفيد وهو الارتفاع.

الوفد ذروة الجبل من الرمل المشرف.. وهم على أوفاد أي على سفر[٣٠]. فكأنما المرسال الذي ذهب إلى محمد سبق رهطه أو فخذه أو

(٣٠) **القاموس المحيط**، الفيروزآبادي.

قومه إذ جلس بين يديّ محمد ارتفع عن أقرانه وشرف بينهم ويضيف جار الله الزمخشري صاحب الأساس معنى متميزاً وهو أن الوفادة لا تكون إلا للملوك ومن شابههم من الأكابر والأعاظم والأفاخم...

إذ لا يُتصور أن تكون على الصعاليك والمفاليك والحراشف والزعانف والمفاليس لأن القدوم عليهم ليس فيه شرف أو انتصاب أو ارتفاع أو سبق إنما على النقيض فيه ضعة وخُمود وهُبوط وتأخر وبخْس وانتقاص.. الخ.

ــ وفدت عليه وفوداً ووفادة وهو كثير الوفادات على الملوك.. وأوفدت فلاناً على الملك وتوافدنا عليه... ورأيت عنده الوفد والوفود والوفاد.

رأيت وافد الإبل ووافد الطير وهو الذي يتقدم سائرها في السير والورود.. أوفد الشيء: ارتفع وأشرف ومنه سنام موفد واستوفد في قعدته: ارتفع وانتصب(٣١).

ويقطّر لنا مجمع اللغة العربية مدلول الوفد تقطيراً فهم:

جماعة مختارة تتقدم في لقاء ذوي الشأن(٣٢).

ولكن من الذي يصلح للوفادة على الملوك والعظماء والسادة النُجُب؟

وإذ أننا دائماً نجد في موسوعات سيرة محمد غذاء للروح والعقل والقلب فإن صاحب السيرة الشامية يجيبنا عن هذا السؤال على النحو التالي:

قال في الصحاح: وفد فلان على الأمير أي ورد رسولاً فهو وافد والجميع وفد مثل صاحب وصحب وجمع الوفد أوفاد ووفود ــ والاسم الوفادة ــ وأوفدته إلى الأمير أي أرسلته وفي شرح المواهب ٤/ ٢ قال النووي: الوفد الجماعة المختارة للتقدم أي التي اختيرت لفصاحة أو نحوها للتقدم في لقاء العظماء وأحدهم وافد أي راكب قال ابن كثير وغيره،

---

(٣١) **أساس البلاغة**، جار الله أبو القاسم الزمخشري.
(٣٢) **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية.

انتهى كلام النووي وأقره في الفتح كأنه استعمال عرفي، وإلا ففي اللغة: إن الوافد القادم مطلقاً مختاراً للقاء العظماء أم لا راكباً أم لا[٣٣].

فالصالحيّ يخبرنا أن من المحال أن يفد على الملوك وأضرابهم كل من هبّ ودبّ فلا يصلح الغبيّ الفَدْم العييّ الألكن المحمّق المأفون بل يتعين أن يكون ذكياً لبيباً فطناً فصيحاً لماحاً لوذعياً حسن الهيأة، أنيق البزّة جميل الشارة ونبهنا (= الصالحيّ) إلى أن هذه هي صفات الوافد في الاستعمال اللغوي فهو القادم مطلقاً مهما كانت صفاته المادية والمعنوية والوفود التي أقبلت على محمد كانت من النوع الأول حسبما سوف نراه في الفصل الأول.

---

(٣٣) **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، محمد بن يوسف الصالحيّ، الجزء السادس، تحقيق إبراهيم الترزي وعبد الكريم الغربادي، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨١م، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

الباب الأول

البصائر الرأسية

يجوز أن يقال البصائر (بالجمع) الرأسية لأن لكل وفد بصيرة خاصة به، ونعني بـ(الرأسية) تناول كل وفد على حدة، نبصره ونفلّيه ونتمعن فيه ونستخرج من خبره الدلالات المباشرة والدلالات الحافّة ومن جِماع تلك الدلالات تتشكل صورة ولو تقريبية لمقطع بالغ الخطر في السيرة المحمدية نستطيع أن نزعم حسبما لمسناه من قراءاتنا لها سواء في المصادر التراثية أو المراجع المحدثة أنه لم ينل ما يستحقه من الدرس والتمحيص والتدقيق. وكانت طرائق التناول تنحصر إما في إثبات الوقائع ورصد الأحداث أو التعليق عليها بكيفية سهلة مجانية ولا يقدح في هذه الملاحظة شرح بعض الألفاظ الغامضة أو ردّ الوفد إلى عشيرة معينة أصلها قبيلة كذا أو تحديد الأماكن تحديداً جغرافياً.

بيد أنه ـــ على حد ـــ علمنا ـــ لم يقم أحد من الكاتبين أو الباحثين بتحليل أحداث عام الوفود (وسبق أن أوضحنا ما نعني به من عبارة عام الوفود) تحليلاً موضوعياً أحاط بـ المادة المبحوثة ـــ حسب الطاقة من كل جوانبها ومحاولة استقطار النتائج منها لأن

هذا الحادث من الحوادث الكاشفة والحوادث إما منشئة أي لها ما بعدها أي سوف تتولّد عنها آثار غالباً ما تجيء جسيمة وإما كاشفة أي تظهر ما كان خبيثاً أو مستوراً أو حتى ما لا تلمحه النظرة العابرة، ووجه الكشف فيه أنه وفد جاء متأخراً إذ إنه يقع في الفصل الخاتم للسيرة.. وقد أوضح القسمات وتكاملت والملامح قد تتامت.

بحيث يغدو من الميسور القول بأن الصورة قد تشكّلت بقدر نهائي وترتيباً على ذلك تصبح الأحكام أو التقريرات المستقاة من مطالعتها صحيحة...

وهذا ينسحب على كل أطراف الحدث.

وسوف يجيء التناول للوفود حسب الترتيب الأبجدي ولعل هذا يعاضد معنى (الرأسة) إلى حد كبير:

١ ـ أحمس

قال ابن سعد ـ رحم ـ: قدم قيس بن غربة الأحمس في مائتين وخمسين رجلاً من أحمس.

قال رسول الله ـ ص ـ لبلال: (أعطِ ركب بجيلة وأبداً بالأحمسيين).

قال رسول الله ـ ص ـ (اكتبوا البجليين وأبدأ بالأحمسيين) .

فدعا لهم رسول الله ـ ص ـ خمس مرات (اللهم جُدْ عليهم، اللهم بارك فيهم).

وفي رواية أحمد (اللهم بارك في أحمس وخيلها ورجالها ـ سبع مرات ـ)

«في رواية: قدم وفد أحمس ووفد قيس فقال رسول الله ـ ص ـ: (ابدأوا بالأحمسين قبل القيسيين). فقال لهم رسول الله ـ ص ـ: من أنتم؟ فقالوا: نحن أحمس الله وكان يقال لهم ذلك في الجاهلية فقال رسول الله ـ ص ـ: (وأنتم اليوم لله).

وفي أُسْد الغابة:

«قيس بن غربة أو غربة الأحمسي، وفد على النبي ـ ص ـ ودعا قومه إلى الإسلام ذكره المستغفريّ في كتاب الوفود، أخرجه أبو موسى مختصراً».

أول ما يلفت الانتباه كثرة عدد وفد الأحمسيين: مائتان

وخمسون رجل. وأن محمداً أجازهم قدمهم على البجليين ودعا لهم خمس مرات وفي رواية أحمد (بن حنبل) سبع مرات وللرقم سبعة مكانة خاصة في الديانات الإبراهيمية الساميّة الثلاث ففي الإسلام: الأرضون سبع والسماوات سبع، والطواف حول الكعبة سبع، ومراحل الوحي سبع، وفي الحديث: سبعة يظلهم الله بظله ولا ظل إلا ظله والبيت المعمور في السماء السابعة وفي القرآن: سبع سنبلات خضر.. و.. سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف.. و.. فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم و.. يقولون سبعة وثامنهم كلبهم.. و.. آتيناك سبعاً من المثاني.. و.. لها سبعة أبواب.. وكمثل حبة أنبتت سبع سنابل.. و.. سخرها عليهم سبع ليالٍ.. و.. تزرعون سبع سنين دأباً.. و.. ثم يأتي بعد ذلك سبع شداد.. و.. والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر.. الخ.

والدعاء من جانب محمد للأحمسيين ولغيرهم من الوفود تأكيد لنبوته لأنهم حديثو عهد بالإسلام وهم مثل جميع الساميين يعتقدون أن النبي هو فم الله ومن ثم فإن دعوته مستجابة وسنرى فيما يلي أن السماء سوف تلبي دعاءه.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن الدعاء للوفود يرضيها لأنه يسكّن خواطرها ويمنحها الطمأنينة إذ أنها غدت بعده على وفاق مع السماء. وقد أجازهم محمد أي منحهم عطايا وهذه عادة مستقرة لدى العرب وغيرهم من الشعوب شبه المتبدية أو المتبدية عندما يقدمون على العظماء والكبراء ينفحونهم ويهدون إليهم، كما أنه من جانب آخر يوثّق أن محمداً غدا سيد الجزيرة العربية بلا مدافع.

وسألهم محمد: من أنتم؟ فأجابوه فرضي عن اسمهم إذ أننا سوف نرى أنه سيغيّر الأسامي إما لأنها حوشية أو منفرة أو نذير شؤم أو لأنها تناقض جزءاً أو كلاً من مبادئ الديانة التي بشّر بها.

* * *

وفي الإضافة التي وردت بالخبر ومصدرها (أُسْد الغابة) ما ينبئ عن أن الوافد قد يقوم بمهمة خطيرة يكلفه بها محمد وهي دعوة قومه (عشيرته أو قبيلته) إلى الإسلام تتكرر ذلك مع كثير من الأوفاد.

وقد ينجح الوفد في (أسلمة) عشيرته أو قبيلته نجاحاً كلياً أو جزئياً أي أن أفراد العشيرة أو القبيلة كلهم يُسْلمون أو يُسْلم بعضهم ولا يُسلم البعض الآخر ومفاده أن قبائل جزيرة العرب من المجازفة العلمية أن يُدَّعى أنها على بكرة أبيها اعتنقت الإسلام إبّان حياة محمد وهنا يجب أن نفرّق بين أمرين:

أولهما: خضوعها لسلطان دولة قريش التي أسسها محمد في أثرب (سميت المدينة فيما بعد) محققاً بذلك حُلم آبائه وأجداده انتهاء بجده الأعلى قُصيّ.

وآخرهما: اعتناقها للديانة التي بشّر بها محمد.

ولقد كان محمد يدرك ذلك إدراكاً وثيقاً ومن ثم قرأ على أتباعه الآية التي تقول ﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾[1]. فهم دخلوا تحت راية الدولة وأذعنوا لها وانقادوا لحكمها ولكنهم ــ حتى ذلك الحين ــ لم يكونوا قد اعتنقوا ديانة محمد وآمنوا بها وهذا ملحظ بالغ الخطر لأنه يكشف لنا أن

---

(١) **القرآن الكريم**، سورة الحجرات، الآية ١٤.

حروب الردّة (ونفرّق بينها وبين حروب الصدقة أو الزكاة. أ. هـ) لم تكن حروباً دينية بل حروباً سياسية (أهلية) إذ كيف تُقاتل قوماً لخروجهم من الإسلام وهم أصلاً لم يدخلوه ومن ثم فإنّ الأفاعيل التي ارتكبها قادة جيوش أبي بكر في تلك الحروب وعلى رأسهم خالد بن الوليد من أجل الإسلام بل للحفاظ على دولة قريش التي أقيمت في يثرب.

٢ ــ أزد شنوءة

«قدم على رسول الله ــ ص ــ صرد بن عبد الله الأزدي في وفد من الأزد بضعة عشر رجلاً فنزلوا على فروة بن عمرو (الأنصاري) فحباهم وأكرمهم وأقاموا عنده عشرة أيام فأسلموا، وكان صرد أفضلهم فأمّره رسول الله ــ ص ــ على من أسلم من قومه وأمره أن يجاهد بهم مَن يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن، فخرج صرد يسير بأمر رسول الله ــ ص ــ نزل بـ جرش (من مخاليف اليمن من جهة مكة) وهي يومئذٍ مدينة حصينة مغلقة وبها قبائل من اليمن تحصنوا إليها وضوت إليهم خَثْعَم، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا فحاصرهم شهراً أو قريباً منه وكان يغير على مواشيهم فيأخذها.. ثم تنحّى عنهم إلى جبل يقال له (شَكَر) فظنوا أنه قد انهزم فخرجوا في طلبه حتى أدركوه فصفّ صفوفه فحمل عليهم هو والمسلمون فوضعوا سيوفهم فيهم حيث شاءوا وأخذوا من خيلهم عشرين فرساً فقاتلوا عليها نهاراً طويلاً.

كان أهل جرش بعثوا إلى رسول الله ــ ص ــ رجلين يرتادن وينتظران... قال ــ أيّ بلاد الله شَكَر فقالا: يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له (كَشَر) بذلك يسميه أهل جرش فقال رسول الله ــ ص ــ ليس بكشر ولكنه شَكَر قالا: فما شأنه يا رسول الله؟ قال: إن بُدْن الله لتنحر عنده الآن وأخبرهما بملتقاهم وظفر صرد عليهم... فسألاه أن يرفع عنهم فقال اللهم ارفع عنهم فخرجا فوجدا قومها أُصيبوا يوم أصابهم صرد في اليوم الذي قال فيه رسول الله ــ ص ــ ما قال وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكر.

قال ابن سعد: فقصّا على قومهما القصة فخرج وفد جَرَش حتى قدموا على رسول الله ــ ص ــ فأسلموا فقال رسول الله ــ ص ــ: مرحباً بكم أحسن الناس وجوهاً وأصدقه لقاءً وأطيبه كلاماً وأعظمه أمانة أنتم مني وأنا منكم وجعل شعارهم مبروراً وأحمى لهم حول قريتهم على أعلام معلومة للفرس، والراحة والمثيرة (بقرة الحوت) فمن رعاه من الناس فماله سحت».

هي قبيلة يمانية نزل وفدها على أحد الأنصار ومعلوم أن الأنصار أصلهم يمانية فلما أسلم الوفد أمّر عليهم محمد أفضلهم وهو صرد بن عبد الله الأزدي وعلى كل من يسلم من أزد شنوءة وأصدر إليه أمراً حازماً بأن يقوم هو ومن أسلم من قومه بقتال من يجاورهم ممن يرفض اعتناق الديانة الإسلامية وقد نزلت تلك القبائل الرافضة مخلافاً من مخاليف اليمن يسمى (جَرَش)[٢] وكانت جَرَش مدينة حصينة مغلقة وانضوت إليهم قبيلة خثعم ولما استوثق صرد من امتناعهم عن قبول الإسلام بدأ في مقاتلتهم.

وصدور الأمر الصارم من محمد لصرد بالقتال جاء تنفيذاً لآيات القرآن الصريحة في ذلك منها:

﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ (سورة التوبة، الآية ١٢).

﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾ (سورة النساء، الآية ٧٦).

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ (سورة البقرة، الآية ١٩٣).

﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ (سورة النساء، الآية ٩١).

وثقفتموهم أي وجدتموهم.

---

(٢) **المخلاف:** هو الكورة أي المحافظة أو المديرية كما جاء في المعجم الوسيط.

﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ (سورة البقرة، الآية ١٩١).

﴿فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ (سورة النساء، الآية ٨٩).

﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ (سورة التوبة، الآية ٢٩).

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ (سورة الأنفال، الآية ٣٩).

﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم﴾ (سورة التوبة، الآية ١٤).

هذه آيات تحمل أوامر حاسمة بقتال القبائل التي تأبى الإيمان بالديانة التي بشّر بها محمد ـ ص ـ وفي كتابنا (قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية) قلنا إن رفض الدخول في الإسلام يعني في الوقت نفسه وبالدرجة نفسها رفض الإنضواء تحت علم دولة قريش التي أسسها محمد في يثرب.

من جانب آخر صدرت عن محمد أحاديث تؤكد هذا المعنى بكل جاء ونعني به قتال كل رافض للإسلام (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، محمد رسول الله فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها)[٣]. ومفهوم المخالفة أن من لا يشهد أو من لا ينطق بالشهادتين فلا عصمة لدمه وماله. وهذا الحديث رفعه في وجه أبي بكر بعض الصحابة وهم يعارضونه في قتال مانعي الصدقة والزكاة ولكنه تمسك بعُجُزه ويقصد (إلا بحقها) وأن الزكاة أو الصدقة من حقها ومن ثم جاز قتال مانعيها

---

(٣) متفق عليه.

وأياً كان الأمر في هذا الجدال فالذي لا مشاحة فيه أن قتال من لا ينطق بالشهادتين (شارة دخول الإسلام) فرض واجب لا تهاون فيه ولا محيص عنه. ولعل الشعار الذي كان يترجم مضامين رسائل محمد إلى القبائل وهو (أسلموا تسلموا) أصدق برهان على أن قتال القبائل المشركة الرافضة قبول الإسلام أمر محتوم ــ ومن لا يسلم فكما يقول المثل (ذنبه على جنبه) سواء كان فرداً أو قبيلة إذ يعرّض نفسه للتصفية الجسدية واستصفاء الأموال وأسر النسوان والذراري.

واقتصر صرد بحيلة عسكرية إذ أن الحرب خدعة لدى كل الأجناس والأديان وعلى طول التاريخ ومن أثر الحصار أرسلت القبائل المحاصرة اثنين من رجالها ليفاوضا محمداً، الذي لا شك أنه بلغته أخبار الهزيمة فنظّلها إليهما وأضاف أن صرداً ومن معه من المسلمين نحروا أفراد قبيلتهم كما تنحر البُدْن أي النياق، والبقرات قرباناً لله وسألاه الموادعة وقفلا راجعين ولم تجد تلك القبائل ــ بعد الهزيمة المنكرة بُداً من اعتناق الإسلام والإنضواء تحت راية الدولة القرشية فأرسلت وفداً يحمل راية التسليم.

واستقبلهم محمد بالترحاب بل ونفحهم ألقاباً فخيمة، لا مشاحة أنها أشعرتهم بالاعتزاز والفخر، ومنح الألقاب الحسينية معلم بارز من معالم سياسة محمد إزاء أصحابه وتابعيه[٤]. وينتصب هنا سؤال:

كيف تحول أولئك من (بُدْن الله) التي تنحر عند سفح الجبل

---

(٤) لمزيد من التفصيلات في هذه الخصوصية، فضلاً ارجع إلى كتابنا **الشدو**، السفر الأول، **محمد والصحابة**، فصل **التلقيب**، وهو من إصدارات دار سينا، مصر ودار الانتشار العربي، بيروت.

إلى أحسن الناس وأصدقهم وأطيبهم وأعظمهم بل إن محمداً نسبهم إلى نفسه وانتسب إليهم (أنتم مني وأنا منكم)؟

الجواب عليه: هو أنهم اعتنقوا الديانة التي بشّر بها وبالتالي أذعنوا لدولة قبيلته التي أقامها بـ أثرب ــ أي أن مجرد النطق بالشهادتين يحوّل الفرد من ناقة أو بقرة إلى إنسان حائز على مزايا حميدة ومناقب جليلة وشمائل رفيعة.

ولا عجب في ذلك لأن محمداً كان يُعدّ دخول الإسلام نعمة كبرى بل أعظم نعمة (كفى بالإسلام نعمة) وكان يحثّ أتباعه على شكر الله آناء الليل وأطراف النهار عليها.

وفي وقت سابق قرأ محمد على الصحب والتبع آية مفادها أن المشركين أي الذين بقوا على ديانتهم ولم يذعنوا له إنما هم نجس ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾[٥] والنجس في معاجم اللغة: القذارة والخبث، اختُلِف في كون المشرك نجساً: فعن ابن عباس أن أعيانهم نجسة كـ الكلاب والخنازير وعن الحسن: من صافح مشركاً توضأ وهو قول الهادي من أئمة الزيدية[٦]. ولم تقف منائح محمد لهم عند هذا الحد بل جعل شعارهم هو شارة أو علامة يتعارفون بها على أسفارهم ومعاركهم ــ جعله مبروراً أي صادقاً صالحاً ميموناً ــ ثم مارس مسؤوليته كـ حاكم مطلق للجزيرة لا يُردّ له أمر ولا يخالف له قرار فحدد لهم حدود قريتهم (على أعلام معلومة) يستحيل على أي فرد مهما كان أن يغيرها أو يتخطاها.

---

(٥) **القرآن الكريم**، سورة التوبة، الآية ٢٨.
(٦) **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمّي النيسابوري المتوفى سنة ٧٢٨هـ، في تفسيره لـ سورة براءة، التوبة.

وسوف نرى فيما يلي أن محمداً مع الوفود يتصرف وفق صفاته المتعددة: مرة كنبي/ رسول[٧] وأخرى كقائد عسكري وثالثة كرأس للدولة. لعل هذه الحقيقة التاريخية تفسّر لنا إصرار غالبية رؤساء الدول العربية (والإسلامية إلى حد ما) على الجمع بين رئاسة الدولة وقيادة الجيش وتتساوى في ذلك الأنظمة الجمهورية والملكية والسلطانية.

---

(٧) (نحن نميل إلى رأي المعتزلة في صعوبة التفرقة بين النبي والرسول وأن من الأوفق عقلاً بل نقلاً: التسوية بينهما. ا. هـ).

٣ ــ وفد أزد عُمَان

«أسلم أهل عُمَان فبعث إليهم رسول الله ــ ص ــ العلاء بن الحضرمي يعلمهم شرائع الإسلام ويصدق أموالهم ــ خرج وفدهم إليه فيهم أسد بين بيرح الطاحي فلقوا رسول الله ــ ص ــ فسألوه أن يبعث رجلاً يقيم أمرهم... فوجه معهم إلى عمان مخربة العبدي ــ وقدم سلمة بن عياذ الأزدي في أناس من قومه فسأل رسول الله ــ ص ــ عما يعبد ويدعو إليه فأخبره... فقال: ادع الله أن يجمع كلمتنا وألفتنا ــ فدعا لهم وأسلم سلمة ومن معه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ــ ص ــ (نعم الوفد الأزد طيبة أفواههم، برة أيمانهم نقية قلوبهم) وعن طلحة بن داوود قال: قال رسول الله ــ ص ــ (نعم المرضعون أهل عمان يعني الأزد). وعن بشر بن عصمة الليثي ــ رضي ــ أن رسول الله ــ ص ــ قال: الأزد مني وأنا منهم، أغضب لهم إذا غضبوا ويغضبون لي إذا غضبت وأرضى لهم إذا رضوا ويرضون إذا رضيت».

هؤلاء أسلموا وكفوا أنفسهم المقاتلة فبعث إليهم محمد صحابياً ليفقههم في أمور دينهم وليأخذ منهم زكواتهم ودفع الزكاة كان أحد الأدلة الدامغة على اعتناق الإسلام والتسليم لدولة قريش والشق الأخير هو الذي حرص عليه ابن أبي قحافة ــ الخليفة الأول، إذ فطن إلى أن امتناع بعض أو جلّ القبائل عن دفع الزكاة له بعد وفاة محمد وانتقاله إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً يشكل ثورة صريحة ضد الدولة القرشية التي تربع على رأسها ــ وأرسلوا إلى يثرب وفداً قابله محمد كالعادة بالترحاب ووصفهم بأوصاف

حميدة وكان العربي لا يزال تهتز أعطافه طرباً للمدح وأكد محمد لهم أنهم منه وهو منهم يغضب لغضبهم ويرضى لرضاهم وهي منزلة رفيعة. وطلب رأس الوافدين من محمد ــ بصفته نبياً لا شك أن السماء تستجيب لدعائه ــ أن يدعو لهم بـ تأليف القلوب وجمع الكلمة الأمر الذي يدلّ على أن الفرقة فاشية فيهم والاختلاف يضرب بأطنابه بين جنباتهم.

هناك تناقض بين رأس الخبر ووسطه: ففي المفتتح: أسلم أهل عُمَان، وفي الوسط: وأسلم سلمة ومن معه، فكيف يمكن التوفيق بينهما أي: كيف أسلم أهل عُمَان؟ وكيف أن الوفد الذي أرسلوه وهم عادة كبارهم وملأهم لم يسلموا؟

وهذا المثل رغم أنه قزم (ضئيل) الشأن إنما هو يمثل ظاهرة شائعة وهي تناقض النصوص وتضاربها وتخبطها وقد أجهد الفقهاء والأصوليون والمفسرون أنفسهم للتوفيق بينها مثل ادعائهم بأن هذا عام أُريد به الخصوص أو خاص قُصد منه العموم أو مطلق ولكنه قُيّد أو مقيد بيد أنه لعلة كذا أُطْلِق فإذا أعيتهم هذه الحيل الكليلة زعموا أن هذا النص نسخ النص الآخر (المناقض) ونظراً لأنه لا يوجد ترتيب تاريخي لـ النصوص إذ أن المستوى المعرفي الذي كان سائداً وقت انبثاق النصوص لم يكن يسمح بذلك فإنهم وجدوا في القول بالنسخ ميداناً رحيباً لتبرير وتسويغ التناقض الذي ركب عديداً من النصوص، فإنْ سُدّت في وجوههم المنافذ كافة لجأوا إلى التلاعب بالألفاظ خاصة وأن اللغة العربية تنفرد بميزة معجبة وهي أن الكلمة تدلّ على المعنى ونقيض المعنى في الوقت ذاته وبالمقدار نفسه(٨).

(٨) تناولنا هذه النقطة في كتابنا **العرب والمرأة: حفرية لغوية في الأسطير المخيم**، دار سينا ودار الانتشار العربي.

٤ ـــ وفد بني أسد

«قدم عشرة رهط من بني أسد بن خزيمة على رسول الله ـــ ص ـــ في أول سنة تسع فيهم حضرمي بن عامر وضرار بن الأزور... وطليحة بن خويلد وآخرون ورسول الله ـــ ص ـــ في المسجد مع أصحابه فسلموا وقال متكلمهم: يا رسول الله أنا شهدنا ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله وقال حضرمي: أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء ولم تبعث إلينا بعثاً فنزلت فيم ﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾. وفي رواية: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ـــ ص ـــ فقالوا يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك العرب... أو بنو فلان فأنزل الله تعالى الآية.

وكان قومهم قوم (من بني الزنية) وهم بنو مالك بن ثعلب بن دودان بن أسد ـــ فقال لهم رسول الله ـــ ص ـــ (أنتم بنو الرشدة) فقالوا: لا نكون مثل بني محولة ـــ (الزنيّة: آخر ولد المرأة والرجل) يعنون بني عبد الله بن غطفان.

ومما سألوا عنه رسول الله ـــ ص ـــ يومئذٍ/ العيافة (زجر الطير) والكهانة فنهاهم عن ذلك كله، فقالوا كنا نفعلها في الجاهلية، أرأيت خصلة بقيت؟ قال: وما هي؟

قال: الخط نبي من الأنبياء فمن صادف مثل علمه علم.

قال ـــ ص ـــ لنقادة الأسدي (إبغ لي ناقة ركبانة ولا تولهها على ولد) فوجدها عند ابن عم له فساقها إلى رسول الله ـــ ص ـــ فمسح ضرعها ودعاه فحلبها فشرب الرسول ـــ ص ـــ وسقى أصحابه

وسقى ناقدة سؤره وقال: اللهم بارك فيها من ناقة وفيمن منحها، قال نقادة: وفيمن جاء بها رسول الله ــ قال: وفيمن جاء بها».

هذا وفد على قدر متميز من الأهمية لأنه يضم أحد الأنبياء الكذبة أو المتنبئين الذين ادعوا زوراً وبهتاناً أنهم أنبياء يوحى إليهم من السماء مثل محمد على إثر انتشار الأخبار بمرضه، مرض الموت وفي افتتاحية ولاية أبي بكر بن قحافة ــ ذلك المتنبئ الكذوب هو طلحة بن خويلد (الأسدي) ولو أنه سرعان ما ثاب إلى رشده ورجع إلى الإسلام وقيل حسن إسلامه ومن نافلة القول أن نضيف أن قومه بنى أسد قد عاضدوه وآزروه في حركته الشرود.

وعموماً فإن حروب الردة حتى الآن لم تدرس دراسة علمية موضوعية لتبيان أسبابها السياسية والعصبية (القبلية) والاقتصادية ومما يؤسف له أن الكتابات الحديثة التي تناولتها أو بمعنى أدق غالبيتها تعلوها الخفة وتركبها الهشاشة ويملؤها الركّ وتصور أولئك المتنبئين بصورة هزلية ساخرة...

ولنعد إلى سياقة القول:

يبيّن من ثنايا خبر وفد بني أسد أن هؤلاء القوم يحملون جنين الثورة أو الردّة وأن التنبؤ لم يكن غريباً عليهم فقد جاءوا إلى محمد يعلنون إسلامهم بيد أن فيهم خيلاء وعجرفة وخنزوانة (كبر) فما إن قابلوه حتى منّوا عليه بأنهم لم يلجئوه إلى حربهم حتى ييسلموا ويقروا لقريش ودولتها بالغلبة والسيادة بل أتوا إليه طائعين مختارين ومن ثم فقد كان من البديهي أن يقابلهم محمد بآية من القرآن تصكهم وترد على عنجهيتهم ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عَلَيّ إسلامكم﴾[٩].

(٩) **القرآن الكريم**، سورة الحجرات، الآية ١٧.

وهناك فقرة وردت بالخبر لا تخفى دلالتها وهي أنهم يمارسون العيافة (زجر الطير) والكهانة وغيرها وسألوا محمداً.. ما حكمها؟

كانت الكهانة تلعب دوراً متميزاً في حياة عرب الجزيرة قبل الإسلام وكان للكاهن مكانة مرموقة إذ كان يدّعي صلة بالسماء ومعرفة بالغيب من طريق الجن الذين يسترقّون السمع لمعرفة الأخبار منها كما كانوا يتحاكمون إليه عندما تشتجر بينهم نزاعات وخلافات ويذعنون لقضائه باعتبار أنه إلهام من السماء... إذن الكاهن شخصية لها جانب ماورائي وعلى صلة بكائنات غير مرئية ويتلقى شيفرات من جهة علوية... فإذا كانت هذه الشخصية وعُمالاتها المتعددة الجوانب مألوفة لدى الأسديين... إذن ظهور نبي كذوب أو متنبئ بينهم لم يكن بالشيء المستغرب.

وقد حاول محمد أن يغيّر اسم رهط منهم من (بني الزنية) إلى بني (الرشدة) وذلك جرياً على عادته في استبدال الأسامي السيئة بالحسنة ولكنهم عصلجوا معه[١٠]. ونحن نرجّح أن تلك العصلجة مردها لأمرين:

أولهما: أن أولئك القوم كما لاحظنا اِتسموا بقدر ملحوظ من الاعتزاز بالنفس الذي وصل إلى حد الخيلاء.

وآخرهما: أن التغيير الذي اقترحه محمدٌ يصل بنسبهم وكان الأعرابي يتمسك بنسبه ويعض عليه بنواجذه لأنه بمثابة الهوية أو الجنسية للمواطن (حالياً) بل ربما أشد، إذ بنسبه يعرف ويتميز عن غيره وهذا يفسّر ما جاء على لسانهم (لا نكون مثل بني محولة)

---

(١٠) المعجم الوسيط، **عصلج** الشيء: تعسّر واشتد وهي لفظة محدثة، والمرجع أن أصلها: العصلج = المعوج الساق.

يعنون بني عبد الله بن غطفان أي أن نسبهم سيختلط بنسب هؤلاء وهو ما كان العربي يرفضه بإباء وشمم.

٥ ــ وفد أسلم

«قدم عمر بن أفعى ــ رح ــ في عصابة من أسلم فقالوا: قد آمنا بالله ورسوله واتبعنا منهاجك فاجعل لنا عندك منزلة تعرف فضيلتها فأنا إخوة الأنصار ولك علينا الوفاء والنصر في الشدة والرخاء.

فقال رسول الله ــ ص ــ: أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها. وكتب كتاباً لأسلم وأسلم من قبائل العرب ممن يسكن السيف والسهل وفيه ذكر الصدقة والفرائض والمواشي وكتب الصحيفة ثابت بن قيس بن شماس وشهد أبو عبيدة وعمر».

قبيلة أسلم من القبائل التي نالت رضى محمد ومعها غفار (قبيلة أبي ذرّ الصحابي المشهور) وحظيت بدعائه ــ وقد وافدها مذعناً مطيعاً معلناً إسلام القبيلة كلها واتباع ديانة الإسلام والسير على مبادئها وقد أكدوا وفاءهم واستعدادهم لتقديم النصر في الشدة والرخاء وعرفوا أنفسهم أنهم إخوة الأنصار ولعل هذا أحد الأسباب الدافعة لهم للدخول في الإسلام وحمل راية الدول القرشية.

وكتب لهم محمد كتاباً حدد لهم فيه أنصبة الزكاة في المواشي وهي كلمة عامةُ تستعمل في الإبل والبقر والغنم وإنْ كانت تعني الغنم مما يدلّ على أن أكثر أموال الأسلميين الغنم وربما يرجع ذلك إلى سكناهم السيف (سيف البحر) والسهل. وكاتب الكاتب أنصاري هو ثابت بن قيس بن شماس ويبدو أنه كان على درجة

ملحوظة من التعليم لأنه كان خطيب محمد فإذا جاء وفد قبيلة فيه خطيب أمر محمد ثابتاً أن يرد عليه.

والكتب التي يكتبها محمد للأوفاد تختلف أغراضها: فمرة لإيضاح أمور دينية وأخرى لتعيين حدود الحِمى، وثالثة لمنح إقطاعات وقد احتفظت غالبية القبائل بهذه الكتب تظهرها عند الحاجة فلا يسع مسلم بديّاً بالخليفة إلا أن ينصاع إلى ما ورد فيها.

٦ ــ قدوم أُسيد بن أبي أناس

«أهدر رسول الله ــ ص ــ دمه لما بلغه أنه هجاه ــ فأتى الطائف فأقام بها، فلما فتح رسول الله ــ ص ــ مكة خرج سارية بن زنيم إلى الطائف فقال له أُسيْد: ما وراءك؟ قال: لقد أظهر الله تعالى نبيه ونصره على عدوه فاخرج يا ابن أخي إليه فإنه لا يقتل من أتاه.

... ثم أتى رسول الله ــ ص ــ وسارية بن زنيم قائم بالسيف عند رأسه يحرسه فأقبل أُسيْد حتى جلس بين يديه وقال: يا محمد أهدرت دم أسيد؟ قال نعم قال: تقبل منه إن جاءك مؤمناً قال: نعم فوضع يده في يد الرسول ــ ص ــ فقال: هذه يدي في يدك أشهد أنك رسول الله ــ ص ــ وأشهد ألاّ إله إلا الله فأمر رسول الله ــ ص ــ رجلاً يصرخ أن أسيد بن أبي أناس قد آمن وهو أمنه رسول الله ــ ص ــ وألقى يده على صدره فيُقال إن أسيد كان يدخل البيت المظلم فيضيء ــ وقال أسيد ــ رضي ــ أنشد قصيدة منها: تعلم رسول الله إنك قادر.. على كل حسّ متهمين ومنجد».

من هو أُسيْد؟

من بنى عديّ بن الدئيل شاعر نال في شعره من محمد فلما وفد قومه عليه تبرأوا منه لذلك فأباح دمه أي أهدر دمه[١١] وبقية القصة وردت في الخبر وكما عرفنا قد يكون الوافد واحداً وهنا قدم

(١١) **أسد الغابة**، عز الدين بن الأثير الجزري، ص ١٠٨، المجلد الأول، طبعة دار الشعب، مصر.

أُسيد منفرداً والخبر يقطع بأن محمداً خاصة بعد الفتح فتح مكة غدا سيد جزيرة العرب دون منازع ومن يبيح أو يهدر دمه يتيقن أنه لا مفر له إلا خارجها أو اللجوء إليه معتذراً منيباً مقراً بذنبه بيد أن محمداً له من سعة الأفق ورجاحة العقل ونفاذ البصيرة وحسن السياسة ما يجعله يعفو عمن يفعل ذلك خاصة وأنه كان قد أعلن قراراً بأن الإسلام يجبّ ما قبله وأن النطق بالشهادتين عاصم للدم. وفي الخبر ملحظ هام وهو أن سارية بن زنيم كان يحرس محمداً قائماً على رأسه بالسيف وهذا أمر بديهي لأن محمداً بعد الفتح كان أشد استهدافاً للقتل من قبل الفتح ولكن نظراً لأن هذه الحراسة تتنافى مع آية العصمة من الناس ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فيما بلّغت رسالته الله يعصمك من الناس﴾ (سورة المائدة، الآية ٦٧) فلا شك أن الحراسة كانت قبل أن يتلوها محمد على صحبه.

٧ ــ وفد أشجع

«قدمت أشجع على رسول الله ــ ص ــ عام الخندق وهي مائة ورأسهم مسعود بن رخيلة فنزلوا شعب سلع (جبل متصل بالمدينة) فخرج إليهم رسول الله ــ ص ــ وأمر لهم بأحمال التمر فقالوا يا محمد لا نعلم أحداً من قومنا أقرب داراً ولا أقل عدداً وقد ضقنا بحربك قومك فجئنا نوادعك فوادعهم ويقال بل قدمت أشجع بعدما فرغ رسول الله ــ ص ــ من بني قريظة وهم سبعمائة فوادعهم ثم أسلموا بعد ذلك».

قدوم وفد أشجع عام (غزوة) الخندق أو بعد الفراغ من بني قريظة مما يؤكد أن العام التاسع لم يكن وحده هو الذي حظي بالوفود ولو أن غالبيتها قدمت إبّانه ومن هنا جاء اشتهاره بذلك الاسم في كتب السيرة.

وفي الخبر أن محمداً هو الذي خرج بنفسه إليهم في المنزل الذي حطوا رحالهم فيه.

وفيه أيضاً ما يقطع بوقوع حرب بينهم وبينه حتى ضاقوا بها ذرعاً ولعل هذا يفسّر لنا خروج محمد إليهم ــ وهو أمر نادر الحدوث ــ باعتبار أنهم محاربون شجعان ــ رغم قلة عددهم كما جاء على لسانهم ــ وأنهم أخيراً أتوا مذعنين ــ كذا فإن خروج محمد إليهم مرحباً يجعلنا نؤكد قدوم الأشجعيين بعد وقعة الخندق التي كانت من أشد الوقائع على المسلمين إذا تحزبت عليهم فيها

قريش مع عدد من أكبر القبائل ــ فأراد محمد بخروجه إليهم أن يضمن ولاءهم وإخلاصهم. وفي نهاية الخبر أن عددهم سبعمائة ونذكر بما سبق أن أوردناه بشأن العدد سبعة في الديانات الإبراهيمية ولو أننا لا نخلي الرقم من قدر من المبالغة. كذلك في الخبر ملحظ يلفت الانتباه وهو أن الوفد قد يأتي للموادعة أولاً ثم يتبعه دخول الدين والانضواء تحت عَلَم الدولة القرشية.

٨ ــ وفد الأشعريين

«أخبرنا معمر قال: بلغني أن رسول الله ــ ص ــ كان جالساً في أصحابه يوماً فقال: اللهم أنج أصحاب السفينة ــ ثم مكث ساعة فقال اِستمدت، فلما دنوا من المدينة قال قد جاءوا يقودهم رجل صالح ــ قال (معمر) والذين كانوا معه في السفينة الأشعريين الذين قادهم عمرو بن الحمق الخزاعي ــ فقال رسول الله ــ ص ــ من أين جئتم؟ قالوا: من زبيد، قال بارك الله في زبيد قالوا وفي زمع (من منازل حمير باليمن) قال: وبارك الله في زبيد، قالوا: وفي زمع قال في الثالثة: وفي زمع.

عن أنس ــ رضي ــ أن رسول الله ــ ص ــ قال (يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوباً) فقدم الأشعريون فيهم أبو موسى الأشعري فلما دنوا من المدينة جعلوا يرتجزون يقولون: (غداً نلقى الأحبة... محمداً وحزبه).

عن أبي هريرة ــ رضي ــ سمعت رسول الله ــ ص ــ يقول: أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً، الإيمان يمان والحكمة يمانية ــ السكينة في أهل الغنم والفخر والخيلاء في الفدادين من أهل الوبر.

وعن جبير بن مطعم ــ رضي ــ قال: كنا مع رسول الله ــ ص ــ فقال: أتاكم أهل اليمن كأنهم السحاب وهم خيار من في الأرض، فقال رجل من الأنصار: إلا نحن يا رسول الله فسكت ثم قال إلا نحن يا رسول الله فقال إلا أنتم كلمة ضعيفة. عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه، قال: ولما لقوا رسول الله ــ ص ــ أسلموا وبايعوا فقال رسول

الله ــ ص ــ: الأشعريون في الناس كصُرة فيها مسك».

أول ما يسمع المرء كلمة الأشعريين يقفز إلى ذاكرته اسم أبي موسى الأشعري الذي لعب دوراً بارزاً في التحكيم بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وكيف أن عمرو بن العاص خدعه واستغل طيبة قلبه ولو أن بعض الباحثين يلمّح إلى خيانة منشؤها منحة مالية جزيلة من معاوية ونحن لا نقبل هذا التفسير مع أن معاوية استعمل الأموال الطائلة في اجتذاب عدد كبير من كبار شيعة علي منهم صحابة ــ وقد أخبر محمد في حديث معروف عن نزعة اشتراكية أو تعاونية لدى الأشعريين ذلك أنهم إذا قلّ مالهم جمعوه واقتسموه بينهم بالسوية. جاء الوفد في سفينة تعرضت لخطر وأخبرت السماء محمداً بذلك فدعا لهم بالنجاة فاستجيب لدعائه في الحال ولكن الخبر يثير إشكالية حادة ذلك أن محمداً وصف قائد الأشعريين الوافدين بأنه (رجل صالح) بيد أن كتب السير والتواريخ فيما بعد تخبرنا أنه (كان ممن سار إلى عثمان ــ رضي ــ وهو أحد الذين دخلوا عليه الدار فيما ذكروا)[١٢] كما أكد كثير من المصادر التراثية أن عمراً هذا أحد أبطال (يوم الدار) والضالعين في قتل عثمان[١٣] فكيف نوفق بين وصف محمد له بأنه صالح ثم يشترك (ابن الحمق) فيما بعد في قتل أحد كبار الصحابة المقربين إلى محمد وصهره في ابنته؟ الذي لا مرية فيه أن مثل هذا العمل من جانب عمرو الخزاعي يؤكد ما أخبر عنه محمد

(١٢) **أسد الغابة**، عز الدين بن الأثير الجزري، ص ٢١٧ وما بعدها، المجلد الرابع، طبعة دار الشعب، مصر.
(١٣) لمزيد من التفصيلات في هذه النقطة ارجع إلى كتابنا **الشدو**، السفر الثاني، **الصحابة والصحابة**، إصدار دار سينا، مصر ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

أن عدداً من صحبه سوف يغيّر ويبدّل حتى إنه عندما يلقاه في الدار الآخرة يقول له: سُحقاً سُحقاً، والسُحق هو البعد الشديد.

والأشعريون يمانيون وقد دعا لهم محمد بالبركة في البلدين اللذين أقبلوا منهما كما أنه وصفهم بأوصاف طبيعية ونسب إليهم الإيمان والحكمة وهما صفتان تتقطّع أعناق الكثيرين للتحلي بهما. ولعل وصف محمد لهم بأنهم كـ (صُرة المسك) بين الناس وصف لم يحظ به غيرهم من الوفود. ونذكّر هنا أن الأنصار أصولهم من اليمن ولعل هذا يفسر لنا هذا القدر الباذخ من المدائح التي نالها الأشاعرة اليمانيون ولن أن هذا المدح اِستفز أحد الأنصار فطلب من محمد استثناء الأنصار من خيرية الأشعريين على من في الأرض.

٩ ــ أعشى بني مازن

«عن نضلة بن طريف أن رجلاً منهم يقال له الأعشى واسمه عبد الله بن الأعور هجرته امرأته معاذة وعاذت برجل منهم (مطرف بن بهضل المازني) رفض دفعها إليه وكان أعز منه فخرج حتى أتى النبي ــ ص ــ فعاذ به وأنشأ يقول يا مالك الناس وديان العرب.. إني لقيت ذرية من الذرب إلى آخر الأبيات فكتب النبي ــ ص ــ إلى مطرف: انظر امرأة هذا فادفعها إليه فأتاه كتاب النبي ــ ص ــ فقُرئ عليه فقال: يا معاذة هذا الكتاب من النبي ــ ص ــ وأنا دافعك إليه، فقالت: خذلني العهد والميثاق وذمة النبي ــ ص ــ ألا يعاقبني فيما صنعت فأخذ لها ذلك ودفعها إليه فأنشأ يقول: لعمرك ما حبي معاذة بالذي.. يغيّر الواشي ولا قدم العهد ولا سوء ما جاءت به إذ أذلها... غواة رجال إذ يناجونها بعدي».

الأعشى هنا أحد الشعراء المعدودين وكان للشاعر في ذلك الزمن مكانة مرموقة والقبيلة التي ينبغ فيها شاعر تقيم احتفالية كبيرة وكان الشعراء يكوّنون طبقة الأنتلجنسيا آنذاك وقد هجرته زوجته معاندة إياه ثم والفت من عشيرته رجلاً أعز منه فرافقها وضمّها إلى جنابه وأبى أن يعيدها إلى الشاعر الذي لم يجد بُداً من العياذ بـ محمد ليردها عليه وأنشأ قصيدة اِفتتحها بقوله (يا مالك الناس وديّان العرب) والديّان هو الحاكم والقاضي والقهار والذي لا يضيع عملاً بل يجزي بالخير والشر[١٤] وهو لقب بالغ الدقة إذ أن

(١٤) **القاموس المحيط**، الفيروزآبادي.

محمداً غدا كذلك في ذيّاك الوقت.

وأنجده محمد فأرسل إلى ذلك الغاصب مكتوباً من خمس كلمات ما إن تسلمه حتى سارع بتنفيذ ما جاء به على الفوز. هذا الخبر على قصره يقطع بأن سلطان محمد غطّى الجزيرة بأكملها وأن كل من تقع عليه ظُلامة صغيرة أو كبيرة يلوذ بحماه فينصفه ويرد عليه حقوقه.

١٠ ــ قدوم الأشعث بن قيس

«قدم على رسول الله ــ ص ــ الأشعث بن قيس في وفد كندة في ثمانين راكباً من كِنْده فدخلوا على رسول الله ــ ص ــ مسجده وقد رجّلوا جمعهم وتكحلوا عليهم جُبب الحبرة وقد كففوها بالحرير، فلما دخلوا على رسول الله ــ ص ــ قال: ألم تُسْلِموا؟ قالوا: بلى، قال ما بال هذا الحرير في أعناقكم قال: فشقوه منها فألقوه.

قال الأشعث: يا رسول الله، نحن بنوا أكل أمرار وأنت ابن آكل المرار، فتبسّم رسول الله ــ ص ــ وقال: ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث وكانا تاجرين كان إذا شاعا في بعض العرب فسئلا فمن هما، قالا نحن بنو آكل المرار يتعززان بذلك، ذلك أن كندة كانوا ملوكاً، قال لهم (لا بل نحن بنو النضر بن كنانة، لا تنتفوا منا ولا ننتفي من أبينا) فقال الأشعث هل فرغتم يا معشر كِندة والله لا أسمع رجلاً يقولها إلا ضربته ثمانين ثمانين».

هذا وفد من أبناء الملوك منذ كانت كندة من القبائل التي تولت الملك في الجزيرة العربية ومن ثم فليس من المستغرب أن تكون هيئتهم أرقى بكثير من غيرهم من الوفود وأن يرتدوا ملابس تشي بالنعمة والتحضر (ولو النسبي) ومن ثم عاتبهم محمد على لبس الحرير الذي حرّمه على رجال أمته ومن ثم امتثلوا نهية ونزعوا كفاف الحرير من أرديتهم ولعل إصرار محمد عليه مرده لامتحان مدى طاعتهم وتقبلهم أوامر الإسلام ونواهيه.

ورئيس القوم الأشعث من الشخصيات التي سوف تلعب دوراً

مميزاً في التاريخ الإسلامي فهو ممن ارتد وشايع المرتدين في اليمن ولكن جنود الخليفة الأول أخذته أسيراً وأحضرته إلى المدينة (يثرب) فطلب من ابن قحافة أن يعفو عنه ويزوجه أخت أم فروة ففعل واشترك في الفتوح وشهد القادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند وولاه عثمان بن عفان أزربيجان وكان في عداد الكوفيين (من الصحبة) وشهد وقعة صفّين في جانب علي بن أبي طالب بيد أنه ألزمه قبول التحكيم وحرص على شهود التحكيم بـ دومة الجندل[١٥] ويرى بعض البُحاث في التاريخ العربي الإسلامي أنه كانت هناك قناة اتصال بينه وبين معاوية وأنه لعب دوراً مؤثراً في عملية التحكيم لصالح الأموي.

ويستدلون على ذلك من أن اِبنته (جعدة بنت الأشعث) هي التي دست السم لِ الحسن بن علي (وكانت إحدى زوجاته) مقابل مائة ألف دينار ووعد بزواج اِبنه يزيد وأن معاوية دفع لها المال ولم يزوجها يزيدَ وقال لها: إننا ّنخاف على حياته أي التي تقدم على سم حفيد محمد لا يؤودها سم حفيد ابن أبي سفيان ــ هذه صورة سريعة للأشعث.

الأمر الذي يقطع بعلو شأن محمد وصيرورته زعيم الجزيرة وسيدها وحاكمها أن هؤلاء الكنديين رغم أنهم كانوا من ملوك العرب فإنهم ما إن قابلوه حتى طفقوا يتزلفون إليه فزعموا أن جده وجدهم واحد وفطن محمد إلى ذلك وهو الذكي الألمعي العبقري وإذ أن هذه الزلفى تتعلق بأمر لا يسمح فيه العرب بأي تلاعب فقد بادر بنفي ذلك النسب وأكد رفض النسب الأموي (نسبة إلى الأم) والتمسك بالنسب الأبوي وأن ذلك الزعم كان يشيعه تجار قريش

---

(١٥) **أسد الغابة**، ابن الأثير الجزري، ص ١١٨، المجلد الأول، مصدر سابق.

ليأمنوا على تجارتهم إبان رحلتي الشتاء والصيف ــ وإذا كان ملوك العرب كانوا يتملقون محمداً ويتقربون إليه فكيف كان حال باقي القبائل ــ وهذا شأن بالغة الأهمية ــ وربما لم يلتفت إليه الكثيرون ــ ويتعين وضعه في الحسبان عند وزن أو تقدير انتشار الدين الإسلامي في الجزيرة العربية.

١١ ــ وفود بارق

«قدم وفد بارق على رسول الله ــ ص ــ فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا وبايعوا وكتب لهم رسول الله ــ ص ــ هذا كتاب من محمد ــ ص ــ لبارق لا تُجدّ ثمارهم ولا ترعى بلادهم في مربع ولا مصيف إلا بمسألة من بارق، ومن مرّ بهم من المسلمين في عرك أو جدب فله ضيافة ثلاثة أيام ــ فإذا أينعت ثمارهم فلإبن السبيل اللقاط يوسغ بطنه من غير أن يقتثم (كتب أبي ابن كعب وشهد أبو عبيدة بن الجراح وحذيفة بن اليمان)».

كتاب محمد لـ (بارق) صدر منه بصفته الحاكم ورأس الدولة فهو يمنع أي تعدٍّ على حماهم أو تعرّض لثمارهم وليس لأحد من المسلمين حق فيها إلا قرى الضيافة أو لقاط لابن السبيل ــ ويبدو أن منزل قبيلة بارق كان في مفترق الطرق ومطمع السابلة وأن البوارق كانوا من الضعف بحيث لم يكن في قدرتهم حماية ثمارهم فلجأوا إلى محمد ليمنحهم صك أمان. والذي كتب الكتاب أنصاري من بني النجار وهو أُبيّ بن كعب والشاهد أن أحدهما من قريش والآخر حليف للأنصار.

١٢ ــ باهلة

«قدم مطرف بن الكاهن الباهلي على رسول الله ــ ص ــ بعد الفتح وافداً لقومه فقال يا رسول الله ــ ص ــ أسلمنا للإسلام وشهدنا دين الله في سماواته وأنه لا إله غيره وصدقناك بكل ما قلت فاكتب لنا كتاباً فكتب له:

(من محمد رسول الله لمطرف بن الكاهن ولمن سكن بيشة (واد يصب من جبل تهامة) من باهلة أن من أحيا أرضاً مواتاً فيها مراح للأنعام فهي له، وعليه في كل ثلاثين بقرة فارض، وفي كل أربعين من الغنم عتود وفي كل خمسين من الإبل مُسنّة وليس للمصدق أن يصدقها إلا في مراعيها وهم آمنون بأمان الله). فانصرف مطرف ينشد شعراً، ثم قدم نهشل بن مالك الوائلي من باهلة على رسول الله ــ ص ــ وافداً لقومه فأسلم وكتب له رسول الله ــ ص ــ ولمن أسلم من قومه كتاباً فيه شرائع الإسلام كتبه عثمان بن عفان ــ رضي ــ».

قبيلة باهلة قام عدد من أبنائها بدور بارز في الفتوحات.

وقد أعلن الوافد الأول إسلام قومه وتصديقهم بما جاء به محمد أما الوافد الثاني أو الآخر فلم يكن قد أسلم بعد وإنما أسلم إثر لقائه بـ محمد ــ ما يعني أن باهلة كلها لم تكن قد أُسلمت وهنا نذكر بما أوردناه بخصوص التناقض والتضارب الذي يعلو كثيراً من الأخبار والنصوص ذاتها ــ وهذا شأن طبيعي لأنها (الأخبار والنصوص) اِنبثقت في مجتمع أميّ شبه مبدي ثقافة شفاهية تعتمد على الحافظة التي كثيراً ما تعين أو تخون خاصة وأن هذه الأخبار

والأحاديث والوقائع والنوازل ظلت تتناقل من طريق السماع قرابة القرنين أي حتى ما عرف بـ(عصر التدوين).

الذي يلفت النظر أن كل وافد من الاثنين طلب من محمد أن يكتب له كتاباً وأن يجيء موضوع الكتاب (شرائع الإسلام) وأن التركيز على (الصدقة) أو الزكاة مما يشي بأن باهلة من القبائل ذات الأموال (كانوا يسمون الماشية والإبل والبقر والنياق والغنم أموالاً. أ. هـ).

جاء في ختام الخبر أن الذي كتب الكتاب عثمان بن عفان وهنا يثور تساؤل ملح:

كيف أن مشاهير الصحابة: أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ومعاوية وغيرهم كانوا يعرفون القراءة والكتابة ومع ذلك كان محمد أمياً (لا يقرأ ولا يكتب)... مع أنه كان أميز منهم في كل شيء: الرهط أو العشيرة، المكانة في قريش، الذكاء، الفطنة الألمعية، العبقرية.. الخ؟

كما أن سيرته العطرة تنبئنا أنه كان من المنصرفين إلى التفكر والتأمل والتدبير.

وكتب محمد في عام الوفود خاصة تلك التي تتضمن (شرائع الإسلام) دليل غفل عنه المُثبتون لكتابة الأحاديث في حياة محمد إذ أنهم فيما قرأت لهم يقتصرون على واقعتين: كتابة عبد الله بن عمرو بن العاص لـ صحيفته المسماة بـ (الصادقة) وبعض صحف أخرى نسبت لعدد محدود من الصحابة وهي أقل شهرة من (الصادقة) وما أمر به محمد إبّان فتح مكة وخطبته في المسجد الحرام والتي قال عقبها (اكتبوا لي) فأمر بذلك ــ ولا شك أن كتب محمد لعدد من الوفود والخاصة بأمور الدين دليل قوي غاب عن

القائلين بكتابة الأحاديث حال حياة محمد يمكنهم أن يُشهروه في وجه المنكرين والذين يزعمون أن الأحاديث لم تُدوّن إلا بعد ما يقرب من مائتي عام من انتقال محمد للرفيق الأعلى.

وغفلة المؤيدين لكتابة الأحاديث منذ وقت مبكر تؤكد ما سبق أن كررناه أن كثيراً ممن يتصدون للتأليف في العلوم الدينية حديثاً تنقصهم الثقافة الإسلامية العميقة وكل زادهم معلومات سطحية ونُتف ضئيلة من المعارف الوشلة (القليلة).

١٣ ـ بنو البكائي

«وفد من بني البكاء على رسول الله ـ ص ـ سنة تسع، ثلاثة نفر، معاوية بن ثور ابن عبادة البكائي وهو يومئذٍ ابن مائة سنة ومعه ابنه بشرو الفجيع بن عبد الله بن جندح بن البكاء ومعهم عبد عمرو، وهو الأصم.

فأمر لهم رسول الله ـ بمنزل وضيافة وأجازهم ورجعوا إلى قومهم.

وقال معاوية للنبي ـ ص ـ: (إنني أتبرك بمسّك وقد كبرت وابني هذا بربي فامسح وجهه) فمسح وجهه وأعطاه أعنزاً عُفراً (بياض غير ناصع) وبرّك عليهن.

قال الجعد: فالسنة (الجدب) ربما أصابت بني البكاء ولا تصيب آل معاوية.

وقال أحد أحفاده فيما بعد: وأبي الذي مسح الرسول برأسه ودعا له بالخير والبركات. وسمى رسول الله ـ ص ـ عبد عمرو (الأصم) عبد الرحمن، وكتب له بمائة الذي أسلم عليه بذي القصة، وكان من أصحاب الظُلّة (صُفّة مسجد الرسول)».

الضيافة والمنزل والإجازة: أمور معتادة مع كل وفد بيد أن اللافت للنظر هو أن أحد أعضاء الوفد بلغ المائة سنة ونحن لا نستغرب ذلك فقد كان وصول هذا السن عند بعضهم أمراً مألوفاً بيد أن حرصه على لقاء محمد هو الذي يشدّ الانتباه ولعل ما جاء على لسانه في الخبر يعلله هو اعتقاده الجازم ببركة محمد ومن ثم

طلب منه أن يمسح بيده الكريمة وجه ابنه بشر ففعل وعُدّت له مكرمة توارث أحفاده الفخر بها.

كذلك انطوى الخبر على معجزة حدثت على يد محمد تتلخص في أنه أهدى بشراً أعنزاً عُفراً وبرّك عليهن أي دعا أن تكون البركة فيهن وقد تحقق ذلك ففي السنة الجديبة الشديدة ينجو آل معاوية من الجدب والشدّة بفضل العنزات العفراوات اللاتي برّك عليهن محمد أي أن سائر غنم بني البكاء لا تدر لبناً لأنهن لا يجدن مرعى خصيباً بسبب الجدب في حين أن أعنز آل معاوية ضروعهن حُفّل باللبن الغزير لتبريك محمد عليهن.

وسوف نرى أن معجزات عديدة متنوعة قد حدثت لعدد من الوفاد.

وهذا المعلم: المعجزات يقوم بها محمد بصفته نبياً رسولاً لأنه ما من نبي رسول في الديانات السامية إلا وتمت على يديه معجزات حتى يمكن أن يقال إنها من لوازم النبوة.

غيّر محمد اسم أحد الوافدين من عبد عمرو إلى عبد الرحمن لأن العبودية في الإسلام ــ لا تكون إلاّ لله وحده، كما ذكرنا حرص محمد أشد الحرص على تغيير الأسماء التي تتنافى مع تعاليم الدين ــ وتأتي بعدها الأسامي الكريهة المنفرة.

كما كتب محمد لـ عبد عمرو أو عبد الرحمن هذا بمائة الكائن بـ «ذي القصة» والماء تعني البئر وما حولها ومحمد فعل ذلك بصفته رأس الدولة.

وكان عبد الرحمن هذا من أصحاب الظُلّة (صُفَّة مسجد الرسول) وهم عدد غير قليل من الصحبة بلغ بهم الفقر والعوز درجة كبيرة حتى إنهم لم يجدوا مأوى سوى مسجد محمد إنما

الذين طال العمر بهم حتى شهدوا الفتوحات التي كسحت فيها خيرات البلاد المغزوة والموطوءة بسنابك خيولهم المبروكة وكشطت كشطاً ونزحت نزحاً ونقلت إلى أثرب هؤلاء البُلهنية وجرى المال في أيديهم وعوضوا تلك السنوات الصعيبة.

١٤ ــ وفود بني بكر من وائل

«قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله ــ ص ــ فقال رجل منهم: هل تعرف قُس بن ساعدة. فقال رسول الله ــ ص ــ ليس هو منكم، هذا رجل من إياد تحنّف في الجاهلية فوافى عكاظاً والناس مجتمعون فكلمهم بكلامه الذي حفظ عنه.

وكان في الوفد بشير بن الخصاصية وعبد الله بن مرشد وحسان بن حوط. وافتخر رجل من ولده: أنه ابن حسان بن حوط وأبي وافد رسول بكر كلها إلى النبي وقدم معهم عبد الله بن أسود وكان ينزل باليمامة فباع ما كان له من ماله باليمامة وهاجر وقدم على رسول الله ــ ص ــ بجرّات من تمر فدعا له رسول الله ــ ص ــ بالبركة.

قس بن ساعدة الأيادي من شخصيات ما قبل الإسلام (يسمون هذه الفترة: الجاهلية) من الحنفاء أو المتحنفين الذين رفضوا عبادة الأصنام وبحثوا عن دين ابراهيم وقيل إنه اعتنق النصرانية[١٦]. وكان يخطب في الأسواق مثل عكاظ خطباً بليغة يدعو فيها إلى التوحيد وثبت أن محمداً سمع عدداً من خطبه خاصة في الفترة التي تفرّغ فيها للتأمل والتفكر والتحنث وهي تبلغ خمسة عشر عاماً منذ زواجه من خديجة حتى دعوته الناس للإسلام ومما يؤسف له أن كتّاب سيرته المباركة لم يولوها ما تستحقه من درس وتمحيص رغم أهميتها القصوى من وجهة نظرنا إذ أنها (فترة التأسيس).

---

(١٦) لمزيد من التفصيلات عن أولئك الحنفاء برجاء الرجوع إلى فصل الحنيفية في كتابنا **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية**، طبعة أولى، ١٩٩٣م، دار سينا للنشر، القاهرة وطبعة ثانية ١٩٩٧م دار سينا ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت.

وفي الخبر ما ينبئ عن أن الوفود على محمد كان من المآثر التي يفتخر بها أبناء الوافد وأحفاده تماماً مثل ما كان يحدث عندما يفد أحدهم على كسرى فارس وقيصر الروم لأن الذي يقوم بالوفادة لا مشاحة أنه صاحب مقام رفيع في عشيرته تتوافر فيه صفات من يليق بمقابلة الأكابر.

اليمامة واحة خصيبة وكانت تمدّ الحجاز بما تحتاجه من قمح وكانت حنطتها مشهورة بجودتها وامتيازها... وعبد الله بن أسود الذي باع ماله (أرضه أو ماشيته) باليمامة ثم وفد إلى محمد لا شك أن عاطفته الدينية كانت متأججة وربما يقال إنه لبّى دعوة محمد إلى ضرورة الهجرة إلى المدينة (يثرب) وذلك قبل الفتح لأنه لا هجرة بعده، إنما يرد عليه أن محمداً أجاز لأصحاب الأموال البقاء في مضاربهم.

والعلّة في دعوة محمد إلى النزوح إلى يثرب قبل فتح مكة واضحة وهي شد أزر الدولة التي أنشأها وإيجاد مدد ثرّ غزير من الرجال للإنخراط في السرايا والمهمات الخاصة والغزوات ومما يؤكد ذلك أنه منع الهجرة إلى أثرب بعد الفتح لأنه بعده لم يعد في حاجة إلى مزيد من الأجناد بعد أن غدا سيد الجزيرة وسيطرت دولته القرشية على معظم أرجائها.

ويخبرنا ابن الأثير الجزري:

أن التمر الذي أحضره الأسود يسمى الجذامى وهو أحمر اللون ولكنه يضيف أن بقية الوفد اشتركوا مع عبد الله بن أسود في تقديم هذه الهدية لمحمد وأنه دعا بالبركة في التمر والحديقة التي أخرجته»[١٧].

(١٧) **أسد الغابة**، المجلد الثالث، ص ١٧٥، مصدر سابق.

١٥ ــ وفود بلى

«عن رويفع بن ثابت البلوي ــ رضي ــ قال: قدم وفد من قومي في شهر ربيع الأول سنة تسع فأنزلتهم في منزلي ببني جديلة ثم خرجت بهم حتى اِنتهينا إلى رسول الله ــ ص ــ وهو جالس مع أصحابه في بيته في الغداء فسلمت فقال: رويفع: لبيك قال: من هؤلاء القوم قلت: قومي قال: مرحباً بك وبقومك.

قلت يا رسول الله قدموا وافدين عليك مُقرّين بالإسلام وهم على من وراءهم من قومهم فقال رسول الله ــ ص ــ من يرد إله به خيراً يهده للإسلام.

فتقدم شيخ الوفد أبو الضبيب فقال: يا رسول إنّا قدمنا عليك لنصدقك ونشهد أن ما جئت به حق ونخلع ما كنا نعبد ويعبد آباؤنا ــ فقال رسول الله ــ ص ــ: الحمد لله الذي هداكم للإسلام فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار...

وسألوا عن أشياء في أمر دينهم فأجابهم ثم رجع إلى منزلي فإذا رسول الله ــ ص ــ يأتي لي يحمل تمراً يقول استعن بهذا التمر، قال: فكانوا يأكلون منه ومن غيره فأقاموا ثلاثاً ثم جاءوا رسول الله ــ ص ــ يودعونه فأمر لهم بجوائز كما كان يجيز من كان قبلهم ثم رجعوا إلى بلادهم».

هؤلاء أتوا مقرين بالإسلام ويضمنون إسلام من وراءهم من قومهم، حدث ذلك في سنة تسع التي سميت «سنة الوفود» وفيها تنافست القبائل في الوفادة على محمد بعد أن تيقنت بإحكام

سيطرته على الجزيرة وقد مكثوا ضيوفاً على رويفع من ثابت وهو منهم ثلاثة أيام وهي مدة الضيافة المتعـــارف عليها وعند انصرافهم أجـــازهم محمد كسائر الوافدين. وقد أخبر محمد رويفع بن ثابت بطول عمره ولو أن ذلك جاء في صورة المنى وفعلاً امتدت به الحياة حتى بعد سنة سبع وأربعين إذ اشترك في فتح إفريقية.

١٦ ــ بهراء

«قدوم وفد بهراء من اليمن على رسول الله ــ ص ــ وكانوا ثلاثة عشر رجلاً.. حتى انتهوا إلى باب المقداد بن عمرو (المقداد بن الأسود) ونحن في منازلنا ببني جديلة (بطن من الأنصار) فخرج إليهم ورحب بهم وأنزلهم وقدّم لهم جفنة من حيس (الإقط بالتمر والسمن) كنا هيأنا قبل أن يحلوا ليجلس إليها فحملها إليهم وكان كريماً على الطعام فأكلوا منها حتى نهلوا ورُدّت إلينا القصعة وفيها شيء مجمع في قصعة صغيرة ثم بعثنا بها مع سدرة مولاتي (راوية الحديث هي كريمة بنت المقداد عن أمها ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب فتكون سدرة مولاة ضباعة) فوجدته في بيت أم سلمة فقال ــ ص ــ: ضباعة أرسلت بهذا؟ قالت سدرة: نعم يا رسول الله ــ قال ضعي ــ ما فعل ضيف أبي معبد (كنية المقداد) قلت: عندنا ــ فأصاب منها رسول الله ــ ص ــ وهو ومن معه في البيت حتى نهلوا وأكلت معهم سدرة ــ ثم قال: اِذهبي بما بقي إلى ضيفكم قالت سدرة، فرجعت بالقصعة إلى مولاتي. قالت فأكل الضيف منها ما أقاموا فرددها عليهم وما تغيض حتى جعل الضيف يقولون:

يا أبا معبد إنك لتنهلنا من أحب الطعام إلينا وما كنا نقدر على مثل هذا إلا في الحين ــ وقد ذكر لنا أن بلادكم قليلة الطعام إنما هو العلق أو نحوه ونحن عندكم في الشبع فأخبرهم أبو معبد بخير رسول الله ــ ص ــ إنه أكل منها وردّها.

وهذه، بركة أصابعه ــ ص ــ فجعل القوم يقولون: نشهد أنه رسول الله وازداد يقيناً وذلك الذي أراد ــ ص ــ فأتوه وأسلموا وتعلّموا

الفرائض وأقاموا أياماً. ثم جاءوا إلى رسول الله ـــ ص ـــ يودعونه فأمر لهم بجوائز وانصرفوا إلى أهليهم».

في هذا الخبر قدم محمد معجزة للوفد ممارساً في ذلك مسؤوليته كنبي لكي يؤمنوا ويأتوا إليه مذعنين وهي تكثير الطعام قليل وجعله يكفي الجمع الكثير أو يكفي العدد القليل مدة طويلة على خلاف ما جرت به طبائع الأمور المعتادة والأناجيل التي تروي سيرة عيسى بن مريم تحكي لنا حكاية مشابهة وليست مماثلة شكّلت أيضاً الدافع للإيمان به وبرسالته ممن شهدها من اليهود والسامرة أو السامريين وغيرهم الأمر الذي يحثنا على القول بأن المعجزات إحدى معالم النبوة وأنها ظاهرة تكررت على طول تاريخ النبوة ونحن نخالف من يذهب إلى الزعم بأن (القرآن) هو المعجزة الوحيدة التي حثّت عرب الجزيرة على الإيمان برسالة نبوة محمد وتقرر استناداً إلى كتب السيرة المحمدية المعتمدة التي تقلتها الأمة بالقبول أن هناك عشرات من المعجزات ظهرت على يد محمد وساعدته في دخول كثيرين الديانة التي بشّر بها العرب.

ويجدر أن نفرق بين أمرين: حدوث المعجزة وبقاؤها أو استمرارها أو خلودها كما يحلو للعض تسميتها، فخلود أو استمرار أو بقاء معجزة القرآن راجع إلى طبيعته التي تسمح له بذلك أما المعجزات الأخرى التي وقعت على يدي محمد الكريمتين فمن الطبيعي بل من البديهي ألا تستمر أو تبقى أو تخلد لأنها بطبيعتها موقوتة تنتهي بمجرد حدوثها وارتفاع أثرها المُبتغى منها على المخاطَبين بها أو من شهدوها سواء أكانوا كثرة تُعد بالمئات أو قلة تعد على أصابع اليد الواحدة، ولقد كان من الحتم اللازم على محمدٍ أن يُظهر بعض المعجزات ــ التي إنْ أحصيناها ألفينا أنها كثيرة ــ لعلتين:

أ ــ حتى لا يظهر بمظهر يقل عن سائر الأنبياء/ المرسلين الذين سبقوه أمام الذين دعاهم للإسلام من أبناء جزيرة العرب والذين لا شك أنهم سمعوا بأولئك الرسل/ النبيين وبمعجزاتهم البواهر من المؤمنين باليهودية والمسيحية إنْ بالاحتكاك بهم إبّان المعاملات أو الجوار أو الحج الذي تخبرنا مؤلفات السيرة أن أصحاب الملل والنحل المتباينة كانوا يشتركون في أداء طقوسه ومراسمه أو من خطبائهم الذين يؤمون الأسواق المعروفة: عكاظ، ذي المجاز، مجنة... الخ يدعون لأديانهم ومعلوم أن منطقة الحجاز خاصة ــ كانت منفتحة على الديانات والمذاهب المشهورة كافة.

ب ــ إن المعجزة وتأثيرها المُعْجِب على كل من تتوجه إليه كانا ملائمين للمستوى الحضاري والدرجة المعرفية لهم مع ملاحظة أن الأديان الإبراهيمية الثلاثة خاطبت شعوباً متبدية أو شبه متبدية ومستواها الحضاري مُتدنٍ وخفيض ومن ثم كان انتهاء المعجزات أمر محتوم بعد أن بلغت البشرية سن رشدها وخلّفت وراءها ذلك الطَوْر الذي كانت تبهرها فيه المعجزات وخوارق العادات أي أن ممارسة محمد للمعجزات في عدد من الأحوال دليل على فطانته وإحاطته بأحوال الجمهور الذي يواجهه وإدراكه لموجبات مجتمعه وقسمات بيئته وظروف زمنه ــ والخلاصة أن ظهور نوعين من المعجزات على يدي محمد إحداهما وأخراهما باقية أو مستمرة أو خالدة أمر يُحسب له ودليل ثبوت على عمق ذكائه وشدة عبقريته.

وفي الخبر ما يقطع بالمستوى المعيشي أو المعاشي الخفيض لعرب الجزيرة إذ أنهم كانوا يعدون (الحَيْس) وهو الإِقِطِ (اللبن المجفف) بالتمر والسمن من أحب الطعام إليهم وما كانوا يقدرون عليه إلا في الحين أي في المواسم أو المناسبات السعيدة ولا مشاحة أنه طعام بالغ السذاجة بيد أنه بعد تدفق الغنائم الخيالية على جزيرتهم المحظوظة واحتكاكهم بأبناء البلاد المتحضرة التي هرسوها بأحصنتهم المهزولة تغيرت أحوالهم وعرفوا الأطعمة الشهية وتلذذوا بالمآكل الدسمة والموائد الطيبة ـ ونحن لا نفتأ نكرر هذه الحقيقة حتى يقتنع بها القراء ويزيحوا عن أدمغتهم الصور الزيوف التي رسمتها الكتابات المضللة وما زالت تعيدها وهي أن الفتوحات العربية كانت لنشر ديانة التوحيد مع أن الثابت تاريخياً أن الفاتحين العُربان أولئك لم يكن لهم هدف سوى نهب خيرات البلاد التي وطئوها واسترقاق رجالها وسبي نسائها وليس أبعد عن الصحة الزعم القائل بأن غايتهم كانت إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد كما زعم ذلك الصحابي الأمي ربعي بن خراش الذي دلّت تصرفاته عند لقائه بقائد الفرس على جلافة وبداوة يعز نظيرهما.

وفي الخبر مَلْمَح بالغ اللطف والرهافة هو أن سدرة مولاة ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب (بنت عم محمد وزوجة المقداد) عندما ذهبت بالقصعة إلى محمد دعاها فأكلت معهم وهذا يقطع بتواضع محمد حتى أنه لا يستنكف أن يأكل معه ومن قصعة واحدة الإماء والموالي والعبيد.

ويحق لنا أن نتساءل:

كم من الإسلامويين المعاصرين من يقبل أن يأكل خدمه معه على مائدة واحدة؟

وفي خاتمة الخبر أنه بعد أن أتت المعجزة ثمرتها الشهية (وذلك الذي أراد ــ ص) أتوه مسلمين مقرّين بنبوته/ رسالته فعلمهم فرائض الدين الذي دخلوه ولبثوا ملياً حتى تعلموها ليعلّموها لمن خلفهم من رهطهم وحق لهم عندئذٍ أن يأخذوا جوائزهم وينصرفوا.

١٧ ــ تجيب وهم من السكون

«قدم وفد تجيب على رسول الله ــ ص ــ وهم ثلاثة عشر رجلاً، وساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عز وجل فُسّر رسول الله ــ ص ــ بهم وأكرم منزلهم، وقالوا: يا رسول الله سقنا إليك حق الله في أموالنا فقال ــ ص ــ: ردوها فاقسموها على فقرائكم قالوا: يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل من فقرائنا ــ فقال أبو بكر: يا رسول الله ما قدم علينا وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحي من تجيب فقال ــ ص ــ: إن الهدى بيد الله عز وجلّ فمن أراد الله به خيراً شرح صدره بالإيمان، وسألوا رسول الله ــ ص ــ أشياء فكتب لهم بها وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن فازداد رسول الله ــ ص ــ فيهم رغبة وأمر بلالاً أن يُحسن ضيافتهم فأقاموا أياماً ولم يطيلوا المُكْث فقيل لهم: ما يعجلكم؟ قالوا: نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله ــ ص ــ وكلامنا إياه وما ردّ علينا ثم جاءوا رسول الله ــ ص ــ يودعونه فأمر بلالاً فأجازهم بأرفع مما كان يجيز به الوفد».

وفد التجيبيون على محمد وبين أيديهم دليل إيمانهم بالدين وبالتالي الخضوع لسلطان الدولة وهو تقديم الصدقات أو الزكوات وهذا ما دفع ابن أبي قحافة لأن يقول لمحمد ما ورد في الخبر أي لم يأت إلينا وفد وهو يحمل شارة التسليم والإذعان مثلهم وهذه اللمحة المبكرة لأبي بكر تشفّ لنا عن قناعته التامة بأن إحضار الزكاة هو القرينة الحاسمة على الانقياد والطاعة وهذا بدوره يفسّر لنا إصراره فيما بعد على محاربة القبائل التي امتنعت عن تقديم

الزكاة رغم معارضة كبار الصحبة وفي مقدمتهم أبو حفص ــ عمر بن الخطاب ــ ونحن نطرح هذا المثل للذين يدعون أن الشورى فريضة إسلامية أو من معالم الإسلام إذ أنها لو كانت كذلك لما داس عليها ابن أبي قحافة وهو من هو بقدميه وأمضى رأيه منفرداً دون بقية الصحاب.

وهذا الخبر قعّد حكماً شرعياً وهو ضرورة توزيع الزكاة على فقراء الحِلّة أو الحيّ أو النجع... الخ وعدم نقلها حتى يستوفي هؤلاء حقهم أو حق الله لهم ــ وهذه المسألة كانت مثار خلاف وجدل شديدين ومن بواعث ما عُرف بحروب مانعي الصدقة أو الزكاة فقد رأى بعض رؤساء القبائل والعشائر توزيعها على فقراء مضاربهم فاعتبروا من الممتنعين وحوربوا مع أن رأيهم هو الذي أفتى به محمد كما رأينا وبعد ما يقرب من عشر سنوات أباح لهم عثمان ردها على فقرائهم وهنا تساءل من طال عمره: إذن فيم كان حرب الخليفة الأول لنا؟ تلك الحرب التي طحنت المئات من الجانبين، بيد أن الذي لم يدركه أولئك المتسائلون المتعجبون أن الدولة القرشية لم تعد بحاجة إلى زكواتهم الهزيلة العجفاء بعد أن تدفقت على عاصمتها أثرب الغنائم السمينة والفيوء الضخمة التي نُهبت من المستعمرات التي فتحوها... ونحن نطرح هذه الحقيقة ليقتنع من لا زالت لديه ذرة من شك أن الحصول على الأموال كان هماً مقيماً وهدفاً رئيساً وغرضاً أصيلاً لدى أولئك الصحاب وأن الحرص على الاستحواذ عليها: (سمها زكاة أو صدقة أو فيئاً أو نفلاً أو جزية أو خراجاً أو عشوراً) بدا مبكراً منذ ولاية ابن أبي قحافة الذي كان يسعى لتحقيق هدفين:

أ ــ تأكيد سلطان دولة قريش التي تربع على عرشها بالخطة التي

رسمها بالاشتراك مع عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن أبي الجراح وحرموا بها صاحب الحق فيها وأجدر الناس بها لفضله وسابقته وبالغ بلائه في الدفاع عن الإسلام أبا الحسنين علي بن أبي طالب.

ب ــ هبش (جمع) هذه الأموال والتمتع بها إذ بدونها سوف ينتصب سؤال:

فيم إذن كانت الغزوات والسرايا والبعوث والحرب والقتال وسقوط المئات بل العشرات في الميادين؟

ومثل هذا التفكير من البديهي أن يهيمن على أبي بكر فقد كانت تلك هي تركيبة العربي في تلك الحقبة:

الغزو والإغارة من أجل النهب والسلب ولا معنى لـ الكرّ والفرّ والهجوم ومباغتة الآخرين في عماية الصباح وهم نيام من أجل الغنائم وهي بذاتها كانت تشكل الرافد الأكبر والأهم لدخولهم ــ وابن أبي قحافة عاش ثلثي عمره بالتمام والكمال في ذاك المجتمع الذي تعتبر هذه التقاليد الرواسخ أهم قسماته وأبرز ملامحه، ومن المستحيل لا من الصعب فحسب أن تمحّي من أي شخص الأفكار والمبادئ التي اعتنقها لمدة تزيد على أربعين عاماً.

فابن أبي قحافة عندما تسنّم ذروة الخلافة ــ دون مستحقيها بني هاشم رهط محمد مؤسس الدولة ــ لا يعدو أن يكون رئيس قبيلة كبيرة وهي دولة قريش وهذه الدولة القبيلة قامت فيما مضى بغزوات وسرايا وبعوث وأخضعت غيرها من القبائل... إذن فما جدوى ذلك كله إذا لم تتمتع بنواتج تلك الغزوات والسرايا والبعوث كل عام ما ظلت تلك القبائل خاضعة لها؟

إنها إذا لم تفعل تغدو مخالفة لعرف مستقر عاشه ابن أبي قحافة عشرات السنين من عمره: نشأ عليه وتربى بين أحضانه واكتهل فيه... وهذا ملمح غاب عن كل الذين كتبوا عن حروب الصدقة أو الزكاة بل كل الذين كتبوا عن الصحابة كبارهم وصغارهم فهم ينسون أن هؤلاء عرب فيهم نسبة كبيرة من البداوة وقضوا معظم حياتهم في مجتمع تحكمه أعراف قبيلة نصف متبدية وأنه من المستحيل عليهم أن يتخلصوا من آثارها عليهم إبّان عقدين من الزمان، فتحت القشرة الإسلامية الرقيقة التي تغطي أبا بكر وعمر وأبا عبيدة وعثمان وخالد بن الوليد... الخ يقبع في أعماق نفسه العربي شبه المتبدّي الذي اِنغرست في داخله التقاليد البدوية...

ولعل هذا المثل الذي نستخلصه من خبر وفد تجيب خير برهان على هذه الحقيقة التي نؤكدها والتي غابت عن الكثيرين أو ربما تغافلوا عنها عامدين والمثل يخلص في أن محمداً طلب من التجيبيين أن يأخذوا صدقاتهم إلى مضاربهم ويوزعوها على فقرائهم وكان أبي قحافة حاضراً وسمع هذه القاعدة الشرعية التي أصلها محمد... بيد أن أبا بكر عندما تولّى الخلافة ــ دون من هو أجدر بها ــ نسي أو تناسى هذا الحكم الشرعي الحاسم وأصر على ضرورة نقل الزكوات إلى أثرب حاضرة الدولة التي جلس على كرسي رئاستها ولو أدى ذلك إلى نشوب حرب ضروس ــ لماذا؟ لأن التقاليد البدوية القبلية التي عاشها معظم حياته تغلبت على القشرة الإسلامية الهشّة التي اِكتسبها. إنما الذي لا يشك فيه أحد أن محمداً أدّى الأمانة وحاول أقصى ما يحاوله داعية أن يُخرج تابعيه من إسار تلك التقاليد ومع ذلك أدرك أن مقاومة أعراف دامت مئات الأعوام أمر صعيب ومن هنا يجيء وصف القرآن

لدعوته بأنها ﴿قولاً ثقيلا﴾ (سورة المزمّل، الآية ٥). ذاك الإدراك: سبّب له كثيراً من الأسى والحزن وكم عانى محمد من أولئك التَبَع؟ وفي الخبر أنهم سألوا محمداً أشياء فكتب لهم وهي عبارة غامضة إذ لم توضح ما هي تلك الأشياء؟

المهم أنه عند كتابته لهم إياها فعل ذلك بوصفه الحاكم. وقد سر محمد منهم لإقبالهم على تعلّم القرآن والسنن وبذلك جمع هؤلاء الوفد أمرين حبيبين إلى نفس محمد:

أ ــ الرغبة في تفقه أمور الدين الذي دعا إليه.

ب ــ تقديم الدليل على الإذعان لدولته بإحضارهم صدقاتهم.

١٨ ــ وفد بني تغلب

«قدم على رسول الله ــ ص ــ وفد بني تغلب ستة عشر رجلاً مسلمين ونصارى عليهم صلب الذهب فنزلوا دار رملة بنت الحارث فصالح رسول الله ــ ص ــ النصارى على أن يقرهم على دينهم على ألا يصبغوا أولادهم في النصرانية وأجاز المسلمين منهم بجوائزهم».

قبيلة تغلب من القبائل التي كانت النصرانية فيها فاشية قبل ظهور الإسلام ومن ثم ضمّ وفدها نصارى عليهم صلبان الذهب والنصرانية ليست هي المسيحية إنما هي فرقة منها وهي التي عاصرت ظهور محمد إذ كان لها حضور في شبه الجزيرة العربية ومنطقة الحجاز على وجه الخصوص وإذ اقتصر احتكاك محمد على النصارى فقط ورد ذكرهم بـ القرآن دون باقي فرق المسيحية ومللها[١٨]... وعندما تقرأ في الخبر أن الوفد التغلبي ضم مسلمين ونصارى يتأكد لدينا أن الوفود ــ وخاصة التي جاءت لأثرب بعد فتح مكة ــ كان غرضها سياسياً بحتاً وهو إعلان خضوعها لدولة قريش وسيدها محمد لأنها لو كانت شأناً دينياً محضاً لما كان بين أعضائها نصارى.

ونزل الوفد دار ملة بنت الحارث وسوف يتكرر ذلك مع عدد

---

(١٨) فضلاً انظر كتابنا **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية**، ص ١٨٧ وما بعدها، الطبعة الثانية ١٩٩٧م، دار سينا، القاهرة والانتشار العربي، بيروت.

من الوفود ما يدل على أن دارها كانت وسيعة، وفي سيرة ابن هشام أن يهود بني قريظة لما حكم فيهم سعد بن معاذ قتل رجالهم حبسوا في دار رملة... وبعض كتاب السيرة يصل بعدد هؤلاء إلى سبعمائة... ورملة أنصارية من بني النجار أخوال محمد. وإقرار محمد النصارى على دينهم دليل على سماحته وسماحة الدين الذين يدعو إليه إنما استثنى من ذلك تعميد أولادهم وهو ما عبّر عنه في الخبر بـ (على ألا يصبغوا أولادهم)... ولعل تفسير ذلك أن يتركوا لهؤلاء الحرية في اعتناق ما يشاؤون من الأديان عندما يعقلون ويبلغون رشدهم... وأجاز المسلمين من الوفد فقط ولعله اعتبر ترك النصارى على دينهم إجازة لهم.

١٩ ــ وفد بني تميم

«وســبب مجيئهم أخذ عيينة بن حصن الفزاري جماعة منهم. فقدم فيهم عدة من رؤوسهم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم... في وفد عظيم... سبعين أو ثمانين رجلاً ــ وكان عيينة والأقرع بن حابس شهدا مع رسول الله ــ ص ــ فتح مكة وحنيناً والطائف فلما قدم وفد بني تميم قدما معهم.

دخلوا المسجد وأذّن بلال بالظهور والناس ينتظرون خروج رسول الله ــ ص ــ فجعل وفد بني تميم واستبطأوه فنادوه من وراء حجراته: يا محمد أخرج إلينا ثلاث مرات فآذى ذلك رسول الله ــ ص ــ من صياحهم فخرج إليهم وقالوا: إن مدحنا لزين وإن ذمنا لشين نحن أكرم العرب فقال رسول الله ــ ص ــ كذبتم بل مدحة الله عز وجل الزين وذمه الشين وأكرم منكم يوسف بن يعقوب.

قال البراء: جاء رجل إلى رسول الله ــ ص ــ قال الأقرع: إنه هو، فقال: يا محمد أخرج إلينا فلم يجبه، فقال: يا محمد إن حمدي لزين وإن ذمي لشين فقال رسول الله ــ ص ــ: ذاك الله عز وجلّ، فقالوا: أتيناك لنفاخرك فأْذن لشاعرنا وخطيبنا قال: قد أذنت لخطيبكم فليقل فقام عطارد بن قفال فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل وهو أهلنا الذي جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً... وجعلنا أعز أهل المشرق... فمن مثلنا من الناس؟.. أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا وأمر أفضل من أمرنا ثم جلس ــ فقال رسول الله ــ ص ــ لثابت بن قيس أخي بني الحارث بن الخزرج قم فأجب فقال: الحمد لله... ثم كان من فضله أن جعلنا ملوكاً واصطفى من خلفه رسولاً أكرمه نسباً... فكان خيرة

الله من الناس العالمين... فآمن به المهاجرون.. أكرم الناس أحساباً وأحسن الناس وجوهاً وخير الناس فِعالاً واستجابة لله... نحن الأنصار ــ أنصار الله ووزراء رسوله... فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ومن كفر جاهدناه في الله أبداً وكان قتله علينا يسيراً أقول قولي هذا وأستغفر الله والسلام عليكم...

فقام الزبرقان بن بدر فقال يا فلان قم فقل أبياتاً تذكر فيها فضلك وفضل قومك فقال: تسعة أبيات أولها:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا　　منّا الملوك وفينا تنصب البيع

فلما فرغ قال رسول الله ــ ص ــ لحسان بن ثابت قم فأجاب الرجل: فألقى قصيدة من ثمانية عشر بيتاً. فلما فرغ قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل لمُؤتى له: لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أعلى من أصواتنا. فلما فرغ القوم أسلموا وجوّزهم رسول الله ــ ص ــ فأحسن جوائزهم ــ وكان عمرو بن الأهتم خلّفه القوم في ظهرهم وكان أصغرهم سناً وأعطاه مثلهم. فقال محمد بن عمر: إن رسول الله ــ ص ــ أجاز كل رجل منهم إثنتي عشرة أوقية إلا عمرو بن الأهتم فأعطاه خمسة أواقٍ لحداثة سنّه.

قال ابن اسحاق وفيهم نزل من القرآن: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ (سورة الحجرات، الآية ٤) وسُئل رسول الله ــ ص ــ فقال: هم جُفاة بني تميم لولا أنهم من أشدّ الناس قتالاً للأعور الدجال لدعوت الله ان يهلكهم.

عن ابن عباس ــ رضي ــ: جلس إلى رسول الله ــ ص ــ: قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ففخر الزبرقان وقال: يا رسول الله أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب منهم آخذ لهم بحقوقهم وأمنعهم من الظلم وهذا يعلم ذاك وأشار إلى عمرو بن الأهتم فقال عمرو: إنه لشديد العارضة مانع لجانبه مطاع في أدانيه فقال الزبرقان

والله يا رسول الله لقد علم في غير ذلك وما منعه إلا الحسد فقال عمرو: أنا أحسدك فوالله إنك للئيم الخال الحديث المال أحمق الولد مُبغض في العشيرة والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولاً وما كذبت فيما قلت آخراً ولكني رجل إذا رضيت قلت: أحسن ما علمت وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت فقال الرسول ــ ص ــ إن من البيان لسحراً».

خبر هذا الوفد طويل لعدة أسباب منها أن تميماً كانت قبيلة كبيرة وأن الوفد ضمّ أشخاصاً كانوا يعتبرون من صناديد العرب وأن بني تميم فيهم جفاوة مع كبرياء وعنجهية وخنزوانة مع بسطة من الأموال ومن ثم كانوا يعتبرون أنفسهم ملوكاً أعزة والملك في عرف العرب من يملك عبيداً أو من يملك أمر نفسه ولا سلطان لأحد عليه ولا تعني بالضرورة صاحب الصولجان...

ومنها: أنهم بدرت منهم حادثة تدلّ على البداوة والجلافة وهي مناداة محمد بأصوات عالية ليخرج إليهم من حجراته وقد سجل القرآن هذه الواقعة بل إن إحدى سوره سُمّيت بها وهي سورة الحجرات ــ ونظراً لطول الخبر فإن البصائر التي نستخلصها منه سوف تكون عديدة.

بعض من ورد ذكرهم في فاتحة الخبر شهدوا مع محمد فتح مكة وحنيناً والطائف ودرّت غزوة حنين غنائم جزلة بل إننا نستطيع أن نقول إن غنائمها فاقت غنائم أي غزوة سبقتها ولو أنها إذا قيست بالغنائم التي كُبِشَت من المستعمرات التي فتحوها تعتبر متواضعة.

وقد أعطاهم محمد من تلك الغنائم الشيء الكثير تأليفاً لقلوبهم ومن ثم سموا هم وغيرهم ﴿المؤلفة قلوبهم﴾ (سورة التوبة، الآية ٦٠)، وظلوا يتقاضون سهم ﴿المؤلفة قلوبهم﴾ وهو أحد مصارف

الزكاة أو الصدقة حتى قوي المسلمون وعزّوا وبزّوا فمنعه عمر بن الخطاب عنهم وعلّل ذلك بأنهم يأخذونه والمسلمون ضعفاء ليأمنوا شرهم وكيدهم أما وقد عزوا فلا حاجة بهم (بـ المسلمين) لدفعه لهم... وهذا أعلى ما نعلم أول تطبيق عملي لمبدأ (وقتية الأحكام) أي أن الأحكام التي جاءت بها النصوص ليست جميعها سرمدية أبدية بل إنها ــ بخلاف ما تعلق منها بعقيدة التوحيد والعبادات وهي التي عبّر عنها محمد في حديث متفق عليه بـ أعمدة الإسلام أو أسس الإسلام التي بنى عليها ــ مرتبطة بوقتها ملتحمة بالظروف التاريخية التي انبثقت إبّانها وبالمجتمع الذي تولدت في أحشائه وبالبيئة التي تخلّقت في رحمها ــ وهذا هو أحد المبادئ التي ننادي بها ولو أنها تقابل من كثيرين بالرفض والاستهجان والاستنكار والاستخفاف بل وأكثر من ذلك ولكننا على ثقة أن هؤلاء في نهاية الشوط سوف يقتنعون ويأخذون بها... لأن هذه المبادئ هي المخرج من المأزق الذي يجد الحَرْفيون (المتمسكون بحروف النصوص لا معانيها) أنفسهم فيه عندما ينادون بتطبيق نصوص سلخت من عمر الدهر ألفاً وأربعمائة سنة دون محاولة منهم لتفهم مراميها وأهدافها وقصودها.

واقعة مناداة التميميين لمحمد بأصوات منكرة ليخرج إليهم دليل على المستوى الحضاري المتدنّي الذي كان عليه عرب الجزيرة آنذاك ولا يقال دفعاً له أنهم أعراب وأعاريب لأنه من ناحية هؤلاء كانوا غالبية سكان الجزيرة ومن ناحية أخرى وهي الأهم:

إن قاطني ما يمكن أن يُسمّى بالمراكز شبه المتحضرة مثل مكة والطائف ويثرب كانت البداوة أيضاً تضربهم بنسبة كبيرة أي أنهم إن لم يكونوا أعاريب خُلّصاً ولكن بطريق القطع كانوا شبه أعراب.

ولا بد أن نخوض في واقعة المناداة تلك فهي مبسوطة في كتب السيرة وفي التفاسير. أما المنافرة أو المفاخرة التي حرصوا على القيام بها مع محمد فهي دليل يضاف لتأكيد جفاوتهم وبداوتهم فليس من حسن الذوق ولا كمال الأدب أن يفد قوم على عظيم ليستعرض أمامه مناقبهم ومآثرهم بصورة فجّة مبتذلة. وقد تمت تلك المفاخرة بالأسلوبين الأدبيين اللذين لم يكن يعرف العرب غيرهما باستثناء الأمثال ولو أننا نرى أنها لا تدخل ضمن الأساليب الأدبية. فهم نظراً لانخفاض درجتهم في سلم الحضارة لم يكن لديهم أدنى مسكة من علم بالأساليب الأخرى مثل: الملاحم، الروايات، القصص، المقامات، المسرحيات... الخ في حين أن الشعوب الأخرى المجاورة كانت تبرع فيها منذ قرون ومع ذلك فإن من أعاجيب التاريخ أن هذا الشعب المتبدي الأميّ الذي لم يكن لديه علوم أو آداب أو فنون قهر الشعوب التي كانت تملكها.

ولا يجمل أن نغادر بصيرة المنافرة أو المفاخرة دون أن نتوقف ملياً عند جملة بالغة الدلالة وردت على لسان خطيب محمد: ثابت بن قيس الخزرجي وهي:

(فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ومن كفر جاهدناه في الله أبداً أو كان قتله علينا يسيراً). إنه مبدأ: أَسْلِمِ تسلم ومن نطق بالشهادتين عصم دمه وماله ومن لا يُسلم لا يَسلم ولا يحقن دمه ولا يعصم ماله.

وسبق أن أوردنا آيات القرآن وأحاديث محمد التي تقطع به تؤكده وتوثقه بصورة حاسمة جازمة وإحدى الآيات التي تدور في فلكه تسمى (آية السيف) ولعل هذا المبدأ أصبح واضحاً وثابتاً في آن واحد ومن ثم تغدو المجادلة فيه مغالطة مكشوفة، وخير تبرير

قرأته لهذا المبدأ هو أنه كان متوافقاً مع موجبات تلك الحقبة ملائماً مع الذين خوطبوا بها إذ أنهم لم يكونوا يقتنعون إلا بلغة السيف وهو كما عبّر عنه شاعرهم فيما بعد ــ أصدق إنباءً (إقناعاً) من الكتب (الحوار العقلاني).

ورد في الخبر أن محمداً وصفهم بالجُفاة وأنه كان من الميسور عليه أن يدعو الله عليهم بالهلاك والاستئصال بيد أنه لم يُقدم على ذلك لأنهم سيتصدون للأعور الدجال ويقفون في وجهه ويقاتلونه قتالاً شديداً. وقد كان محمد يتوقع أو على الأقل لا يستبعد ظهور الأعور الدجال أو المسيح الدجال إبّان حياته (... فإنه إن يخرج وأنا فيكم يكفيكم الله بي) ولا شك أنه في تلك الحالة كان سيجد في أعراب تميم الجفاة جنوداً أشداءً يؤازرونه في عركته ضد الأعور أو المسيح الدجّال ــ ثم يستطرد قائلاً (وإن يخرج بعد أن أموت يكفيكموه بالصالحين... ما من نبي إلا وقد حذّر أمته وأنا أحذركموه، إنه أعور وإن الله ليس بأعور، إلا أن المسيح الدجّال كأن عينيه عنبة طافية)[١٩] ــ والطبراني والسيوطي اللذان أوردا الحديث في مصنفيهما من الأئمة الأعلام في مجال رواية الحديث ما يعطي الحدث أهمية ووزناً وثقلاً كما أن إدراجه في كتاب يصدر عن مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر والذي تنحصر عُمالته في مراقبة طبعات القرآن وكتب الأحاديث يزيد من اعتباره وقدره...

نكشف عن صحة الحديث وتوثيقه لأنه يثير إشكالية عويصة

(١٩) أورده الطبراني في **المعجم الكبير**، مسند أم سـلمة، وجلال الـدين السيوطي في **جمع الجوامع**، المعروف بـ **الجامع الكبير**، ٧٦٢/ ٢٤٩٨٧ ــ ص ٦٨٣ و٦٨٤، من العدد السادس من الجزء الخامس من السنن القولية ــ الطبعة الأولى ١٤٨٠هـ/ ١٩٩٦م.

تحتاج إلى حلّ شافٍ وهي كيف أن محمد كفّ عن الدعاء على بني تميم بالهلاك والاستئصال استبقاء لهم ليحاربوا المسيح الدجال ومع ذلك لم يظهر هذا الأخير حتى اندثر بنو تميم على الأقل لم يعد لهم وجود كقبيلة لها كيان متميز.

وإسطير المسيح الدجال قاسم مشترك بين الديانات الإبراهيمية مثلها في ذلك مثل حكاية المهدي المنتظر أو (المِسّيا) الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً.. وقد طال انتظار الناس لهذه الشخصيات المُعجبة ومع ذلك لم تظهر رغم أنه ما من نبي إلا وقد تحدث عنها كما أخبر محمد...

ولعل علماء الأنثروبولوجيا الدينية يشفون غليلنا نحو هذه الشخصيات المُلغزة وهل لها وجود في الديانات القديمة وخاصة الديانات الساميّة السوابق على ظهور الديانات الساميّة الإبراهيمية الثلاث... تماماً مثلما كشفوا لنا عن وجود مسطورات: الإخراج من الجنة وإبليس والحية والطوفان والسفينة المدهشة التي أنقذت المخلوقات جميعها وفي مقدمها الإنسان من الانقراض والذهاب في بحار النسيان.

وحمل لنا الخبر منافرة حدثت بين اثنين من زعماء الوفد في حضرة محمد وقد استطاع أحدهما أن يسب الآخر ثم يمدحه وهو في كلتا الحالتين كان صادقاً إذ عندما مدح أظهر الجوانب المضيئة ولما قدح كشف عن النواحي السلبية السيئة وعلّق محمد على ذلك إن هذا من سحر البيان.

وما حدث بين الزبرقان وعمرو بن الأهتم وقبله بين خطيب بني تميم وشاعرهم وخطيب محمد وشاعره هو من سمات أصحاب الثقافات الشفوية إذ أنهم ينزعون للمخاصمة بشكل خارق للعادة

في نظر الكتابين إنْ في الأقوال أو في الأسلوب الحياة وكذا المفاخرة بالقدرات الشخصية وسلق الخصوم بسياط الكلام المؤلمة والمنابذة[٢٠].

(٢٠) **الشفاهية والكتابية**، تأليف والتر. ج. أونج، ترجمة د. حسن البنا عز الدين، ص ١٠٧ (بتصرف)، الطبعة الأولى شعبان ١٤١٤هـ/ فبراير ١٩٩٤م، العدد ١٨٢ من سلسلة عالم المعرفة، الكويت.

٢٠ ــ وفد بني ثعلبة

«لما قدم رسول الله ــ ص ــ سنة ثمان قدمنا عليه أربعة نفر، وافدين مقرين بالإسلام فنزلنا على دار رملة بنت الحارث فجاءنا بلال فنظر إلينا فقال: أمعكم غيركم قلنا: لا فانصرف عنا فلم يلبث إلا يسيراً حتى أتانا بجحفة من ثريد بلبن وسمن فأكلنا حتى نهلنا. ثم رحلنا الظهر فإذا رسول الله ــ ص ــ قد خرج من بيته ورأسه يقطر ماءً فرمى بصره إلينا فأسرعنا إليه وبلال يقيم (الصلاة) فسلمنا عليه وقلنا يا رسول الله نحن رسل من خلفنا ونحن مقرّون بالإسلام وهم في مواشيهم وما يصلحها إلا هم وقد قيل لنا يا رسول الله «لا إسلام لمن لا هجرة له» فقال رسول الله ــ ص ــ «حيثما كنتم واتقيتم فلا يضركم» وفرغ بلال من الأذان وصلى رسول الله ــ ص ــ بنا الظهيرة، لم نصلّ وراء أحدٍ أتم صلاة ولا أوجه منه ــ ثم انصرف إلى بيته فدخل فلم يلبث أن خرج إلينا فقيل لنا: صلى في بيته ركعتين فدعا بنا وقال: أين أهلكم؟ فقلنا قريباً يا رسول الله بهذه السرية فقال: كيف بلادكم؟ فقلنا مُخْصِبون فقال: الحمد لله ــ فأقمنا أياماً وتعلمنا القرآن والسنن وضيافته ــ ص ــ تجري علينا ثم جئنا نودعه منصرفين فقال لبلال: أجزهم كما تجيز الوفود فجاء بنقر من فضة فأعطى كل رجل منا خمس أواق وقال: ليس عندنا دراهم فانصرفنا إلى بلادنا».

عدد هذا الوفد قليل أتوا طائعين مُذعنين يعلنون خضوعهم هم ومن خلفهم من أبناء العشيرة، أنزلوا دار رملة بنت الحارث وسبق أن قلنا أن ذكر هذا الدار سوف يتكرر مما يعني أنها إحدى دور

الضيافة الهامة في ذاك الوقت بل لعلها أهمها جميعاً. واعتذروا لمحمدٍ عن عدم نزوح (هجرة) قومهم إليه لانشغالهم في إصلاح مواشيهم فقبل منهم العذر وإذ أن ذلك وقع في العام الثامن فإن سيطرة محمد ودولته على شبه الجزيرة كانت قد اتضحت قسماتها وظهرت ملامحها ومن ثم فلا حاجة له بمزيد من النوازح (المهاجرين) بل إنها: (الهجرة) لو حدثت فستؤدي إلى ربك في الأحوال المعيشية في أثرب المدينة ومن هنا تسامح محمد مع من يتعذر إليه عن عدم قدرته عليها.

وهذا ما يؤدي بنا إلى أن نقرر أن هذا الصنيع من قبل محمد دليل على وقتية الأحكام وارتباطاتها بموجبات زمانها وضرورات أوانها ففي البديّ كان الحديث صارماً حديداً قاطعاً كالسيف (لا إسلام لمن لا هجرة له)، هكذا دون مساومة أو تقديم أعذار.

لماذا؟ لأن الديانة البازغة والدولة الناشئة شَرِقَتان إلى الدعم بكافة ضروبه وأشكاله... لكن بعد أن تبدّلت الأحوال وتغيّرت الظروف وشاعت الديانة وذاعت وأقبل الناس على اعتناقها طوعاً أو كرهاً (نذكر هنا بآية السيف وغيرها إنْ من آيات القرآن أو أحاديث محمد التي تأمر بصراحة بقتل من لا يقر بالشهادتين ودخول الإسلام وهما القرينة القاطعة على الخضوع لهيمنة دولة القرشيين التي أسسوها في يثرب. أ. هـ) وفي الوقت عينه بدأت تترسخ قواعد بنيان الدولة القرشية فتغيّر الحكم إلى (حيثما كنتم واتقيتم فلا يضركم) أي لا يضركم عدم النزوح لأثرب. وهذا المثل يعزز ما نذهب إليه أن الأحكام ــ باستثناء المتعلقة بالعقيدة والعبادة ــ ترتبط برباط وثيق بالزمن الذي ظهرت فيه فعندما كانت الديانة تحبو والدولة في دور الطفولة فالنزوح (الهجرة) فرض عين ومن لا

يفعل فهو خارج عن حظيرة الإسلام بالكلية ــ بيد أنه بعد أن انتشر الدين وكثر عدد معتنقيه عن رغبة أو رهبة ــ وقويت الدولة فلا حاجة للهجرة ولا ضرورة لها ويحق للمسلم أن يبقى في مضارب رهطه أو قبيلته شرط أن يتقي الله.

٢١ ــ ثقيف

«قدم عليه في رمضان منصرفه من تبوك وفد ثقيف، وكان من حديثهم أن رسول الله ــ ص ــ لما انصرف عنهم أتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام فقال له رسول الله ــ ص ــ: (إنهم قاتلوك) فقال عروة: يا رسول الله أنا أحبّ إليهم من أبكارهم، فخرج يدعوهم إلى الإسلام فلما أشرف لهم على عِلّية له وقد دعاهم إلى الإسلام رموه بالنَبْل فأصابه سهم فقتله فطلب دفنه مع الشهداء الذين قُتلوا مع الرسول ــ أقامت ثقيف شهراً ثم رأوا ألاّ طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد أسلموا فأرسلوا ستة: رجلين من الأخلاف وثلاثة من بني مالك مع عبد ياليل بن عمرو بن عمر.

فلما دنوا من المدينة ألفوا المغيرة بن شعبة فاشتد ليبشّر بهم النبي ــ ص ــ ولكنّ أبا بكر أقسم عليه ألا يسبقه بذلك ــ خرج المغيرة إليهم خروج الظهر معهم وعلّمهم كيف يُحبّون رسول الله ــ ص ــ فأبوا إلاّ تحية الجاهلية، ولما قدموا عليه ضرب لهم قبة في ناحية المسجد ليسمعوا ويروا الناس إذا صلوا وخالد بن سعيد كان هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ــ ص ــ حتى كتب كتابهم ــ كانوا لا يأكلون طعاماً يأتيهم من عند الرسول ــ ص ــ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا ــ سألوه أن يدع لهم الطاغية فأبى وبعث أبا سفيان والمغيرة لهدمها وسألوه أن يعفيهم من الصلاة وألا يكسروا أوثانهم فأعفاهم من ذلك أما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه وأسلموا وكتب لهم كتاباً وأمّر عليهم عثمان بن أبي العاص ــ أحدثهم سناً وأحرصهم على الفقه

في الإسلام وتعلّم القرآن ــ وسأل الرسول ــ ص ــ مُصحفاً فأعطاه وهذا كتاب رسول الله ــ ص ــ لهم:

«بسم الله الرحمان الرحيم هذا كتاب من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين: إن عضاة وجّ وصيده حرام لا يُعضد ولا يُقتل فمن وجد يفعل شيئاً من ذلك فإنه يُجلد وتُنزع ثيابه ومن تعدّى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ النبي محمداً وأن هذا أمر النبي محمد رسول الله وكتبه خالد بن سعيد بأمر محمد بن عبد الله فلا يتعداه أحد فيظلم نفسه فيما أمر محمد رسول الله لثقيف».

قال كنانة: هل أنت مقاضيها حتى نرجع إلى قومنا قال نعم إن أقررتم بالإسلام أقاضيكم وإلا فلا قضية بيني وبينكم، قالوا: أفرأيت الزنا؟ فإنا قوم نغترب لا بد لنا منه فقال: هو عليكم حرام ثم تلا آية فيها الزنا قالوا: أفرأيت الربا فإنه أموالنا كلها: قال: لكم رؤوس أموالكم ثم تلا آية فيها الربا، قالوا أفرأيت الخمر فإنه لا بد منها؟ قال: إن الله تعالى قد حرمها وقرأ آية فيها الخمر.

فارتفع القوم وخلا بعضهم ببعض وكلموه ألا يهدم الربّة فأبى فقال ابن عبد ياليل: إنّا لا نتولى هدمها فقال سأبعث من يكفيكم هدمها وأمّر عليهم عثمان بن أبي العاص ــ وأمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طاغيتهم. قال عثمان قلت يا رسول: إن القرآن ينفلت مني فوضع يده على صدري وقال: يا شيطان أخرج من صدر عثمان فما نسيت شيئاً بعده أريد حفظه. وفي رواية أخرى:

في صحيح مسلم: قلت يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال: ذاك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوّذ بالله منه وأتفل على يسارك ثلاثاً قال: ففعلت فأذهبه الله عني».

ثقيف قبيلة كبيرة تسكن الطائف الواحة الخصيبة المجاورة لمكة وهي مصيفها والتي تمدها بكثير من أغذيتها وبين أغنياء الطائف وصناديد مكة صلات متعددة مالية ونكاح (زواج) ولما ضاق

محمد بإعراض المكيين عن قبول دعوته توجه إلى الطائف عساه يجد فيها أذناً صاغية ولكن كبراءها قابلوه بسفالة ودناءة وسخروا منه بكلمات تدلّ على الجفاوة وسوء الأدب وقلة الحياء وانعدام المروءة والبعد عن مكارم الأخلاق بل وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم فرموه بالحجارة حتى أداموا قدميه وفي هذا الموضع توجه إلى السماء يشكو ضعف قوته وحيلته وهوانه على الناس وكان ذلك قمة الاستضعاف الذي مرّ به محمد إبّان دعوته ويُنسب إلى ثقيف عدد من الصحبة اشتهروا في كثير من الميادين أو المجالات.

كانت لدى الثقفيين معبودة تسمى الطاغية أثيرة لديهم حبيبة إلى قلوبهم عزيزة على نفوسهم: يضاف إلى ذلك ثراؤهم الناتج من خصوبة بلدهم مع المنافسة التقليدية بينهم وبين القرشيين ــ هذه الأسباب دعتهم إلى معاندتهم لمحمد ورفض ديانته أو الانضواء تحت علم دولته واستمروا في مقاومته حتى بعد فتح مكة ففي طريق عودته إلى أثرب حاصر قريتهم (القرآن سمى كلاً من مكة والطائف قرية وهي تسمية دقيقة إذ من المبالغة الواضحة أن يطلق على أي منها مدينة ا. هـ) ولكنه لم يقدر عليهم بل أوقعوا بجيشه الخسائر. حتى المندوب الذي جاء يدعوهم إلى طاعة محمد قتلوه رغم أنه كان من أكابرهم والغريب أن محمداً حذره من التوجه إليهم ولكن لم يمتثل فلقي حتفه. تلك كانت صورة سريعة لمقاومة الثقفيين لـ محمد وتحليل دوافعها باختصار.

بعد انتصار محمد الساحق وانقياد الغالبية العظمى إليه وصيرورته سيد الجزيرة الوحيد بدأ حكماء القبيلة يدركون أن المقاومة تحولت إلى نوع من الانتحار لأنهم لا يقفون في وجه قريش وحدهم إنما ضد القبائل ــ قبائل الجزيرة ــ كلها التي استطاع

محمد ــ لأول مرة في تاريخها ــ أن يوحّدها تحت زعامته. وانتهى رأي أولئك الحكماء إلى ضرورة إرسال وفد إلى أثرب كما فعلت سائر القبائل والبطون والأفخاذ والعشائر ليعلن قبول الإسلام والإذعان لراية قريش.

وصل وفد ثقيف إلى محمد ولم يكونوا قد أسلموا بعد ومن ثم فإنهم لم يحيوه بتحية الإسلام رغم أن المغيرة بن شعبة علّمهم إياها ولذا ضرب لهم محمد قبة من ناحية المسجد (ليسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلّوا) لعل ذلك يُدخل الإيمان في قلوبهم.

ولعدم إسلامهم فإنهم قد أخذوا حذرهم من محمد فكانوا لا يأكلون طعامه حتى يأكل منه الصحابي الذي كان يمشي بينه وبينهم وهذا سوء ظن وخبث طويّة إذ لم يُعرف عن محمد الغدر، إنما مَثُلَتْ في نفوسهم صور صحابته الذين قتلوهم أثناء حصاره لقريتهم ــ وظلّوا على حذرهم حتى أسلموا لأنهم علموا أن الإسلام هو شارة الأمان لمن يعتنقه. وطلبوا من محمد مطالب دلّت على جهلهم بموجبات الوضعية الجديدة التي انتقلوا إليها بعد إسلامهم وقد سألوه أن يعفيهم من الصلاة ولم يكونوا قد أدركوا بعد أنها عماد الدين وأول أركانه الشعائرية أو الطقوسية وأن يبيح لهم الزنا بحجة أنهم يغتربون ولا بد لهم من ممارسته حالة غربتهم وهي حجة داحضة فهم ليسوا وحدهم في الاغتراب والبعد عن الديار.

كما طلبوا منه استمرار التعامل بالربا وهذا طبيعي لأنهم أصحاب أموال فقد كانت لهم صِلات مالية بأهل مكة بيد أن ذلك ليس سبباً تافهاً لاستثنائهم من تحريم الربا لأن غيرهم يشترك في خاصية الإقراض والتسليف والتعامل بالأجل. كما أن طلبهم

من محمد هذه التجاوزات يقطع باعتزازهم بأنفسهم ونظرتهم إليها أنهم أسمى من غيرهم ــ وكلموا محمداً في استبقاء ربتهم «الطاغية» وذلك لإعزازهم إياها وذكرنا أنه كان أحد أسباب طول مقاومتهم فلما رفض التمسوا منه ألاّ يكلفهم بهدمها ولما عُرف عن محمد من سعة الأفق فقد رأى أن هذا يسير فأجابهم إليه وكلّف أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة بهدمها وكم أثبت أنه حصيف في هذا الاختيار فأما أبو سفيان فهو سيد قريش حتى فتح مكة وزعيم بني أمية أحد أقوى بطون قريش ــ وله مال وبئر في الطائف وعلى صلات وثيقة بصناديده فلن يجرؤ أحد على التعرض له ــ أما المغيرة فهو مثلهم ثقفي فهو واحد منهم وله عشيرته التي تتعصب له وتحميه. وأمر محمد ببناء مسجد مكان «الطاغية» حتى يمّحي من ذاكرة عُبّادها السابقين أي أثر لها.

ولم يكن مستغرباً أن يطلبوا من محمد حِلِّية شرب الخمر ــ لأن الطائف كانت ولا تزال تنتج أنواعاً ممتازة من الأعناب التي هي مادة الخمور الجيدة وعُرف عن العرب آنذاك حبّهم الشديد للإسفنط (أحد أسماء الخمر) فكانت لذة شرب المزّة أو القهوة (من أسامي الخمر) تأتي في المرتبة المُصليّة (التالية) لـ لذة معافسة النساء.

وكتب لهم محمد بوصفه حاكماً ورئيساً للدولة كتاباً حمى لهم «وجا» وهو وادٍ بالطائف بين جبليّ المحترق والأحيدحين[٢١] ولو أن البكري يذهب إلى أن «وجا» هو (الطائف وما اتصل به من أرض نجد).

(٢١) **القاموس المحيط**، الفيروزآبادي، كتاب **المسالك والممالك**، أبو عبيد البكري، نبذة ١٣١ ص ١١٣، الجزء الأول، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الطبعة الأولى ١٩٩٢، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس.

ونحن نرجّح أن «وجا» هو الطائف بأكملها حتى تخوم نجد لأن من المقبول عقلاً أن يطالب الثقفيون تحديد حِمَى بلدتهم جميعها ولا يقتصرون على وادٍ منها فحسب ومرده أن أرض قريتهم خصيبة تجود بأنواع شتى من الزروع والفواكه والموالح فهي مطمع لجيرتها والمارين عليها ــ وذاك الملتمس من جانبهم تسليم منهم برئاسة محمد وحاكميته وسيادته.

أظهر محمد معجزة سريعة للثقفيين ذلك أن عثمان بن العاص الذي أمّره عليهم لأنه كان أحرص على الفقه بالديانة وتعلم القرآن شكا لمحمد أن القرآن يتفلّت منه أي بعد أن يحفظ سوره وآياته ينساها ولا تمكث في ذاكرته. فما كان من محمد إلا أن وضع يده على صدره (عثمان) ثم خاطب الشيطان القابع بين حناياه وأمره بـ الخروج وكان من البديهي أن يمتثل لهذا الأمر ومن ساعتها لم يعد عثمان ينسى شيئاً ــ وندرك من ذلك أن المفهوم الإسلامي للحفظ أنه يقع في الصدر أو بعبارة أخرى أن الذاكرة الحافظة مستقرها الصدر لا الدماغ حيث المخ ومراكزه المتعددة. وفي رواية أخرى أعلن محمد اسم الشيطان هو (خنزب) وهو اسم سوف يتكرر في وقائع مماثلة مما يدلّ على أنه كان شائعاً بين الشياطين. وأرشد محمدٌ عثمانَ لما يفعله إذا أحسَّ بخنزب يتحرك في صدره لكي يمحو ما وعاه، وينسيه ما حفظه. وعثمان بن أبي العاص ثقفي من بني جثم بن ثقيف ورغم صغر سنه أمّره محمد على الوفد لأنه كان أشدهم رغبة في الفقه وفي تعلم القرآن وهاتان الخلتان شارة على الولاء لمحمد وديانته ودولته ولم يكتفِ محمد بذلك بل ولاّه على الطائف كلها والذي لفت نظر محمد إليه هو أبو بكر.

(فقال أبو بكر: يا رسول الله إني قد رأيت هذا الغلام أحرصهم

على التفقه في الإسلام وتعلّم القرآن)[٢٢] وظل عثمان أميراً على الطائف طوال حياة محمد ثم خلافة اِبن أبي قحافة جميعها وعامين من ولاية ابن الخطاب ثم نقله إلى عُمَان والبحرين... وفي كل الدول ذات الأيدولوجيات يصبح الولاء لأيدولوجية الدولة هو جواز المرور لتولي المناصب الرفيعة.

هناك جزء من الخبر أن عثمان بن أبي العاص الثقفي (سأل الرسول ــ ص ــ مصحفاً فأعطاه) ويجب علينا ألاّ نمر عليه مرور الكرام وأن نتفرّس فيه ونفلّيه ولا ندعه يعدي بسهولة وخفة بل نتوقف عنده مليّاً لأنه صريح النص والدلالة معاً على أنه في عهد محمد وإبّان حياته كانت (مصاحف) وأنه أعطى عثمان أحدها.

وهو أمر لا يتنافى مع المنطق أو طبائع الأمور لأنه كان يوجد بين يديّ محمد ما بين عشرين أو أربعين صحابياً يكتبون القرآن الذي يمليه عليهم محمد ــ والقرآن في نظر محمد وصحبه بل وسائر المسلمين هو أسّ الإسلام وأصله فكيف لا يتوفر هؤلاء الكرام الكاتبون على كتابته وتدوينه بين دفتين وهو ما يقال له المصحف، وهل لديهم (شُغْلَة) بعد الاشتراك في الغزوات والسرايا وفرق العمليات الخاصة أهم من ذلك؟

وكيف يُعقل أن محمداً لا يفكر في جميع القرآن وتدوينه وتحت إمرته هذا العدد الوفير من الكتاب بل لا يخطر له على بال طوال ما يقرب من ربع قرن؟ أو على الأقل في مدة السنوات العشر التي مكثها في أثرب (المدينة) خاصة وأنه كان ينعي على أصحاب العقائد الأخرى أنّ كتبهم المقدسة طالتها أيادي التحريف والتبديل

---

(٢٢) **السيرة النبوية**، ابن هشام.

ولا ننسى ما امتاز به محمد من عبقرية فذّة وذكاء نادر وألمعية لا مثيل لها.

إن الأقرب إلى العقل أن يأمر محمد بكتابة المصحف أو المصاحف والأبعد عن التصديق أن يغفل عنها ولا يلتفت إليها مع شدة الدواعي ويقوّي هذا الفرض أنه ثبت يقيناً أنّ عدداً من الصحابة كان لديهم مصاحف خاصة مثل علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وأُبيّ بن كعب وهو أنصاري خزرجي من بني النجار كان قبل أن يُسْلِم من أحبار اليهود وعلمائهم قرأ كتبهم ودرسها ومن القلائل في يثرب الذين كانوا يقرأون ويكتبون والأهم أنه كان أحد كُتّاب الوحي ولمحمد حديث وصفه فيه بالعلم ــ فكيف يفطن هؤلاء الأصحاب وغيرهم إلى ضرورة كتابة السوَر والآيات القرآنية في مصحف ولا ينتبه محمد إليها (الضرورة)... هذا محال.

نخلص إلى أن كتابة القرآن في مصحف حال حياة محمد أمر يتضافر كل القرائن والأدلة على تحقّقه وتعيّنه وتشيّئه على أرض الواقع ولعل هذا المقطع الذي جاء في ثنايا خبر وقد ثقيف يرسخه خاصة وأن الثقفيين قدّموا بعد الفتح أي بعد أن اكتمل القرآن أو كاد.

بيد أن هناك اعتراضاً ينتصب بشدة أمام هذا الفرض الذي يصل إلى مشارف الحقيقة وهو أن كتب السّيَر وتاريخ القرآن تخبرنا أنّ جمعاً حدث بأمر من أبي بكر وبمشورة من عمر وتدويناً تمّ في خلافة عثمان وبأمره أيضاً والذي انتهى إلى نسخ المصحف الذي بيّن أيدي جميع المسلمين اليوم فلو كان هناك مصحف تمّ جمعه وتدوينه في العهد المحمدي فما الذي دفع هؤلاء (ابن أبي قحافة وابن الخطاب وابن العفان) إلى الإقدام على ما فعلوه، وهو لا

شك اعتراض وجيه أشدّ ما تكون الوجاهة ولكن الرد عليه تنسجه عدّة خيوط متشابكة يأتي كل واحد منها من فجّ[٢٣].

١ ـــ هناك بواعث قوية دفعتهم إلى الجمع والتدوين وهي من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى إبانة أو كشف ولدينا واقعة ثابتة أطبقت عليها أمهات المصنفات التراثية التي تلقتها الأمة بالقبول وهي أن محمداً في أيامه الأخيرة من مرض موته أراد أن يكتب كتاباً بيد أن ابن الخطاب حال دون ذلك نخرج منها بمُعْطى على قدرٍ وفير من الخطر وهي أن المدونات التي كُتبت في عهد محمد أو حتى تلك التي كان يرغب في كتابتها كان بعض كبار الصحابة يمنح نفسه الحق لاعتبارات أو لحسابات خاصة في النظر فيها ووزنها من بعده.

٢ ـــ هناك مناطق في التاريخ الإسلامي المبكر تعتليها العتمة ويلّفها الضباب منها كما ذكرنا الفترة التي تبلغ خمسة عشرة عاماً من حياة محمد منذ زواجه من خديجة حتى صدع بدعوته وأعلن الديانة الإسلامية والتي قلنا إن أصلح تسمية لها (تلك الحقبة) هي (حقبة التأسيس)... ومنها عملية جمع القرآن على يد أبي بكر بإيحاء من عمر أو كتابته في مصاحف بأمر من عثمان.

٣ ـــ ما ذُكر عن دافع أبي بكر إلى جمع القرآن وباعث عثمان لتدوينه أو نسخه لا يبلغ حدّ الإقناعية فالرواية التي موجزها أن فكرة الجمع طرأت على عمر فنقلها إلى أبي

---

(٢٣) **المصباح المنير**، المقري الفيومي، **الفجّ:** الطريق الواضح الواسع.

بكر ففي مثل هذا العمل البالغ الخطورة يصعب أن نصدّق انفرادهما بالتفكير ثم التنفيذ دون مشورة كبار الصحبة إلاّ إذا كان ما يدعوهما ــ بل يدفعهما دفعاً ــ لهذا الانفراد والتكتم والسرية والتعتيم. أما بالنسبة لعثمان فيقال إن الذي حفّزه على ذلك هو أن أحد الصحابة وهو حذيفة بن اليمان كان في غزوة في أرمينية فرأى اختلاف الجنود في قراءة القرآن وعراكهم فذهب إلى عثمان وطلب منه أن يدرك هذه الأمة لكي لا يختلف أبناؤها كما فعل اليهود والنصارى في كتبهم فأمر بجمع القرآن في مصحف واحد عمل منه أربع نسخ وحرق جميع ما عداه من المصاحف[٢٤].

وإذ أن تلك النازلة حدثت في سنة ثلاثين هجرية فإن مدلولها أن المسلمين ظلّوا يقرأون القرآن بقراءات مختلفة متباينة تدعو للتعارف قرابة عشرين عاماً (وفاة محمد كانت في ١٢ ربيع أول سنة ١١هـ) ورغم ذلك لم يتنبه لها أبو بكر ومن بعده عمر وعثمان وأكابر الأصحاب حتى فطن إليها حذيفة بن اليمان وهو أمر من العسير استساغته ودعك من هضمه.

إذن الدوافع التي ذُكِر أنّها حرّكت الخليفتين الأول والثالث لجمع الآيات والسور وكتابتها أو تدوينها أو نسخها في مصحف واحد (عثمان) ليست مقنعة.

٤ ــ تثور علامات استفهام كثيرة في هذا الموضوع منها:

(٢٤) أخرجه البخاري في **صحيحه**، وأوردنا خلاصته.

أ ــ لماذا كلّف أبو بكر زيد بن ثابت بالذات بجمع نصوص القرآن من الرقاع والعسب وصدور الرجال[٢٥]. مع وجود صحابة أقدر منه على ذلك ويفوقونه فقهاً وعلماً وحفظاً للقرآن ولماذا يكتفي بجهد رجل واحد مهما كانت كفايته ولم يعين نفراً (مجموعة) من القرّاء والحَفّاظ ومن اشتهروا بأنهم (علماء الصحابة) لتتولى ذلك.

ب ــ لِمَ وضع عثمان زيداً نفسه على رأي اللجنة التي اختارها لنسخ نصوص القرآن من (المجموع) الذي انتقل إلى حيازة حفصة بعد وفاة أبيها عمر ــ ولماذا حصر أعضاءها بقريش وهم:

سعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث ولما قال لهم: عند الاختلاف مع زيد أكتبوه بـ لغة (لهجة) قريش. ولِمَ اقْتصر عليهم مع وجود عشرات من كبار الصحابة أكفأ وأحفظ وأعلم منهم؟

والأوعر من ذلك أنهم كانوا شباباً فـ عبد الله بن الزبير ولد بعد الهجرة بـ عشرين شهراً أي عندما ألحق بتلك اللجنة كان له من العمر إثنان وعشرون عاماً أما عبد الرحمان بن الحارث المخزومي فلم يكن قد بلغ العشرين لأنه حينما قبض محمد كان ابن عشر سنين ويرى البعض أنه لم يكن صحابياً بل كان من التابعين وسعيد بن العاص الأموي ولد في السنة الأولى من الهجرة أي وقت ضمه لعضوية اللجنة كان في التاسعة والعشرين من عمره أليس

(٢٥) أخرجه البخاري في **صحيحه**، وهذه خلاصته.

أمراً مثيراً للانتباه تفضيل عثمان لهم في شأن يستوجب اختيار من هم أعلم وأفقه وأحفظ وأثبت منهم ـــ وعلى أقصى درجة من الخطر والأهمية إذ يتعلق بأقدس شيء لدى المسلمين!!!

لو أن عثمان ندبهم لإنجاز عملية عسكرية لبدا ذلك طبيعياً ومعقولاً.

ج ـــ ونختم بـ رئيس اللجنة وهو زيد بن ثابت الخزرجي الأنصاري فقد كان عمره لما قدم محمد المدينة إحدى عشرة سنة أي عندما كلفه أبو بكر بجمع القرآن (حدث ذلك في سنة ١٢هـ) كان في الثالثة والعشرين من عمره فكيف أقدم أبو بكر (بموافقة عمر) على تكليف ذاك الشاب الغض بتلك المهمة الخطيرة وتركا شيوخ الصحابة من العلماء والأثبات.

هل يمكننا أن نَعْبُر هذه الحقيقة التاريخية دون أن نندهش ونتساءل: لماذا؟ وما هو السر الذي يكمن وراءها؟ إن التعليل الذي قيل إنه (شاب جَلْد) غير مقنع لأن تلك المسألة البالغة الخطورة (جمع القرآن) لا تحتاج إلى قوة جسمانية وشدة بدنية وحتى إذا اِدُعّى أنها كانت تحتاج إلى (جري ورمح)[٢٦] ولا يقدر عليها إلا الشاب الجلد ـــ جاء دفع هذا الاعتراض بأنه كان من الميسور إلحاق زيد بـ لجنة تختار من علماء الصحابة لجمع القرآن وما يتطلب حركة ونشاطاً مثل إحضار عسيب النخل من فلان أو رقعة من مكان معين فيعهد به إليه وكم شاب جلد كان

(٢٦) في القاموس المحيط، الفيروزآبادي، **رمح** البرق: لمع.

في أثرب المدينة آنذاك خلاف ابن ثابت؟

الإجابة تأتي أنهم عشرات بل مئات. فلِمَ زيد حصراً وتحديداً؟

هذا السؤال سوف يتردد لأن المصنفات التراثية في هذه الخصوصية لا تعطي ما يساعد على إجابته.

ونواصل مسيرتنا مع رئيس اللجنة زيد بن ثابت: لماذا عندما فرغ من أداء عمله الخطير على الوجه المرضي: (جعله عثمان على بيت المال) أي وزيراً للخزانة بالتعبير الحديث ثم ما لبث يسيراً حتى نقده من بيت مال المسلمين: مائة ألف دينار أو درهم[٢٧].

٥ ــ لم تحظ تلك اللجنة برضى بعض الصحابة فهذا هو عبد الله بن مسعود أحد السابقين للإسلام وأحد علماء الصحبة ورأس مدرسة العراق الفقهية (فيما بعد) والتي تفرع منها المذهب الحنفي أكبر مذاهب أهل السنة بإجماع كان يعالن بغضبه لعدم اختياره حتى عضواً في تلك اللجنة وتفْضيل زيد بن ثابت عليه ويقول (يا معشر المسلمين أُعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وأنه (زيد) في صلب رجل كافر)[٢٨].

٦ ــ لماذا أصرّ عثمان على حرق جميع المصاحف ما عدا المصحف الذي جمعته ودوّنته ونسخت منه النسخ لجنة

(٢٧) **الرياض النضرة في مناقب العشرة**، المحب الطبري، ص ٥٤٩، تحقيق النشرتي وآخرين.
(٢٨) جزء من حديث أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وصححه الألباني.

زيد بن ثابت بما فيها مصاحف علماء الصحاب وقد ذكرنا منهم ثلاثة على سبيل المثال لا الحصر: علّياً وأُبيّاً وابن مسعود، هل يعقل أن هؤلاء هم من هم يزيدون أو ينقصون من القرآن أو يرتبون آياته وسوره بخلاف ما وقفهم عليه محمد وكانوا من أقرب الناس إليه وكان يقدّر فضلهم وعلمهم ومات وهو عنهم راضٍ ولا يجرؤ مكابر على أن يدّعي أن أي واحد منهم كان أقل علماً وأخف فقهاً من ابن ثابت والشبان أعضاء لجنته؟

٧ ــ عَصْلَبَ[٢٩] عبد الله بن مسعود عندما طلب منه الخليفة الثالث أن يُسلّم مصحفه الخاص ليقوم بحرقه مثل ما فعل مع مصاحف الأصحاب ــ وكأنما حدثته نفسه أن ابن عفّان لم يكتف باستبعاده حتى من عضوية اللجنة وعيّن فيها أحداثاً في مثل سن أولاده... بل هو يريد أن يسلبه أعز ما يملك: مصحفه الخاص الأثير لديه الذي لا يفرّط فيه طائعاً مختاراً مقابل الدنيا بحذافيرها فرفض رفضاً باتاً وقاوم فأمر به عثمان فجُلد وجُرّ برجله حتى كُسر له ضلعان وانتزع منه مصحفه عنوة واقتداراً وحرقه مثل غيره ثم كافأه على تلك المقاومة بأن حرمه من عطائه فغاضبه ابن مسعود حتى وفاته.

والذي يقرأ هذه النازلة يتساءل على الفور: لماذا عامل عثمان ــ رغم ما عُرف عنه من رقة طبع ودماثة خلق وحياء شهد له به محمد، عبد الله بن مسعود أحد السابقين الأولين ومن أبرز علماء الصحبة تلك المعاملة

(٢٩) في المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، **عصلب** الرجل: اشتد غضبه.

القاسية الشديدة وما الذي كان مدوناً في مصحفه حتى دفع عثمان إلى اغتصابه منه بتلك الطريقة التي لم يراع فيها لا سن ابن مسعود، ولا سابقته، ولا فضله، ولا عمله، ولا رضاء محمد عنه، حتى انتقاله إلى جوار ربّه؟

٨ ــ ألم يكن نسخ القرآن في مصحف واحد وحرق بقية المصاحف أحد أكبر المآخذ التي حُسبت على عثمان وأحد أسباب نقمة عدد كبير من مشاهير الصحاب عليه وأحد دوافع الثورة عليه التي انتهت بمصرعه الدامي والذي شارك فيه عدد من الصحابة أحدهم شهد بيعة الرضوان التي ورد ذكرها في القرآن؟

ملخص هذه الفقرة التي نشعر أنها قد طالت بعض الشيء بأننا قد طرحنا ثلاثةَ مُعطيات:

الأول: أن جمع وتدوين وكتابة مصحف في حياة محمد فرض قائم تتوافر عدة قرائن وأدلة على تحققه.

الثاني: أن تكليف أبي بكر (بإشارة من وزيره الأول عمر) زيد بن ثابت بجمع القرآن وهو شاب لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره وترك علماء الصحابة وحفاظهم مسألة فيها نظر.

الثالث: أن صدور الأمر من عثمان بتدوين وكتابة ونسخ المصحف من قبل لجنة يرأسها زيد ويعاونه فيها أحداث من قريش مع تجاهل العلماء الأثبات والحفّاظ والفقهاء الراسخين من أكابر الصحابة... وما صاحب ذلك من نوازل مثلما حدث لابن مسعود وما تلاه من مكافأة

رأس اللجنة بتعيينه وزيراً للخزانة أو بتعبيرهم (جعله على بيت المال) ثم نفحه تلك المنحة الجزلة السمينة من بيت مال المسلمين... هذه الأمور جميعها تحرك في الصدور أشياء وأشياء وتثير في العقول عشرات من الأسئلة؟ أما ما جاء في الكتابة التقليدية في هذه المسألة البالغة الأهمية (جمع القرآن بأمر أبي بكر ثم تدوينه ونسخه من طريق لجنة عثمان) فليسمحوا لنا أن نرد عليهم مع تقديرنا لهم ــ ببيت أبي العلاء المعري هذا كلام له خبيء معناه: ليست لنا عقول.

وحتى نقطع الطريق على المتنطعين الذين قد يدّعون أن كلمة (المصحف) التي وردت في الخبر لا تعني (المصحف) بالمعنى الاصطلاحي المتعارف عليه ولكنها تعني مجموعة من الصحف ضمت إلى بعضها البعض أو أن أصلها (صحف) ثم صحفت إلى (مصحف). إن هذا الاعتراض مردود عليه بالآتي:

١ ــ أن محمداً درج على تمييز الديانة التي بشّر بها وعلى فرادتها ومن ثم فقد حرص على أن تكون لها ذاتيتها الخاصة وأساميها الخاصة فاسم الكتاب الذي بشّر به هو (القرآن) تميزاً له عن التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وصحيفة دانيال وجريدة لقمان الخ.

إذن منذ حياة محمد لم يستعمل لفظ **الصحف** للدلالة على القرآن أو على أجزائه أو على مجموعة من سوره وبالتالي فإن القول بأن صحة ما ورد بالخبر هو: **وسأل الرسول ــ ص ــ صحفاً فأعطاه** وأن كلمة (صحف)

إما أنها صحفت إلى كلمة (مصحف) أو أنه كان يقصد بها مجموع تضم بعض السور، هذا الزعم ينافي حقيقة ثابتة وهي عدم تسمية القرآن بـ (الصحف) على الإطلاق.

٢ ــ أن قواميس اللغة لا تساعد على صحة هذا الاعتراض يقول الفيروزآبادي والصحيفة الكتاب والجمع صحائف وصحف ككتب نادرة لأنّ فعليه لا تجمع على فُعُل... ثم بألفاظ أكثر وضوحاً: المصحف هو ما جُعلت فيه الصحف[٣٠] ومفهوم ذلك أنه من الجائز أن يقال إن المصحف يضم صحائف ولا يجوز أن يقال إن صحائف تعني مُصحفاً وبعبارة أشد وضوحاً أن اللفظين ليسا مترادفين بحيث يعطي أحدهما مدلول آخر.

أما مجمع اللغة العربية في مصر فقد أكد أن كلمة مصحف غلب استعمالها على القرآن[٣١]. ومفهوم المخالفة لذلك أن أية مجموعة من الصحف لا يُطلق عليها كلمة (مصحف).

وترتيباً على ذلك فيستحيل أن يكون عثمان قد سأل محمداً صحفاً وهو يعني مصحفاً لاختلاف المدلول في كل ونحن نرجّح أنه لو نطق بذلك لبادر محمد بسؤاله: أي صحف تعني إن كتابنا يسمى: «القرآن» وجمعناه في مصحف. ونكتفي بهذا القدر في الرد على الاعتراض من المنظور اللُغوي

(٣٠) في **القاموس المحيط**، فصل الصاد باب الفاء.
(٣١) **المعجم الوسيط**.

٣ ــ ورغم ذلك ومع التسليم الجدلي البحت أن ما جاء في الخبر: (وسأل الرسول ــ ص ــ صُحفاً...) فمعنى ذلك أن سوراً وأجزاءً كانت على عهد محمد تُكتب ويُضم بعضها إلى بعض في إضبارة أو على الأقل في إضمامة... وما دام الأمر كذلك فما المانع إذن بأنّ مصحفاً كاملاً كتب آنذاك. وكتابة (مجموع) أو (إضبارة) أو (إضمامة)... تجمع أجزاء من القرآن أو سوراً منه تجعل فرض كتابة أو نسخ القرآن كله في مصحف أمراً قريب الاحتمال وفرضاً قريب التصديق يرتفع إلى رتبة الحقيقة. وهكذا فإن هذا الدفع الأخير ينقلب إلى حجة في صالح القائلين بكتابة مصحف في حياة محمد.

نخلص من ذلك إلى أن هذا الاعتراض وقد قلّبناه على وجوهه الثلاثة لا يقوى على الوقوف أمام الحقيقة التي نقول بها وهي كتابة مصحف في عهد محمد وبتوجيهه وإشرافه.

٢٢ ــ وفد جذام

«وفد رفاعة بن زيد بن عمير بن معبد الجذامي، ثم أحد بني الضبيب على رسول الله ــ ص ــ في الهدنة قبل خيبر، وأهدى له عبداً وأسلم فكتب رسول الله ــ ص ــ كتاباً:

«هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد أني بعثته إلى قومه عامة ومن دخل فيهم يدعوهم إلى رسوله فمن آمن (في لفظ فمن أقبل) منهم ففي حزب الله وحزب رسوله ومن أدبر (وفي لفظ من أبى) فله أمان شهرين»

فلما قدم على قومه أجابوه وأسلموا.

زاد الطبراني: ثم سار حتى نزل حرة الرجلاء (أو حرة الرجل بين القين من المدينة والشام سميت بذلك لأنه يترجل فيها ويصعب المشي) ثم لم يلبث أن قدم دِحيّة الكلبي من عند قيصر حين بعثه رسول الله ــ ص ــ حتى إذا كان بوادٍ من أوديتهم يقال له ــ شنار (وادٍ بالشام) ومعه تجارة له أغار عليها الهنيد بن عوض وابنه عوض بن الهنيد الضليعان ــ الضليع بطن من جذام فأصاب كل شيء كان معه ــ فبلغ ذلك قوماً من الضبيب رهط رفاعة بن زيد ممن كان أسلم فنفروا إلى الهنيد وابنه فيهم من بني الضبيب النعمان بن أبي جُعال حتى لقوهم فاقتتلوا ورمى قرّة بن أشقر الضلعي، النعمان بن أبي الجعال فأصاب ركبته فقال حين أصابه: خذها وأنا ابن لُبنى (أمه) وكان حسّان بن ملّة الضبيب قد صحب دحية قبل ذلك وعلّمه أم الكتاب، واستنقذوا ما كان في أيديهم فردّوه على دِحيّة الذي قدم على رسول الله ــ ص ــ وأخبره الخبر فاستسقاه دم الهنيد وابنه عوض فبعث رسول الله ــ ص

ــ زيد بن حارثة وبعث معه جيشاً وقد وُجهت غطفان من جذام ووائل ومن كان من سلامان وسعد بن هذيم حين جاءهم كتاب رسول الله ــ ص ــ حتى نزلوا حرة الرجلاء ورفاعة بُكراع الغميم (موضع بين مكة والمدينة) ومع ناس من بني الضبيب بوادي مدار من ناحية الحَرّة».

هذا وافد أقبل على محمد قبل خيبر التي حدثت في السنة السابعة الهجرية ونشير هنا إلى ما سبق أن ذكرناه أن وفوداً توجهت إلى محمد إلى أثرب قبل ما سُمِيّ بِعام الوفود (العام الهجري التاسع) وقدم زيد الجذامي انقياده لمحمد وهو هدية هي عبد وسبق في دراسات لنا سوابق أن أكدنا أن أيّاً من الأديان الإبراهيمية الثلاث لم يلغ العبودية أو الرق بل ألغاه البشر بجهودهم وكفاحهم وعرقهم وتضحياتهم ــ ولو أن الإسلام فتح منافذ عديدة للعتق وفك الرقاب إنما أبداً لم يلغه وما زال بعض الدول الإسلامية يرفض التوقيع على الميثاق العالمي لتحريم الرق (العبودية) بحجة أنه مخالف للشريعة الإسلامية وهي حقيقة لم يستطع أي واحد من معارضيهم أو مناوئيهم أن يفتح فمه بحرف واحد لدحضها أو تفنيدها.

وكتب محمد لجذام يدعوهم من طريق كتاب حمله إليهم وافدهم إلى الدخول في الإسلام وما يستتبعه ذلك أو يعنيه أو يدلّ عليه وهو الوقوف تحت بيرق[٣٢] دولة قريش التي أسسها في أثرب فمن آمن وأقبل (من حزب الله وحزب رسوله) ومفهوم المخالفة أن من لا يؤمن وأدبر فهو من حزب الشيطان وما أدراك ما حزب الشيطان. وأمهلهم شهرين أي إذا مضت مدة الأمان تلك فقد أحلّ المعاند بنفسه دمه وماله وزوجه وذراريه وهكذا يترسخ مبدأ (أَسلِم

(٣٢) في المعجم الوسيط، **البيرق:** العلم الكبير والجمع بيارق معرّب.

تَسْلَم وتعصم دمك ومالك) بصورة واضحة لا مجال فيها لأي غموض.

بيد أن الجذاميين فيما يبدو كانوا عقلاء وفطناء وحكماء فأخذوا من قصيرها[٣٣] وأسلموا والراجح أنهم اِتعظوا بغيرهم من القبائل التي عَصَلّجت فلقيت جزاءها ومثلهم يقول: العاقل من اِتعظ بغيره. وسبق أن قلنا مسألة «الإسلام أو السيف» لم تكن موضع سُوام أو تماحك وأخبار الوفود التي مضت والتي ستأتي تؤكد ذلك.

لما بدأت ملامح دولة قريش تظهر وعواميدها تترسخ وسيطرتها تكاد تشمل الجزيرة اِتخذ محمد خاتماً (وكان لا يفعل ذلك سوى أصحاب السيادة) وطفق يكاتب الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام وكان ذلك في العام السابع الهجري وقد تقبّل بعضهم رسائله قبولاً حسناً وبعضهم على العكس استشاط غضباً وقابل الرسول الذي حملها إليه بعنجهية وخنزوانة وكبرياء ومزقها مثل كسرى الأمبراطورية الفارسية (الساسانية) وكان محمد يختار من بين صحبة من له خبرة ودراية بالبلد الذي يحمل كتابه إلى ملكه أو أميره أو حاكمه وهذا يقطع بفطانة محمد وذكائه وألمعيته وشدة بصره بالأمور.

وكان دحية الكلبي تاجراً يتردد على بلاد الشام ومن ثم فقد أوفده إلى إمبراطور الروم (كانت الشام إحدى مستعمرات الإمبراطورية الرومانية البيزنطية) رسولاً منه يحمل مكتوبه إليه. وتخبرنا كتب السيرة أن قيصر الروم أحسن استقبال دحية وهشّ

---

(٣٣) المعجم الوسيط، **القصير** من الشيء أصله وأسه ونسبه يقال فلان قصير النسب إذا كان أبوه معروفاً وفرس قصير: نفيس.

لكتاب محمد بل وآمن برسالته بنبوته وأوشك أن يحوّل الإمبراطورية من دين ابن مريم إلى الإسلام بيد أن بطارقته حالوا دون ذلك وهددوه بتحريض الشعب على الثورة عليه وخلعه فَخَنَس، ولما أبلغ دحية محمداً بذلك أكبر موقف قيصر ودعا له **ثبّت الله ملكه**. ويثير الشطر الأخير من هذا الخبر إشكالية معقدة تحتاج إلى حل وهي أن ملك قيصر مُزقَ على أيدي صحبة محمد في أقل من خمسة أعوام ففي العام الثاني عشر بعد الهجرة سيّر الخليفة الأول جيوشاً اقتحمت بخيولها المبروكة بلاد الشام بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وخالد بن الوليد (كان في العراق فصدر له الأمر بالتوجه إلى الشام) وكلهم بلا استثناء من الأصحاب.

ولنا أن نسأل: هل ابن أبي قحافة وقواده الأشاوس لم يسمعوا دعاء محمد لقيصر الروم بتثبيت ملكه؟

من وجهة نظرنا هذا مستحيل لأنهم من ألصق الناس به ومن الحتم اللازم أن أبا بكر ــ وزيره الأول ــ كان حاضراً عندما استقبل محمد دحية الكلبي وسمع منه رد قيصر.

أم أنهم (الخليفة الأول وقواده) سمعوا الدعاء (دعاء محمد لقيصر بتثبيت ملكه) ورغم ذلك غلبت عليهم شهوة الفتح والاستعمار والاستيطان ونهب الأموال والتمتع بالسبايا الشاميات الفاتنات... الخ. هذه اللفتة الدقيقة تؤكد ما سبق أن قلناه من لزوم إعادة قراءة التاريخ العربي الإسلامي منذ بواكيره الأولى قراءة فاحصة واعية لتتسنى كتابته موضوعية.

دحية الكلبي شخصية متميزة في محيط الصحابة فهو:

أولاً: كان شديد الجمال بالغ الحسن حتى أنه كان يغطي

وجهه بقناع حتى لا تفتتن به نسوان أثرب/ المدينة وكان لهن ولع بالغ بالرجال ذوي الوسامة والملاحة ففي عهد اِبن الخطاب ظهر شاب من على تلك الشاكلة يُسمَّى نصر بن سيّار فأغرمت به أولئك النسوة فأمر ابن الخطاب بحلق شعر رأسه علّ ذلك يصرفهن عنه بيد أن وضاءته تضاعفت فازددن به كَلَفاً وتَولُهاً وعشقاً فما كان من الخليفة (العادل) إلا أن أمر بتغريبه من أثرب/ المدينة!!! ولهذا تتضح لنا حصافة الكلبي الجميل المليح في تغطية وجهه الفتان.

ثانياً: كان جبريل ــ كما تذكر لنا كتب السيرة ــ يأتي لمحمد في صورته (دحية) في بعض الأحيان وكان الأصحاب يرونهما منفردين يتناجيان ويتسّاران فيأخذهم العجب فلما ينصرف دحية أو جبريل يخبرهم محمد أن ذلك جبريل وليس دحية فينقلب عجبهم إلى اندهاش بالغ.

وبديهي أن تشكّل جبريل على هيئة دحية مرده إلى ما كان يتمتع به الكلبي من وضاءة وحلاوة وقسامة ووسامة كذلك نقلت إلينا كتب السيرة أنه في عركة أحد ظهر إبليس في صورة صحابي يعد نموذجاً للدمامة ومثالاً للقبح يسمى (جُعيل أو جُعال) وبذلك نستطيع أن ندّعي أن نظرة السماء إلى الجمال والدمامة وصلتهما بالقداسة والدنس أو الخير والشر تكاد تماثل نظرة أهل الأرض من البشر إليها.

ثالثاً: كان صاحب القافلة التي عادت من الشام بِزفّة وضرب على الطبول إعلاماً بوصولها وعليها الطعام إلى أثرب

التي كانت تعاني آنذاك من شدة وجوع وحدث ذلك وقت صلاة الجمعة فخرج من كان بالمسجد على بكرة أبيهم حتى لم يبق مع محمدٍ يستمع إليه وهو يخطب إلا اثنا عشر رجلاً منهم أبو بكر وعمر فقرأ محمد عليهم الآية ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾[٣٤] (سورة الجمعة، الآية ١١) ــ وهكذا وصف القرآن ما قام به الكلبي في هذه النازلة بأنه (لهو) وهو فعل معيب بمقياس الإسلام، وهذا يثبّت ما قلناه أن الصحبة ما هم إلا بشر من الجائز وقوع أخطاء وزلات منهم فالكلبي مع أنه شهد أحداً وباقي المشاهد مع محمد ورغم اختيار السماء لصورته أو هيأته ليتشكّل بها رسولها أو ملاك الرب أو الروح القدس رئيس الملائكة جبريل فإن ذلك لم يَحلُ دون قيامه بِلهو صرف غالبية الصحاب أو كلهم (إلا القليل) عن أداء شعائر صلاة الجمعة التي كان يؤمها ويقودها محمد كل ذلك مقابل (عرض من الدنيا قليل) وهي عبارة كثيراً ما كان يرددها محمد.

هجوم بني الضليع (رهط من جذام) على قافلة دحية إبان رجوعه من الشام بعد أن سلّم رسالة محمد إلى القيصر ثم نهب كل ما فيها من عروض وبضائع أمر طبيعي فقد كان هذا هو سَبْرهم (هيأتهم) وديدنهم وعُرفهم لأنه مصدر رزقهم ومنبع كسبهم وأسّ معاشهم وكم كان ابن قحافة ماهراً خِرِّيتاً عندما وجههم إلى البلاد المجاورة يمارسون فيها هذا النسق الحياتي الذي درجوا عليه منذ نعومة أظفارهم: النهب والسلب والخطف والإغارة

(٣٤) **أسباب النزول**، الواحدي.

والتصبيح وعجبي لا ينقضي من الذين يندهشون من نجاح أولئك العُربان في غزواتهم تلك (يسمونها الفتوح).

ما وجه الدهش وهذا هو الفن (إذا جاز أن نسميه فناً) الحربي الوحيد الذي يجيدونه ولا يعرفون سواه ولا يتقنون خلافه فضلاً عن إيمانهم العميق بأنهم إذا أخفقوا (فشلوا) فيها فسوف يؤوبون خزايا ندامى من حيث أقبلوا من جزيرتهم الجرداء القاحلة القرعاء في حين أنهم لو نجحوا لتمتعوا بالخيرات الحسان والإماء الوضيئات الخ.

في رأينا أن العجب يغدو له موضع لو أنهم لم يفلجوا ولم يفوزوا لأنهم تربوا ونشأوا وشبوا وشابوا على النهب والسلب والخطف الخ. بَعْثُ محمدٍ بجيش بقيادة زيد بن حارثة كان أمراً حتمياً رغم أن قوماً من الضبيب تولوا تأديب بني الضليع واستنقذوا منهم ما نهبوه من دحية وردوه عليه ــ وذلك لتأكيد هيبة دولة قريش ولكي لا تتشجع القبائل الأخرى فتحذو حذو بني الضليع وتتمرد عليها فقد كان أعرف الناس بنفسية أولئك العُربان وأنه لا يدرعهم إلا السيف ولا تخيفهم سوى القوة.

٢٣ ــ جرير بن عبد الله البجلي

«عن جرير ــ رضي ــ قال: بعث إليّ رسول الله ــ ص ــ فأتيته فقال: ما جاء بك؟ قلت جئت لأسلم فألقى إليّ كساءه وقال: إذا أتاكم كريم فأكرموه، أدعوك إلى شهادة ألا إله إلا الله وأني رسول الله وتطيع الوالي وإن كان عبداً حبشياً.

وفي رواية: لما دنوت من مدينة الرسول ــ ص ــ أَنخت راحلتي وحللت عَيْبتي ولبست حلتي ودخلت المسجد والنبي ــ ص ــ يخطب، فسلّمت على رسول الله ــ ص ــ فرماني الناس بالحدق فقلت لجليسي يا عبد الله هل ذكر رسول الله ــ ص ــ عن أمري شيئاً؟ قال: نعم ذكرك بأحسن الذكر فبينما هو يخطب إذ عرض لك فقال: إنه سيدخل عليكم من هذا الباب ــ أو من هذا الفج ــ من خير ذي يمن وأن على وجهه لمسة مَلِك ــ فحمدت الله على ما أبلاني.

وعن البراء بن عازب ــ رضي ــ قال: بينا أنا يوماً عند رسول الله ــ ص ــ في جماعة من أصحابه أكثرهم اليمن إذ قال رسول الله ــ ص ــ: سيطلع عليكم من هذه الثنيّة ــ من هذا الفج ــ خير ذي يمن على وجهه مسحة مَلِك ــ فما من القوم أحد إلا تمنى أن يكون من أهل بيته ــ إذ طلع عليه راكب فانتهى إلى رسول الله ــ ص ــ فنزل على راحلته فأتى النبي ــ ص ــ فأخذه بيده وبايعه وقال من أنت؟ قال: جرير بن عبد الله البَجَلّي فأجلسه إلى جنبه ومسح على رأسه ووجهه وصدره وبطنه حتى انحنى جرير حياء أن يدخل يده تحت إزراره وهو يدعو له بالبركة ولذريته ثم مسح رأسه وظهره وهو يدعو له ثم يبسط له عرض ردائه وقال له: على هذا يا جرير فاقعد فقعد مليّاً ثم قام وانصرف وقال النبي ــ ص ــ إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه.

وفي رواية عن جرير ــ رضي ــ: أتيت رسول الله ــ ص ــ فقلت: يا رسول الله أبايعك على الهجرة فبايعني رسول الله ــ ص ــ واشترط عليّ النصح لكل مسلم فبايعته على هذا وكان نزول جرير على فروة بن عمرو البياضي».

كان محمد يعرف للرجال أقدارهم وينزلهم منازلهم التي يستحقونها ومن ثم إذا جاء واحد من أكابر العرب وكرمائهم سرّه ذلك كثيراً وسعى جاهداً أن يُكرم وفادته ويتلقاه بكل ما في وسعه من ودّ وترحاب وهذا ما فعله مع جرير البجلي فما إن أخبره أنه أتاه مسلماً حتى بادر بإلقاء كسائه عليه وهو تقليد معروف يدل على الإعزاز وبالغ الترحيب ــ وما ورد في عجز المقطع الافتتاحي من الخبر على لسان محمد (وتطيع الوالي وإن كان عبداً حبشياً) استخدمه فقهاء السلطة أسوأ استخدام كسلاح لتطويع المحكومين[٣٥] وضرورة طاعتهم لولاة الأمر فيها يفعلون ما لم يظهر منهم كفر بواح وكل الطواغيت الذي حكموا طوال التاريخ العربي الإسلامي كانوا من الدهو بحيث لم يظهروا كفراً بواحاً.. مع الملاحظة أن جميع المظالم بشتى صورها لا تعتبر كفراً بواحاً. وفي مقابل من يصرون على أن (الأئمة من قريش) فإن من ينازعونهم في هذا المبدأ ويرون أن كل مسلم تتوافر فيه صفات الإمامة وشروطها فهو صالح لتوليها ووجدوا في حديث (تطيع الوالي وإن كان عبداً حبشياً) سنداً قوياً لهم يشد أزرهم فيما يذهبون إليه.

وهو يمارس مهمته كنبي/ رسول أخبر محمد أصحابه بِقدوم البجلي قبل وصوله وذلك مرتين:

(٣٥) يسمونهم الرعية **والرعيّة** هي الماشية التي ترعى كما هو في قواميس اللغة أ. هـ.

الأولى: وهو في مسجده يخطب على المنبر.

والأخرى: وهو جالس في جمع الصحبة أكثرهم يمانية وتعدد الروايات واختلاف الوقائع في موضوع وهو أمر شائع بين (النصوص) حتى في أمور يمكن أن يقال إنها تمسّ الأصول والثوابت والقواطع والأسس... الخ. بيد أننا وجدنا بين الفقهاء ومن يسمونهم (علماء الدين) خبراء أخصائيين ومعلمين (وهي كلمة عربية فصيحة وإن جرت كثيراً على ألسنة العامة وكان تلامذة المسيح (الحواريون) لا ينادونه إلاّ بـ: يا معلم. أ. هـ). في تبرير تناقض النصوص وتضاربها وتسويغها وتفسير التضارب والتناقض بطرق وأساليب أشبه بمخاريق السحرة وشعبذات الحواة.

وأياً كان الأمر فإنّ محمداً أبلغ الصحاب بمجيء البجليّ قبل قدومه وهذا ما يؤكد نبوته ويرسخها. ومَسْح (الشخصية المباركة) بيدها على أجزاء من جسم التابع أو المريد طقس معروف لينقل البركة إليه ويقترن ذلك غالباً بالدعاء له ولذريته ويتم المسح على الأعضاء مباشرة دون حائل من ثياب أو عمامة (بالنسبة للرأس) وفي بعض العقائد تستعمل (الشخصية المباركة) أنواعاً من الزيوت أو الطيوب أو خليطاً منهما (أو ربما الماء) مع المسح الذي قد يتم في أماكن مقدسة مثل المعابد أو على ضفاف الأنهار التي لها هي أيضاً قدر من القدسانية.

لم يصل يمانيو الصدر الأول إلى المستوى الذي تمناه لهم محمد فقد رأينا كيف أنه وصفهم بصفات حميدة ونعتهم بنعوت طيبة وفي هذا الخبر أي وفادة جرير البجلي، نستشعر مرة أخرى تقدير محمد لليمانيين وتمييزه لهم بيد أن الأخباريين أبلغونا أن أهل اليمن ـــ في ذياك الزمان الغابر ـــ لم يحققوا ما رجاه وأمله فيهم محمد

حتى إننا نضعهم على رأس من نازع وعارض بل ارتد وخلع ربقة الدين والدنيا معاً ويرجع ذلك فيما نرى إلى أنهم كانوا من أرقى العَرَبَة وأكثرهم تمديناً وحضارة وعرفوا الممالك والملوك... الخ بالإضافة إلى دوافع أخرى ستأتي فيما بعد.

إذن حزّ في نفوسهم أن يمتلكهم الشماليون وهم أقل بكثير في ترتيب درجات الحضارة وأن يتسيّد العدنانيون القحطانيين الذين سبقوهم في مجالات: الكتابة (اللغة) والدين (التوحيد) والدولة (إنشاء الممالك) وغيرها من المجالات.

وبدأ انتقاص أو انتقاض اليمانية مبكراً قبل أن ينتقل محمد إلى جوار ربه راضياً مرضياً فقد تزعّم الأسود بن كعب المذحجي العنسي ثورة وطنية في اليمن أسست سلطة استولت على الغالبية العظمى من أجزائه وطردت عمال (ولاة) محمد أو دولة قريش ومنهم خالد بن سعيد وعمرو بن حزم. واستمرت شهرين ولم يتم القضاء عليها إلاّ بمكيدة شاركت فيها زوجة الأسود مع تأكيدنا على وجود دوافع اقتصادية لتلك الثورة بخلاف البواعث السياسية التي ألمحنا إليها من قبل وكان الغرض من الثورة هو التخلص من سلطة قريش وما تبقى من الفرس الذين حكموا اليمن قبل محمد وقد عرفوا بـ (الأبناء).

هي إذن ثورة ذات محركات وطنية إنما كعادة المؤرخين العرب الإسلاميين ظهرت في مصنفاتهم صورة كاريكاتيرية ساخرة لهذا الثائر وأطلقوا عليه ألقاباً مضحكة تهويناً من شأنه وحطاً من قدره فهو:

ذو الخمار (بالخاء) وذو الحمار (بالحاء) وهو عبهلة ورحمان اليمن ـــ مثل ما سموا مسيلمة (رحمان اليمامة) ولسنا بصدد

التأريخ لها أو تحليل دوافعها إنما نخرج منها أن اليمانية لم يرتفعوا لذروة حسن ظن محمد بهم واستمروا في طرح أدلّة الثبوت على عدم جدارتهم لتوسمات محمد فيهم إذ تحكمت فيهم العصبية القبلية واتضح ذلك جلياً في عهد الخلافة الأموية في نزاعهم وشقاقهم مع القيسيين (المضريين).

ولغفلة الفريقين استغل خلفاء بني أمية بفرعيهم (السفياني والمرواني) ذلك الاختلاف لمصالحهم ما أدى إلى نشوء الدعوة العباسية التي اعتمدت على الخراسانية والفرس. وسيطر، الأخيرون خاصة على مقدرات الدولة على حساب العنصر العربي.

وهكذا لعب اليمانية دوراً مؤثراً في زوال شوكة العرب عن دوائر الحكم وهو شأن أثمر عواقب وخيمة وأن المرء ليتولاه العجب ويتساءل: أين ذهبت الحكمة اليمانية التي كان محمد يتوسمها فيهم؟

ولقد آتت المعاملة الكريمة التي لقيها جرير من محمد والألقاب الفخيمة التي أغدقها عليه أكلها فعندما ندبه لتصفية أحد جيوب مقاومة الدين والدولة من قبل عشيرة من قبيلة خثعم رفض أفرادها دخول الإسلام والإنضواء تحت علم قريش وتمسكوا بديانتهم وعبادتهم وعبادة ربهم ذي الخلصة وكعبتهم (الكعبة اليمانية) ـــ عندما ندبه لذلك أدى المأمورية على خير وجه إذ حطّم مقاومتهم وقتل منهم مقتلة عظيمة (القتلى بـ المئات) وحرق ذا الخلصة وهدم الكعبة اليمانية وسوّاها بِالأرض فأثبت أنه كِفَاء لما أمله محمد فيه وأنه جدير بما نفحه من ألقاب رفيعة.

إن تحريق ذي الخلصة وهدم الكعبة اليمانية والمقتلة الذريعة التي حدثت على يد جرير بن عبد الله البجلي ورجاله في بني خثعم،

دليل جديد يضاف إلى الأدلة السوابق التي سقناها من قبل والتي تؤكد أن النصوص في هذا الأمر حاسمة: الإسلام أو السيف ومن بين (النصوص) الواضحة والصريحة والقاطعة في هذه الخصوصية هذا الحديث الصحيح:

«أرسل محمد علياً قائداً على إحدى السرايا فسأله علام أقاتل الناس؟ قال: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجلّ»[٣٦].

الحديث رواه كل من: أحمد بن حنبل وابن سعد ومسلم وأبو حاتم والمحب الطبري ــ فمن يماري في صحته تتسم معارضته بِالمغالطة والمعاندة والمكابرة وكنتيجة منطقية لما تقدم يغدو مبدأ (أَسْلِمْ تَسْلَم وتعصم دمك ومالك) من الثوابت المستقرة.

(٣٦) رواه الإمام أحمد بن حنبل في **مسنده**، وابن سعد في **الطبقات الكبرى**، ومسلم في **صحيحه**، وأبو حاتم والمحب الطبري في **الرياض النضرة**.

٢٤ ــ الجارود بن المعلى وسلمة بن عياض

«قدم الجارود العبيدي ومعه سلمة بن عياض الأسدي ــ حليفه في الجاهلية على رسول الله ــ ص ــ قال الجارود ــ وكان نصرانياً قرأ الكتب ــ لسلمة إن خارجاً خرج بتهامة يزعم أنه نبي فهل لك أن تخرج إليه فإن رأينا خيراً دخلنا فيه فإنه إن كان نبياً فللسابق إليه فضيلة وأنا أرجو أن يكون النبي الذي بشّر به عيسى بن مريم.

... قال الجارود: إن كنت يا محمد نبياً فأخبرنا عما أضمرنا عليه فخفق رسول الله ــ ص ــ كأنه سنة ثم رفع رأسه وتحدّر العرق عنه فقال (أما أنت يا جارود فإنك أضمرت على أن تسألني عن دماء الجاهلية وعن حلف الجاهلية وعن المنحة (الهبة).

ألا وإن دم الجاهلية موضوع وحلفها مشدود ولم يزدها الإسلام إلا شدّة ولا حلف في الإسلام ألا وأن الفضل صدقة.

أما أنت يا سلمة فإنك أضمرت على أن تسألني عن: عبادة الأصنام وعن يوم السباسب وعن عقل الهجين فأما عبادة الأصنام فإن الله تعالى يقول ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ (سورة الأنبياء، الآية ٩٨) أما يوم السباسب (عيد للنصارى يسمونه الشعانين) فقد أعقب الله تعالى منه ليلة خير من ألف شهر فاطلبوها في العشر الأوائل من شهر رمضان فإنها: ليلة بلجة سمحة لا ريح فيها تطلع الشمس في صبيحتها لا شعاع لها ــ أما عقل الهجين (العقل الدية) فإن المؤمنين إخوة تتكافأ دماؤهم يجير أقصاهم على أدناهم أكرمهم عند الله أتقاهم فقالا: نشهد ألاّ إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبد الله ورسوله.

وعند ابن اسحاق أن الجارود لما انتهى إلى رسول الله ــ ص ــ كلمه فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه ورغبه فيه فقال: يا محمد إني كنت على دين وإني تارك ديني لدينك أفتضمن لي ديني؟ فقال له ــ ص ــ: نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه فأسلم وأسلم أصحابه ثم سأل رسول الله ــ ص ــ الحملان فقال: والله ما عندي أحملكم عليه.

ثم قال يا رسول الله ادع لنا أن يجمع قومنا: فقال: اللهم اجمع لهم ألفة قومهم وبارك لهم في برهم وبحرهم ــ قال: يا رسول الله أي المال أتخذ ببلادي؟ قال: وما بلادك قال: ماؤها وعاء ونبتها شفاء وريحها صبا ونخلها غواد. قال: عليك بالإبل فإنها حمولة والحمل يكون عدداً والنقاة ذوداً. قال سلمة: يا رسول الله أي المال اتخذ ببلادي؟ قال وما بلادك؟ قال: ماؤها سياح ونخلها صراح وتلاعها فياح. قال: عليكم بالغنم فإن ألبانها سجل وأصوافها أثاث وأولادها بركة ولك الأكيلة والربا أي الفضل والزيادة. فانصرفا إلى قومهما مسلمين.

وعند ابن اسحق فخرج من عنده الجارود إلى قومه وكان حسن الإسلام صليباً على دينه حتى مات وقد أدرك الردة فثبت على إيمانه ولما رجع من قومه من كان أسلم منهم إلى دينه الأول مع الغرور بن المنذر بن النعمان بن المنذر قام الجارود فشهد شهادة الحق ودعا إلى الإسلام فقال: أيها الناس إني أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأكفر من لم يشهد.

عن عبد الله بن عباس ــ رضي ــ أن الجارود ــ رضي ــ أنشد رسول الله ــ ص ــ حتى قدم عليه في قومه أبياتاً أولها: يا نبي الهدى أتتك رجال... قطعت فدفداً وآلاً فآلاً».

هذا وافد مثقف قرأ الكتب واعتنق النصرانية وهو في الوقت نفسه شاعر وسبق أن قلنا إن الشعراء هم المثقفون والمفكرون في ذاك الزمان.

إذن مثل الجارود العبدي يعتبر عملة نادرة في أمة أمية بشهادة محمد نفسه الذي كان مثلاً في الأمانة قولية أو فعلية (إنا أمة أمية لا تكتب ولا تحسب)[٣٧].

ومن ثم فإن الحوار الذي دار بين هذا الوفد ومحمد له مذاق خاص ونكهة مغايرة لما كان يجري بين محمد وبين الجفاة الأجلاف أو العربان المتبدين أو أهل القرى أنصاف المتبدين.

الجارود العبدي وقد قرأ الكتب والمقصود بها أسفار اليهود وأتباع ابن مريم أدرك أن النبي/ الرسول لا بد أن يكون على صلة دائمة بالسماء أي أنه يعلم ما تكنه الصدور بين جوانحها وما يضمره المرء في طوايا نفسه وقرأ في الأناجيل أن عيسى بن مريم كان يخبر أقرانه بما هو مدخر في بيوتهم. ومن ثم طلب من محمد أن يخبره عما يضمره هو وحليفه لكي يتحققا من نبوته فاعترته الحالة التي كانت تعتريه عندما يوحى إليه كما تذكر لنا كتب السيرة ثم أخبرهما بما يضمرانه فلم يسعهما إلا أن يسلما ويقرا بنبوته ويدخلا دينه بعد أن ضمن للجارود أن الإسلام خير له من النصرانية.

وهذا المقطع من الخبر يدل على أن محمداً تعرض لمواقف اِتسمت بالصعوبة بل والتحدي بيد أنه كان كفاءً لها. وبعد ذلك سألاه عن شأن دنيوي وهو المال الذي يتخذه كل منهما ليصلح به شأنه، وكالعهد به كان حصيفاً فاستفسر منهما عن طبيعة بلد كل واحد منهما. وترتيباً على الإجابة أخبر كلاً منهما بما يناسبه من مال والمال طبقاً لهذه الأحدوثة هو الماشية:

---

(٣٧) رواه البخاري في **صحيحه**، عن عبد الله بن عمر ـــ رضي ـــ في كتاب الصيام وكذا مسلم في **صحيحه**، في كتاب الصيام.

الإبل أصلح لأرض الجارود.

والغنم تتلاءم مع أرض سلمة.

وهذه الإجابة تقطع بأن محمداً كان خبيراً بالشؤون الدنيوية ولا غرو في ذلك فقد ظل منذ نشأته حتى زواجه من خديجة بنت خويلد وهو يزاول أعمالاً شتى: رعي الغنم ــ التجارة إما لحسابه أو لحساب الغير... بيد أنه بعد اقترانه بخديجة الموسرة تفرغ للتحنث والتأمل والتفكر ومدارسته لأصحاب الملل والنحل المتباينة الذين كانت تعج بهم مكة.

وطلب الجارود من محمد أن يدعو الله لكي يجمع الله قومه دليل على أن الفرقة كانت عليهم ويبدو أن عدداً من القبائل كانت كذلك لأننا رأينا فيما سبق أن وافداً اِلتمس منه ذلك ــ وهذا يهدينا إلى حقيقتين:

أ ــ أن توحيد القبائل (قبائل جزيرة العرب) على أيدي محمد كان عملاً ليس سهلاً فالفرقة كانت تضرب عدداً من القبائل من داخلها فضلاً عن الفرقة الكلية الشائعة بين جميعهم.

ب ــ علة احتراب القبائل بعد أن انتهت الفتوح (فتوح النهب والاستيلاء والاستعمار والاستيطان التي ابتليت به الشعوب المجاورة) ولذلك فإن الدارس للتاريخ العربي لا يحق له أن يندهش للحروب العديدة التي نشبت بين هؤلاء العربة لأن بذرة الاختلاف والخلف والفرقة والعصبية كامنة في أعماق نفوسهم بل إننا لا نعدو الحق إذا قررنا أنها جزء من تكونهم وأنها حتى الآن مهيمنة على خلفهم الميمون وهذا يشرح لنا إخفاق (فشل) كل

محاولات الوحدة بينهم: الجامعة العربية ــ السوق العربية المشتركة ــ الوحدة السورية المصرية ــ مجلس التعاون للدول الخليجية... الاتحاد المغاربي الخ.

٢٥ ــ وفد جعفى

«كانت جعفى تحرم القلب في الجاهلية فوفد إلى رسول الله ــ ص ــ رجلان منهم:

قيس بن سلمة بن شراحيل بن مران الجعفي وسلمة بن يزيد من مشجعة المجمع وهما أخوان لأم وأمهما مليكة بنت الحلو ــ فأسلما ــ فقال لهما رسول الله ــ ص ــ بلغني أنكم لا تأكلون القلب قالا: نعم قال فإنه لا يكمل إسلامكما إلا بأكله. وكتب رسول الله ــ ص ــ لقيس بن سلمة.

«كتاب من محمد رسول الله لقيس بن سلمة بن شراحيل أنى استعملتك على مران ومواليها وحريم مواليها والكلاب ومواليها من أقام الصلاة وأتى الزكاة وصدق ماله وضعاه».

ثم قالا: يا رسول إن آمنا مليكة بنت الحلو كانت تفك العاني وتطعم البائس وترحم المسكين وأنها ماتت وقد وأدت بنية لها صغيرة فما حالها؟ فقال رسول الله ــ ص ــ الوائدة والمؤودة في النار فقاما مغضبين فقال: وأمي مع أمكما ــ فأبيا ومضيا يقولان:

والله إن رجلاً أطعمنا القلب وزعم أن أمنا في النار لأهل ألا يتبع ــ فلما كانا ببعض الطريق لقيا رجلا من أصحاب رسول الله ــ ص ــ معه إبل من إبل الصدقة فأوثقاه وطردا الإبل فبلغ ذلك النبي ــ ص ــ فلعنهما فيمن كان يلعن في قوله:

«لعن الله رَعْلاً وذكوان وعصية ولحيان وابني مليكة ومران».

روى ابن سعد عن أشياخ قالوا: وفد أبو سبرة وهو يزيد بن مالك بن

عبد الله الجعفي على النبي ــ ص ــ ومعه إبناه سبرة وعزيز فقال العزيز: ما اسمك؟ فقال: عزيز لا عزيز إلا الله أنت عبد الرحمن فأسلموا وقال أبو سبرة:

يا رسول الله إن بظهر كفى سلعة (غدة بين الجلد واللحم) قد منعتني من خطام راحلتي ــ فدعا له رسول الله ــ ص ــ بقدح فجعل يضرب به على السلعة ويمسحها فذهبت ــ فدعا له رسول الله ــ ص ــ ولإبنيه وقال له: يا رسول الله أقطعني وادي قومي باليمن وكان يقال له حردان ففعل».

هذا الخبر في شطره الأول يكشف عن مدى الجلافة والجفاوة والأمية والجهالة التي كان عليها اليعاريب أهل جزيرة العرب في تلك الحقبة، فرغم أن محمداً عامل الوافدين بالحسنى وكتب لأحدهما كتاباً أمّره فيه على بلده وما حولها فإنهما أساءا الأدب معه وأقدما على القيام بفعلة تقطع بالخسة والدناءة دفعت محمداً إلى الدعاء عليهما باللعنة.

ما ورد في الخبر من أن جعفى كانت تحرم أكل القلب مرده اعتقاد ديني وكانت ولا زالت عدة عقائد تحظر على تبعها أكل أجزاء معينة من الحيوان وكذا بعض حيوانات بعينها وبالنسبة للنوع الأخير ربما مرده إلى أن هذا الحيوان كان هو طوطم القبيلة. ونظراً لأن محمداً حرص أشد الحرص على أن كل من يدخل الديانة التي بشر بها أن يخلع عنه أية صلة بالعقيدة التي كان يؤمن بها قبل إسلامه فقد أمر الوافدين أن يأكلا القلب بل وأخبرهما أن إسلامهما لن يكتمل إلاّ بذلك.

تثير الجملة التي قال محمد للجعفيين (الوائدة والمؤودة في النار) إشكالية:

إذ كيف تُسأل المؤودة عن جريمة وقعت عليها وهي ضحيتها

خاصة وأنها لم تبلغ سن المسؤولية لأن الوالدين يئدان البنات وهن صغيرات. ما أخبر عنه محمد من أن أمه مع مليكة أم الوافدين في النار لا يرضي الذين يرون العكس وأن الله إكراماً لمحمد قد أحيا له أبويه فأسلما وآمنا بدينه ثم أماتهما ومن ثم فهما من أهل الجنة.

في المقطع الأخير من الخبر:

أ ــ غيّر محمد اسم ابن سبرة من عزيز إلى عبد الرحمن لأن الله وحده هو العزيز ــ وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه أن محمداً دأب على تغيير بعض الأسامي ومنها التي تتنافى مع موجبات الديانة التي دعا إليها.

ب ــ أظهر محمد خبرة طيبة في علاج سلعة أبي سبرة.

ج ــ أقطع محمد أبا سبرة وادي حردان وذلك بصفته حاكماً على الجزيرة حتى اليمن وطلب أبي سبرة ذلك منه يدل على تأكيد تلك السيادة.

٢٦ ــ وفد جهينة

«لما قدم النبي ــ ص ــ المدينة وفد إليه عبد العزى بن زيد الجهني ومعه أخوه لأمه أبو روعة وهو ابن عم له: فقال رسول الله ــ ص ــ لعبد العزى: أنت عبد الله، ولأبي روعة: أنت روعت العدو إن شاء الله وقال من أنتم؟ قالوا بنو غيان قال: أنتم بنو رشدان وكان اسم واديهم غوى فسماه رشداً وقال لجبلي جهينة: الأشعر والأجرد هما من جبال الجنة لا تطؤهما فتنة.

وأعطى اللواء يوم الفتح عبد الله بن بدر وخط لهم مسجدهم وهو أول مسجد خط بالمدينة.. قال عمرو بن جهينة: كان لنا صنم وكنت سادنه فلما سمعت برسول الله ــ ص ــ كسرته وخرجت حتى أقدم المدينة على النبي ــ ص ــ فأسلمت وشهدت شهادة الحق وآمنت بما جاء به من حلال وحرام ثم بعثه رسول الله ــ ص ــ إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه إلاّ رجلاً واحداً، ردّ عليه قوله فدعا عليه عمرو بن مرة فسقط فوه فما كان يقدر على الكلام وعمي واحتاج ــ وعن عمران بن حصين ــ رضي ــ قال: سمعت رسول الله ــ ص ــ يقول: جهينة مني وأنا منهم غضبوا لغضبي ورضوا لرضائي، أغضب لغضبهم ــ من أغضبهم فقد أغضبني ومن أغضبني فقد أغضب الله».

حظي وقد جهينة بحصيلة من تبديل الأسماء إنْ للأشخاص أو العشيرة أو مظاهر الطبيعة.

وشيوع الأسامي الجافية والحوشية والمنفرة من القرائن التي تطرح لإثبات بداوة وجلافة أبناء جزيرة العرب حينذاك فالعلاقة الجدلية

بين اللغة وبين المستوى الحضاري وقسمات البيئة أمر معروف فكما أن الشعوب الراقية تمتاز مفردات لغاتها باللطافة والرقة والنعومة كذلك وبالقدر نفسه تجيء لغة المتبدّين والبعيدين عن الحضارة كلماتها وتعبيراتها خشنة، وعرة، عسرة... الخ.

وقد حاول محمد وهو الإنسان الكامل أن يغير الأسماء الجافية التي يطلقها العُربان على الأفراد أو البطون أو القبائل أو على المظاهر الطبيعية المتعددة إلى أخرى حسينة جميلة، يسيرة قاصداً من وراء ذلك أن يقوم هذا التغيير بدور رافعة تنشلهم من حضيض البداوة الذي يتمرغون فيه.

ولا شك أن بني جهينة عمّهم السرور وغشيهم الفرح وعلتهم الغبطة إثر إبلاغ محمد لهم أن جبليهما من جبال الجنة.

ونال أبناء جهينة شرف انتساب محمد لهم وأن يرضى لرضاهم ويغضب لغضبهم بل إنهم غدوا على قدر من القدساينة لأن من يغضب فرداً منهم فكأنه أغضب محمداً أي أغضب الله. أي أن إغضاب جهني يستتبع بطريق التسلسل غضب الله نفسه وهذه هي القدسانية التي تتقطع إليها أعناق الغالبية العظمى من المسلمين آنذاك بل وحتى الآن.

ونقف ملياً عند العبارة الأخيرة من حديث محمد (من أغضبني فقد أغضب الله) إذ أنها تنفح معطى دقيقاً غاية الدقة يغفل عنه الكثيرون الذين يمرون على هذه العبارات وأمثالها مروراً عجلاً. وقد أكرم محمد الجهنيين إذ خطّ لهم مسجداً في أثرب المدينة يُعدّ أول مسجد خط بها وأشركهم في الفتح الأكبر فتح مكة ـــ وجعل لهم لواءً خاصاً بهم أعطاه لعبد الله بن بدر.

أحد بني جهينة وفد على محمد وأسلم وشهد شهادة الحق

كان سادن صنم، وبذلك فإن الصحاب كانوا تشكيلة[٣٨] أي خليطاً فمنهم: من كان يهودياً ومن كان نصرانياً ومن كان كاهناً ومن كان عرافاً ومن كان راقياً ومن كان سادن صنم (وكلها عُمالات دينية) ولا شك أنّ هؤلاء من العسير أن تنمحي رؤاهم، وتخيلاتهم وتصوراتهم وتوهماتهم التي عاشوا فيها عقوداً من السنوات متطاولة لمجرد نطقهم بشهادة الحق بل إنه حتماً أن تظل مستقرة في أعماق نفوسهم بل تنطلق في ثنايا أفكارهم وتتسلق خطابهم وتتطرق إلى لسانهم الخ. وهذه مسألة في غاية الخفاء يتعين الانتباه إليها ووضعها في الاعتبار عند وزن أقوالهم وتصرفاتهم وسلوكياتهم وممارساتهم ومن السذاجة الفاضحة الادعاء أنه بمجرد إسلامهم أن معارفهم ومعلوماتهم وتجاربهم وعاداتهم وتقاليدهم السابقة قد ذابت وتلاشت واضمحلت خاصة وأن بعضهم دخل ديانة المسلمين على كبر والبعض الآخر لم يمكث مع محمد سوى برهة يسيرة وفي أحيان لا تتعدى شهوراً قليلة بل أياماً فعلى سبيل المثال: جرير بن عبد الله البجلي الذي سبق ذكره أسلم قبل انتقال محمد للرفيق الأعلى راضياً مرضياً بأربعين يوماً وهذه الحقيقة تشرح لنا علة إقدامه على ارتكاب الملحمة الموجعة التي أوقعها بأصحاب (ذي الخلصة) فلو أنه عاش مع محمد ردحاً لاهتدى إلى طريقة أخرى خلاف الإمعان في الذبح والمبالغة في القتل والشطط في سفك الدماء والإيغال في إزهاق الأرواح.

نعود على السادن الذي أسلم: ردّه محمد إلى رهطه ليفشي بين أفراده العقيدة التي علّمه إياها وكانوا على قدر كبير من الفطنة فأسلموا حتى لا يعرضوا أنفسهم ودماءهم وأموالهم وأهلهم لما

---

(٣٨) **الشكّال** في الفرس مثلاً هو بياض في يدها اليمنى وفي ساقها اليسرى أ. هـ.

يكرهون إلا رجلاً واحداً لا مشاحة أنه كان ذا حظ عظيم من الهَبَل (فقد العقل والتمييز) إذ تمسك بدينه السابق وعاند ورفض أن يتزحزح عنه. فما كان من عمرو بن جهينة (السادن السابق) إلا أن استنجد بالسماء لتقتص منه وقد استجابت له وأوقعت به عقوبات صوارم:

أ ــ سقوط الأسنان

ب ــ العجز عن الكلام

ج ــ العمى

د ــ الجوع بعد الاستغناء

وذلك ليصير عبرة لكل من يمتنع عن اعتناق الإسلام.

٢٧ ــ الحارث بن حسان

«عن الحارث بن حسان البكري قال:

خرجت أشكو العلاء الحضرمي إلى رسول الله ــ ص ــ فمررت بالربذة فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها فقالت يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ــ ص ــ حاجة فهل أنت مبلغي إليه؟ فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله وإذا براية سوداء تخفق وبلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ــ ص ــ فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً قال فجلست فدخل منزله فاستأذنت عليه فأذن لي فدخل فسلمت فقال: هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ قلت نعم وكانت الدائرة عليهم ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألني أن أحملها إليك وها هي بالباب فأذن لها فدخلت فقلت: يا رسول الله إن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء فحميت العجوز واستوفزت وقالت: يا رسول الله أن يضطر مضرك؟ قال قلت: إن مثلي ما قال الأول: معزى حملت حتفها، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت خصماً فأعوذ بالله أن أكون كوافد عاد قالت هي: وما وافد عاد؟ وهي أعلم بالحديث مني ولكنها تستطعمه، قلت: إن عاداً فحطوا فبعثوا وافداً لهم فمرّ بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة فقال اللهم إنك تعلم لم أجئ إلى مريض فأداويه ولا إلى أسير فأفاد به اللهم اِسق عاداً ما كنت تستقيه، فمرت به سحابات سود فنودي منها: اِختر فأومأ إلى سحابة سوداء فنودي منها: خذها رماداً رمدداً لا تبق من عاد أحداً ــ قال: فما بلغني أنه أرسل عليهم

من الريح إلا بقدر ما يجري في خاتمي حتى هلكوا ــ قال أبو وائل: وكانت المرأة أو الرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد».

هذا الخبر على الرغم من طوله النسبي فإنه جديب لم يبض إلا ببصرة يتيمة وهي أن مسطورات عاد وثمود وما عوقبوا ــ به من أنواع الهلكة جزاءً وفاقاً لهم على مناوأتهم للرسل/ الأنبياء الذين ظهروا فيهم. وهذه المسطورات شكّلت قطاعاً عريضاً من فولكلور اليعربيين حتى إن عوامهم وعواجيزهم يعرفونها ويرددونها ويتلذذون بسردها.

٢٨ ــ وفد بني الحارث بن كعب

«قال ابن اسحاق ــ رضي ــ إن خالد بن الوليد ــ رضي ــ لما انقاد له بنو الحارث بن كعب بنجران كتب بذلك إلى النبي ــ ص ــ فكتب إليه أن يُقبل ويُقبل معه وفدهم، أقبل معه قيس بن الحصين وآخرون وقال لهم رسول الله ــ ص ــ بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم ــ قال: صدقتم. وأمرّ عليهم قيس بن الحصين فرجعوا إلى قومهم في بقية شوال أو في صدر ذي القعدة فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله ــ ص ــ.

وكان بعث خالداً إليهم في شهر ربيع الآخر أو جمادي الأولى سنة عشر وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا فليقبل منهم وإلا فليقاتلهم فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان في كل وجه يدعوهم إلى الإسلام ويقولون: أيها الناس أسلِموا تَسْلموا فأسلم الناس ودخلوا فيما دُعوا إليه وأقام خالد فيهم يعلمهم الإسلام، وكتب النبي ــ ص ــ كتاباً نسخته:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد سلام عليك فإني أحمد الله إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن كتابك جاءني مع رسولك أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام وشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمداً رسوله وأنْ قد هداهم بهداه فبشّرهم وأنذرهم وأَقْبِل وليُقْبِل معك وفدهم السلام عليك رحمة الله وبركاته».

في هذا الخبر أنّ محمداً بعث خالد بن الوليد ــ وهو قائد عسكري ماهر قيل إنه لم يهزم لا قبل الإسلام ولا بعده ــ إلى بني الحارث بن كعب وموطنهم نجران ــ التي اشتهرت بانتشار النصرانية فيها ــ وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام وأن يمهلهم ثلاثة أيام وإلا فليقاتلهِم فنفذ ابن الوليد أمر محمد ولما وصل إليهم ناداهم (أيها الناس أَسْلِموا تَسْلَمَوا).

حدث ذلك في السنة العاشرة الهجرية وقد دانت الجزيرة لسلطان محمد ورأى وسمع بنو الحارث ما حلّ بالقبائل والعشائر والبطون والأفخاذ التي رفضت وعاندت من ثم فسرعان ما أسلموا وانضووا تحت حكم دولة قريش وبذلك حقنوا دماءهم وعصموا أموالهم وذراريهم.

وحدوث تلك الواقعة قبل وفاة محمد بأربعة أشهر يعني أن مبدأ (الإسلام أو السيف) ظل معمولاً به حتى آخر لحظة. وعبارات الخبر لا تبعث على ذرة من شك في رسوخ هذا المبدأ ومنها (وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً فإن استجابوا فليقبل منهم وإلاّ فليقاتلهم) و(أيها الناس أسلموا تسلموا).

(إن بني الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم وأجابوا)...

وسبق أن أوردنا النصوص الصريحة القاطعة سند هذا المبدأ.

٢٩ ــ وفد الحجاج بن علاط السلمي

«سبب إسلام الحجاج بن علاط أنه خرج في ركب من قومه إلى مكة، فلما جَنّ عليه الليل في واد موحش مخوف، فقال له أصحابه: قم يا أبا كلاب فخذ لنفسك ولأصحابك أماناً فقام الحجاج يطوف حولهم يكلؤهم ويقول: أعيذ نفسي وأعيذ صحبي من كل جنّي بهذا النقب حتى أعود سالماً وركبي، فسمع قائلاً يقول ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ (سورة الرحمن، الآية ٣٣) فلما قدم مكة أخبر بذلك قريشاً فقالوا: صبأت والله يا أبا كلاب.

إن هذا فيما يزعم محمد أنه أنزل عليه. فقال: والله لقد سمعته وسمعه هؤلاء معي فسأل عن النبي ــ ص ــ فقيل له بالمدينة فأتاه فأسلم».

يكشف لنا هذا الخبر عن عُرف أو تقليد درج عليه أولئك العُربان وهو أنهم عندما ينزلون بوادٍ يقولون: إننا نعوذ بكبير هذا الوادي ــ أي أنهم يطلبون حماية زعيم الجن فيه من أن يصيبهم أتباعه من الجن الأصاغر بأي أذى حتى يرتحلوا.

إن مداركهم المحدودة ودرجتهم الحضارية الخفيضة ــ وظلمة الليل ووحشة الصحراء تُخَيّل إليهم وجود كائنات غير منظورة شريرة قاسية تلحق بهم الضرر وأن لها زعيماً أو كبيراً يتعين عليهم اللجوء إليه واللياذ به طالبين منه الأمان والجوار لكي يمنع عنهم أذى مرؤوسيه وكيدهم وشرهم.

لمّا فعل الحجاج بن علاط ذلك جرياً على العرف المستقر والعادة المتبعة، سمع إثر ذلك آية من القرآن استقرت في ذاكرته الحافظة وقلنا قبل ذلك أن ذاكرة هؤلاء الأميين المتبدّين شأنهم في ذلك شأن من على شاكلتهم ــ قوية تجمع (تحفظ) ما يُلقى إليها من أول مرة.

فلما وصل إلى مكة حكى ذلك للقرشيين وردد الآية بحذافيرها كما سمعها فأجابوه بـ (أن هذا فيما يزعم محمد أنه أنزل إليه) فأقسم بالله أنه قد سمعها هو والركب الذين كانوا برفقته.

فلما سأل عن محمد أجابوه أنه بيثرب/ المدينة فسافر إليه وأسلم.

والخبر يدلنا على إيمانهم بوجود قوى غير منظورة كانت تؤازر محمداً وتعاضده في إثبات نبوته/ رسالته فابن علاط السلمي عندما سمع الآية لم ير من جهر بها ولما قدم مكة وقصّ الأُحدوثة على من يعرف من قريش أخبروه أنها مما يتلوه محمد على الناس زاعماً أنه يوحى إليه به، عند ذلك قرر السلمي الإيمان بما يدعوه إليه محمد لأن التوافق بين الأمرين لا بد أنه من فعل السماء.

٣٠ ــ وفد جيشان

«قدم أبو وهب الجيشاني[٣٩] على رسول الله ــ ص ــ في نفر من قومه فسألوه عن أشربة تكون باليمن قال فسمّوا له البتع[٤٠] من العسل والمزر من الشعير فقال رسول الله ــ ص ــ: هل تسكرون منها؟ قالوا: إنْ أكثرنا سَكِرْنا، قال: فحرام قليله ما أسكر كثيره، وسألوه عن الرجل يتخذ الشراب فيسقيه عياله فقال رسول الله ــ ص ــ كل مسكر حرام».

من هذا الخبر يمكننا أن نؤكد أن شرب الخندريس كان متمكناً من نفوس أولئك العُرْبان في الشمال والجنوب وهو أمر طبيعي إذ لم تكن لديهم أنشطة فنية أو أدبية أو رياضية مثل الشعوب المتحضرة فانصرفت همتهم إلى أمرين مفاخذة النسوان ومعاقرة المزرة (الخمرة)..

وهذا الولع البالغ بـ الإسفنط (من أسامي الخمرة)... لدى ذكورهم وإناثهم على السواء (لأن شربها يضاعف من لذة التماس بالطرف الآخر لدى كل) هو السبب وراء تحريم الخمر بالتدريج في القرآن، فلو أن تعاطيها أمر عارض في حياتهم أو مسألة هامشية لجأ التحريم مباشراً وفورياً ولكن لأنه كان متسلطاً عليهم ويُعدّ طقساً يومياً يؤدونه في عدة أوقات من النهار والليل ولا يصبرون عنه

---

(٣٩) **جيشان**: مخلاف باليمن.
(٤٠) **البتع**: نبيذ التمر هو خمر أهل اليمن.

اِقتضت الحكمة ما ورد في القرآن من تريث في النهي وترحّل (من المرحلة) في الحظر وجاء في الخبر (يسقيه عياله) كناية عن الزوجة هو يؤكد ما قلناه من معاقرة القهوة (الخمر) من الطرفين: الذكر وأنثاه حتى تزيد متعة التقائهما ببعض.

٣١ ــ وفد حمير

«كتب رسول الله ــ ص ــ إلى الحارث بن عبد كلال بن غرب وأخيه نعيم وأمر رسول الله ــ ص ــ أن يقرأ عليهما (لم يكن) ووفد عليه الحارث فأسلم فاعتنقه وأفرشه رداءه.

وقال قبل أن يدخل عليه: يدخل عليكم من هذا الفِج رجل كريم الجدين... قدم على رسول الله ــ ص ــ مالك بن مرارة الرهاوي رسول ملوك حمير بكتابهم وإسلامهم وهم: الحارث بن عبد كلال وأخوه نعيم والنعمان قَيْل: ذي رُعَيْن معاف وهمدان وذلك في شهر رمضان سنة تسع مقدم رسول الله ــ ص ــ من تبوك فأمر بلالاً أن يُكرمه ويضيفه وكتب إليهم:

أما بعد ذلكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ــ أما بعد فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم فبلّغ ما أرسلتم به، وخبر عما قبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين فإن الله تبارك وتعالى قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغنم خمس الله وخمس نبيه وصفيّه وما كتب على المؤمنين من الصدقة... وإنها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصدقة... ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرتد عنها وعليه الجزية على كل حاكم أو أنثى حر أو عبد دينا روافٍ... فمن أدّى ذلك إلى رسول الله ــ ص ــ فإن له ذمة الله وذمة رسوله ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله.

أما بعد فإن رسول الله محمداً أرسل إلى زرعة بن ذي يزن أنْ إذا

أتاكم رسلي فأُوصيكم بهم خيراً معاذ بن جبل ــ عبد الله بن زيد ــ مالك بن عبادة ــ عقبة بن نمر ــ مالك بن مرارة وأصحابهم وأنْ أجمعوا عندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم وأبلغوها رسلي وإنّ أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضياً.

أما بعد فإن محمداً يشهد ألا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله، ثم إن مالك بن مرارة الرهاوي قد حدثني أنك أسلمت من أول حِميّر وقتلت المشركين فابشر بخير وآمرك بِحمير خيراً ولا تخونوا ولا تخاذلوا فإن رسول الله ــ ص ــ هو مولى غنيكم وفقيركم وإن الصدقة لا تحل لمحمدٍ ولا لأهل بيته إنما هي زكاة يُزكى بها على الفقراء المسلمين وابن السبيل وإنّ مالكاً قد بلّغ الخبر وحفظ الغيب وآمركم به خيراً وإني قد أرسلت إليكم من صالحي أهلي وأولي دينهم وأولي علمهم وآمركم بهم خيراً فإنهم منظور إليهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

هؤلاء ملوك وأقيال (جمع قَيْل) في جنوب الجزيرة العربية قبل أن يصل وافدهم أخبر محمد صحبه بقدومه ووصفه بعراقة النسب وصباحة الوجه وما إن أقبل وأعلن إسلامه حتى اعتنقه وأفرشه رداءه وهذه قرائن تفصح عن التكريم والتشريف وقرأنا فيما سبق أن من الوفود العادية من كان يسارع إلى تقبيل رجليّ محمد ويديه... ونحن نرى أن من أبرز الشارات التي تدلّ على سعة أفق محمد ونفاذ بصيرته معرفته بأقدار الرجال فهناك من يلقى عليه رداءه ومن يلتزمه ويعتنقه ومن يُفْرِشه رداءه ومن يُجلسه بجواره... ومنهم من يقبّل قدميه ويديه وهذه هي الحِنْكة المطلوب توافرها فيمن يتولى سياسة الناس ورياضة الأفراد وطالما وصّى أصحابه:

(أنزلوا الناس منازلهم).

وبعث ملوك حميّر رسولاً منهم إلى محمد يُعلنون فيه إسلامهم أي اعتناقهم للديانة التي دعا إليها وإذعانهم لبيرق الدولة التي

أسسها وفي هذه الخصوصية أثبتوا حكمتهم اليمانية التي تكلم عنها محمد ونسب أهل اليمن إليها ـ وبذلك عصموا دماءهم ومُلكهم وردّ عليهم محمد بكتاب مماثل أنه تسلم رسالتهم وعلم بدخولهم الإسلام ثم أوضح لهم بعض شرائع الدين وفيها أن من بقي على دينه من اليهود والنصارى فلا يردّ عنها ولكن عليه الجزية بيد أنّ ما لفت النظر في كتابه أمران:

الأول: أنه علم بإسلامهم وقتلهم المشركين والمشركون تعني من رفض اعتناق الإسلام أي أن من يفعل ذلك لهو مشرك لا جزاء له إلا إزهاق روحه.

الثاني: أن من لا يؤدي الفرائض التي بيّنها في مكتوبه: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإعطاء خُمس المغانم والمصفّى والصدقة... ويمتنع عن ذلك فإنه عدو لله ولرسوله... ومن البديهي أن عقوبة من يعادي الله ورسوله هي القتل. وهكذا يتأكد في هذا الخبر مبدأ (الإسلام أو السيف.. ومن يسلم يسلم).

آل ذي يزن من أقيال اليمن الأكابر وعندما يتضمن مكتوب محمد إلى زرعة بن ذي يزن أنه بعث إليهم برسل أميرهم معاذ بن جبل ليتلقوا الصدقات والجزية التي جمعها من مخاليفه[٤١] «فلا يتقبلن إلا راضياً» دليل على مدى سلطان محمد على الجزيرة ونذكّر هنا بما قاله أبو سفيان للعباس بن عبد المطّلب لما هاله ضخامة جيش الفتح وكثرة عدد القبائل المنضوية فيه: يا أبا الفضل لقد غدا مُلك ابن أخيك عظيماً فردّ عليه: إنها النبوة يا أبا حنظلة.

(٤١) **المخلاف:** وحدة إدارية كـ المحافظة أو المديرية.

٣٢ ــ وفد بني حنيفة ومسيلمة الكذاب

«قدم وفد حنيفة فيهم مُسيلمة بن حبيب الكذاب وكان منزلهم في دار امرأة من الأنصار من بني النجار فأتوا بـ مُسيلمة إلى رسول الله ــ ص ــ يستر بالثياب ورسول الله ــ ص ــ جالس مع أصحابه وفي يده عسيب من سعف النخل فلما انتهى إلى رسول الله ــ ص ــ وهم يسترونه بالثياب كلمه وسأله فقال له رسول الله ــ ص ــ سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتكه.

وفد بني حنيفة أتوا رسول الله وخلّفوا مسيلمة في رحالهم فلما أسلموا ذكروا له مكانه فقالوا: يا رسول الله أنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وركابنا يحفظها لنا فأمر رسول الله ــ ص ــ له بمثل ما أمر للقوم وقال: أما إنه ليس بشركم مكاناً ــ يعني حفظه ضَيَعة أصحابه ــ ذلك الذي يريده الرسول ــ ص ــ ثم انصرفوا وجاءوا بالذي أعطاه، فلما قَدِموا اليمامة اِرتدّ عدو الله وتنبأ وقال: إني قد أُشركت في الأمر معه ألم يقلْ لكم حين نعتموني له: أما إنه ليس بشركم مكاناً، وما ذلك إلا لما كان يعلم أني قد أُشركت في الأمر معه. ثم جعل يسجع السجعان فيقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن:

لقد أنعم الله على الحُبلى منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشا.

وأحلّ لهم الخمر والزنا وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ــ ص ــ أنه نبي فأصفقت معه بنو حنيفة على ذلك. كتب لرسول الله ــ ص ــ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: أما بعد فإني قد أُشركت الأمر معك وإن لنا نصف الأمر وليس قريشاً قوماً يعدلون.

فقدم عليه رسول بهذا الكتاب. فكتب إليه رسول الله ــ ص ــ:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: سلام على من اتبع الهدى ــ أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعافية للمتقين».

وكان ذلك في آخر سنة عشر.

عن سلمة بن نعيم بن مسعود عن أبيه قال:

سمعت رسول الله ــ ص ــ حين جاءه رسولا مسيلمة الكذاب بكتابه يقول لهما: وأنتما تقولان بمثل ما يقول؟ قالا نعم قال: أما والله لولا أن الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما.

عن عبد الله بن مسعود قال: جاء ابن النّواحة وابن أثال رسولين لمسيلمة إلى رسول الله ــ ص ــ فقال لهما تشهدان أني رسول الله؟ فقالا نشهد أن مسيلمة رسول الله فقال رسول الله ــ ص ــ آمنت بالله ورسله ولو كنت قاتلاً رسولاً لقتلكما.

لما بعث الله فسمعنا به لحقنا بمسيلمة الكذاب فلحقنا بالنار وكنا نعبد الحجر في الجاهلية... وكنا إذا دخل رجب قلنا: جاء مُنصل الأسنة فلا ندع سهماً فيه حديدة ولا حديدة في رمح إلا نزعناها وألقيناها (عن رجاء العطاردي).

عن ابن عباس ــ رضي ــ: قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ــ ص ــ فجعل يقول: إنْ جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته وقدمها في بشر كثير من قومه فأقبل إليه رسول الله ــ ص ــ ومعه ثابت بن قيس شماس وفي يد النبي ــ ص ــ قطعة حديد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ولن تعدو أثر الله فيك ولئن أدبرت ليقرنك الله ــ والله إني لأراك الذي أُريت فيه ما رأيت وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني.

قال ابن عباس ــ رضي ــ سألت عن قول النبي ــ ص ــ فأخبرني أبو هريرة أنّ رسول الله ــ ص ــ قال بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين

من ذهب فأهمني ذلك فأُوحي إليّ في المنام أنْ أنفخهما فطارا فأوليتهما كذابيْن يخرجان من بعدي أحدهما العنسي صاحب صنعاء والآخر مسيلمة صاحب اليمامة».

ظهر أنبياء كذبة أو متنبئون يناوئون محمداً أو ينافسونه أو يقلدونه ــ منهم الأسود العنسي (في اليمن) ومسيلمة الكذاب (في بني حنيفة باليمامة) وطليحة بن خويلد (في بني أسد) وسجاح بنت الحارث (في بني تميم).

بيد أن أشهرهم على الإطلاق هو مسيلمة (متنبئ بني حنيفة) فهو الذي هدد دولة قريش في مفتتح خلافة ابن أبي قحافة تهديداً منكراً ولولا مهارة خالد بن الوليد لكانت في الأمور أمور فلقد قاوم مسيلمة ومعه بنو حنيفة مقاومة ضارية شرسة جيوش الدولة القرشية وبدون الاستراتيجية البارعة التي خططها ابن الوليد المخزومي لما انتصر المسلمون عليهم في معركة بالقرب من عقرباء في حديقة الموت بيد أنه نصر مكلف غاية التكلفة إذ ضحّى فيها عدد جسيم من خيار الصحابة والتابعين وخاصة حفظة القرآن (القراء) بأرواحهم.

ولا يفوتنا أن نذكر أن اليمامة من أخصب البقاع في الجزيرة وكانت تمد الحجاز بما تحتاجه من حنطة ولعل حماسة دفاع الحنفيين عن بلدهم ولّدته أو بعثته أو وقفت وراءه دوافع وطنية ــ وهناك ملحظ بالغ الأهمية وهو أن ثورات الرّدة التي بدأت منذ مرض محمد (مرض الموت) ثم في فجر عهد أبي بكر اِنفجرت إما في مواقع زراعية خصيبة (اليمن ــ الأسود العنسي) و(اليمامة ــ مسيلمة) أو بين قبائل حاشدة عريقة (بني أسد/ طليحة بن خويلد) (بني تميم/ سجاح بنت الحارث).

وهناك ثورات ارتدادية تظفر بالتوصيف عينه وإن لم يقبّ فيها أنبياء كذبة: (بنو عامر ــ هوازن ــ بنو سليم وكندة) وهذه ينطبق عليها وصف القبائل المعروفة الكبيرة وأخرى في أماكن مُتأثِّلة كـ حضرموت والبحرين وعمان ونحن لا نؤرخ لهذه الثورات الوطنية إنما الذي لا شك فيه أن تناولها من قبل المؤرخين العرب/ المسلمين جاء أحادي الجانب إذ اقتصر على الجانب العقيدي وأغفل المحرك الأول للتاريخ على طوله وهو العامل الاقتصادي، إذن هي (الثورات) تفتقر حتى الآن إلى دراسة موضوعية شاملة تلم بسائر أقطارها العصبية القبلية/ الاقتصادية/ الاجتماعية/ السياسية (مثل محاولة استعادة الملك الذاهب لدى كِنْدة وأقيال اليمن ورؤوس البحرين وعمان).

مُسيلمة محور هذا الخبر شخصية محيّرة ومرد الحيرة تضارب الأخبار التي وردت بشأنه في المصادر التراثية ولعل التضارب الذي ورد في هذا الخبر الذي نبصره حالياً يعطينا دليلاً صارخاً حول تضارب النصوص في كثير من الأحيان ونؤوب إلى مُسيلمة فهناك من يقول إنه أعلن نبوته الكاذبة قبل أن يصدع محمد بدعوته منهم المستشرق مرجليوت صاحب الدراسات الرصينة الذي طرح أسانيد ليست هينة ولا هشة ولا متخاذلة لتأييد هذا الرأي فمما سجلته دواوين السيرة أن من بين السفالات التي كان يوجهها صناديد قريش إلى محمد أنه يستقي معارفه من رحمان اليمامة وهو أحد ألقاب مسيلمة ومنه يمكن أن نستخلص وجوده كنبي كذوب أو متنبئ قبل أن يبشّر محمد بدعوته ويجهر بها وأن المكاكوة (أهل مكة) كانوا يعرفون ما يذيعه ولذا نسبوا إليه المبادئ أو الآراء التي فاجأهم بها محمد فيما بعد.

وقد ورد بالخبر أن الكذاب طلب من محمد أن يشركه في الأمر أو يجعله من بعده ولا تأويل لهذا الملتمس سوى أنه ينظر إلى نفسه أنه الأسبق ـ وإذا قارناه بمتنبئ آخر سبق ذكره وهو طليحة بن خويلد الذي ضمّه وفد بني أسد نجد أنه في ذياك الوقت لم يكن يدّعي النبوية بل دخل دين الإسلام مع قومه وهذا يشي أن تنبؤ مسيلمة كان سابقاً وليس لاحقاً مثل بقية الأنبياء الكذبة: طلحة والعنسي وسجاح... ومن الجوانب اللافتة للنظر في شخصية هذا الكذوب سيطرته الكاملة على بني حنيفة وقيادته لهم ومقاتلتهم بشراسة تحت رايته لجيوش أبي بكر.

وأيضاً قدرته على طيّ متنبئة بني تميم سجاج بنت الحارث تحت جناحيه وتشكيل جبهة معادية قوية ضمّت بني حنيفة وبني تميم ودعك. من أبيات الشعر الإباحية المكشوفة التي حملتها بعض الكتب التراثية ونسبتها إلى مسيلمة يغري بها سجاج على الزواج منه فهي والأسجاع الهزلية التي نُسبت إليه والتي قيل إنه ضاهى بها القرآن... فهي من الإضافات المتأخرة لتشويه صورته إذ لا يعقل أن من يسيطر على قبيلتين كبيرتين ويدفع أفرادهما إلى بذل تلك التضحيات الجسام ويكبد أعداءه تلك الخسارات الفوادح، أن يكون بتلك الصورة المزرية وعندما ندرك أنه ما من متنبئ حظي بمثل ما حظي به مسيلمة من تشهير وتحقير وسخرية وهزء من جانب الإخباريين والمؤرخين وأصحاب السيّر فلا تعليل لذلك إلا أنه رد فعل لتلك المقاومة العنيدة وضرب من الأخذ بالثأر للمئات الذين أُهرقت دماؤهم من جرائها.

تضمّن خبر وفد بني حنيفة ـ موضوع هذه البصيرة ـ فيما يتعلق بـ مُسيلمة الكذوب عدة وقائع متضاربة:

أ ــ **الرواية الأولى:** أن بني حنيفة أوْ وفدهم أتوا به إلى محمد وهم يسترونه بالثياب مما يقطع بأن له مكانة غير اعتيادية لديهم وهذا مما يضاف إلى أدلة الثبوت على سبق تنبوئه الأكذب. وقد وصل إلى محمد وهو بين صحبه وفي يده عسيب من سعف النخل وسعف النخل في الديانات السامية الإبراهيمية وخاصة المسيحية يرمز إلى السلام وفي يوم أو عيد الشعانين وهو قبل عيد الفُصح يخرج المسيحيون فيه بصلبانهم وسعف النخيل في أيديهم علامة على الخير والسلام بيد أن مُسيلمة الكذاب لم يفهم دلالة حَمْل محمد لسعفة نخيل رغم تأثره بالمسيحية كما سنذكر فيما بعد أو لعل ثقته في قومه بني حنيفة التي تبدّت في المقاومة التي ألمعنا إليها هي التي دفعته إلى غض البصر عن دلالة حمل السعفة من قبل محمد ــ ومضى في تبجحه بسؤاله إما إشراكه في الأمر أو في أن يخلفه فيه وكان من البديهي ــ أن يرفض محمد إجابته لما سأله إياه لأن محمداً يؤمن إيماناً عميقاً أن الدولة هي دولة قريش (الأئمة من قريش) ولم يكن الكذوب هو أول من سأله ذلك بل طرحه عليه أكثر من واحد من أولئك العُربان وكان يُجابه بالرد ذاته لأن قريشية الدولة أمر لا سوْم فيه فهي المشروع الذي بدأه الجد الأعلى قصيّ بن كلاب واستمر أولاده وأحفاده في السعي لإكماله حتى حققه حفيده محمد وكانت الديانة إحدى المداميك في البناء الوليد(٤٢).

---

(٤٢) لمزيد من التفاصيل أنظر كتابنا **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية**، وقد طبعته ونشرته دار سينا مرتين وشاركت في الطبعة الثانية دار الانتشار العربي البيروتية.

ب ــ **الرواية الأخرى:** هي أن وفد بني حنيفة عندما قدموا على محمد خلّفوا في رحالهم مسيلمة فأجازهم مثلما كان يجيز الوفود بما في ذلك الكذوب وقال (أما أنه ليس بشركم مكاناً). ونحن نشك في هذه الرواية لأن العُرف استقر لدى أولئك اليعربيين أن يخلّفوا في رحالهم الأحداث أو الضعاف أو قليلي الشأن ونظرة الحنفيين لمسيلمة أبداً لم تكن كذلك.

وتأويل عبارة محمد من قبل الكذوب غير صحيح بالمرة بيد أن العبارة التي فاه بها تكشف عن اعتقاده الجازم بموضوعه أو مكانته وبسبقه في إظهار نبوأته الكاذبة وهذا يوثق ما ذهبنا إليه وأنه لم يكن كغيره من المتنبئين الزيوف الذين أعلنوا تنبأهم الكذوب إثر علمهم بمرض محمد أو في مفتتح ولاية أبي بكر.

وأورد الخبر مثلاً من الأسجاع الهزلية التي نُسبت إلى الكاذب وسبق أن أوضحنا رأينا فيها. وكذلك الادعاء بأنه أحلّ الخمر والزنا وفي مصادر أخرى خفّض الصلوات الخمس وما إليها. لأن ما قرأناه عن سيرة مسيلمة يشي بتأثره بالمسيحية وأنه يحدّث عن مملكة السماء وأنه فم لها ومن كان هذا حاله من الصعب قبول القول في حقه بإباحة هذه الشرور والآثام.

ج ــ **والرواية الثالثة:** أن وفد بني حنيفة لم يضمه إنما أرسل الكذوب إلى محمد كتاباً حمله إليه رجلان من تبعه. وفي الكتاب ذكر صريح أن له نصف الأمر استناداً إلى قدم إعلانه لتنبوئه المزيّف ــ ولفظة والأمر تعني الحكم

(بالمعنى الحديث) ــ ولقد فهم هو المشروع القرشي وما يرمي إليه من الهيمنة على مقدرات الجزيرة كلها ومن وجهة نظره أن ذلك ليس عدلاً ربما لأنه كان يرى أن قبيلته (قبيلة بني حنيفة) ليست أقل شأناً من قريش ومن ثم فإنه ومعه بنو حنيفة من حقهم أن يحكموا نصف الجزيرة ومحمد والقرشيون لهم النصف الآخر... وبهذا بلغ الكذوب ذروة البجاحة وما يتسنى وطبائع الأمور أن يرفض محمد ذلك العرض (الطلب). ولما كان يمتاز به (محمد) من خلق عظيم وسماحة فإن رده على الكذاب أهدانا مثلاً رفيعاً في الأدب ونموذجاً فاذّاً في الكياسة وإذا وضعنا في اعتبارنا أنّ ذلك حدث في آخر سنة عشرة هجرية والجزيرة آنذاك في قبضة يده (محمد) أي أنه كان في قمة سلطانه تضاعف إعجابنا بسمو نفسه وسعة أفقه ورجاحة عقله ولو قارنا هذا الموقف الرائع باندفاع ابن أبي قحافة وتسرعه في قتال (مانعي الصدقة/ الزكاة) التي كلّفت الطرفين غالياً وعدم جنوحه إلى الملانية والمسايسة والملاطفة معهم ــ لأدركنا أن محمداً كان عبقرياً وعديم المثال. كذلك راعى محمد العرف المتبع لدى جميع الأمم فلم يقتل الرسولين اللذين حملا إليه رسالة الكذوب رغم أنهما يستحقانه بموجب النصوص التي ذكرناها فيما سلف إذ جحدا نبوته/ رسالته وشهدا بها لمسيلمة.

وتنبؤ مسيلمة الكاذب أي ادعاؤه زوراً وبهتاناً بأنه نبي وكان ذلك في وقت سابق على ظهور محمد يؤيد ما ذهبنا إليه في كتابنا (قريش) من أن كافة ظروف الجزيرة

العربية: العقيدية/ الاجتماعية/ الاقتصادية/ اللغوية كانت تحتم ظهور نبي من العرب وأن ذلك الهاجس سيطر على الكافة. وبالمثل حثت تلك الظروف ذاتها وبنفس القوة على التوحيد في شتى المجالات: التوحيد في العقيدة، التوحيد في اللغة، التوحيد السياسي.

د ــ **والرواية الرابعة:** نقلها إلينا حبر الأمة وترجمان القرآن وابن عم محمد: عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وملخصها أن مُسيلمة قدم على محمد ومعه بشر كثير من قومه (بني حنيفة) فأقبل عليهم محمد ومعه خطيبه المتخصص في الرد على خطباء الوفود والذي يعبر عن وجهة نظر محمد وبعبارة الإعلام الحديث (المتحدث الرسمي) واشترط مسيلمة لكي يتبعه أن يجعل له الأمر من بعده، وكان من الطبيعي أن يرفض محمد هذا الطلب لما فيه من عنجهية وكبرياء لا يليقان بأن يُخاطب بهما سيد الجزيرة ولم يسبق له أن تقبل إيمان قبيلة أو عشيرة مهما كانت مكانتها بشروط بل إن دخول الإسلام والإذعان لسلطة دولة قريش يتمان دون أي قيد أو شرط هذا من ناحية ــ ومن ناحية أخرى وهي الأهم أن الأمر (الحكم) لقريش وحدها دون غيرها وهذا ما سعى إليه الأجداد والآباء منذ قصيّ.

ونلاحظ أن محمداً في هذه المرة حمل في يده قطعة حديد والحديد بنص القرآن (فيه بأس شديد) أي أن الجواب على الأكذب هذه المرة هو استعمال القوة ــ بخلاف المرة السابقة فقد كان بيد محمد عسيب النخل وسعفه رمز السلام ــ ولكن لماذا تغير المحمول؟

هناك سببان:

أولهما: أن محمداً يئس من الكذوب وأيقن أن الملاينة والمداراة والمسايسة.. الخ كلها لم تعد تجدي معه نفعاً.

آخرهما: أنه رأى في المنام ــ وكما تخبرنا النصوص ــ أن رؤيا الأنبياء حق ــ إن أمر مسيلمة هيّن لا يستحق سوى نفخة واحدة ثم يتبدد ــ ودلالة الرؤيا واضحة أنه لن يزول إلا باستعمال القوة الهينة الخفيفة. بيد أن هذا الشطر من الخبر يثير بدوره إشكالية موجزها أن شأن كذاب بني حنيفة وقومه لم يكن يسيراً ولا ضعيفاً بل على العكس كان عسيراً واعراً كلّف المسلمين كثيراً ودفعوا فيه ثمناً غالياً ــ ثم نعود إلى سياقة الخبر وهي أن حمل محمد لقطعة من الحديد لم يأت اعتباطاً كما أن حمله في المرة الأولى سعفة نخلة ليس من باب المصادفة ــ ذلك أنه من الخطل الفادح النظر إلى تصرفات محمد وهيأته نظرة سطحية مجانية بل يلزم أن نتفرّس وندقق النظر فيها ونحللها ونتفهم مغزاها وندرك مرماها ونفقه معناها لأن محمداً لم يكن شخصاً عادياً ومن ثم فهو وسائر إخوته الذين سبقوه في إعلامهم الكافة أنهم أنبياء الله ورسله يتحين قراءة أحوالهم جميعاً قبل أقوالهم من هذه الزاوية، فهم في كل قول وفعل وتصرف ومسلك لا ينفك عنهم أبداً شعورهم بالتميز عن سائر الأفراد إيمانهم بعلاقتهم بالسماء التي تعطيهم أفضلية وتقدمهم على الناس وهم لا يقبلون في هذه الخصوصية نقاشاً أو جدالاً أو حواراً إنهم يعدونها خارج نطاق المماحكة أو المساومة أو المحاورة أو حتى التقييم إنها لديهم حقيقة لا تضاهيها حقيقة رسوخ الجبال ومن هنا رأينا محمداً في أوقات الحروجة والشدة والضيق والعنت يصيح (أنا النبي لا أكذب) ــ إنما ليس معنى ذلك أنهم لم يعودوا

بشراً مثل سائر الناس كلاّ إنهم بشر ومخلوقون وأناس مثل غيرهم في الخَلْق بيد أن رابطتهم بالملأ الأعلى هي التي تفاصل بينهم وبين الجميع بلا استثناء ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾ (سورة فصلت، الآية ٦) فعجز الآية وهو الذي يقطع بمجيء الوحي إليهم هو الذي يميزهم عن الكافة ومدلوله وأن كل ما يصدر عنهم ليس من قبلهم إنه أمر لمن السماء إليهم حتى رؤاهم التي يرونها في منامهم فهي جزء من نبوتهم بهذا اعتقدوا اعتقاداً جازماً وآمنوا إيماناً عميقاً لا تشوبه أدنى شائبة وبه أيضاً صرحوا وخاطبوا تبعهم ــ نخلص من جِماع ذلك إلى ضرورة شدّ الانتباه إلى كل ما يصدر عنهم فعلاً وقولاً وهيأة. وترتيباً عليه فإن محمداً عندما أمسك في مرة سعفة نخيل وفي أخرى قطعة حديد فتعين علينا أخذ ذلك في الاعتبار ومن الخفة والغفلة المرور عليهما مروراً عابراً أو أن ذلك من باب المصادفة أو أنه تصرف بلا معنى، خاصة وأن سعفة النخيل والحديدة لكل منهما دالتها الواضحة سواء بالفعل أو بالنص في التراث الديني السامي.

بعد ذلك أبلغ محمد مسيلمة أن خطيبه قيس هو الذي سيتولى الإجابة نيابة عنه عما يبغي ــ وللأسف فإن الخبر لم يتضمن أقوال المتحدث الرسمي أو قيس بن ثابت رغم أننا في خبر وفد أعاريب بني تميم الغلاظ قرأنا خطبة قيس بن ثابت التي صكّ بها أولئك الجفاة الأجلاف.

٣٣ ــ وفد خثعم

«وفد عثقت بن زحر وأنس بن مدرك في رجال من خثعم إلى رسول الله ــ ص ــ بعدما هدم جرير بن عبد الله البجلي «ذا الخلصة» وقتل من قتل من خثعم فقالوا: آمنا بالله والرسول. وما جاء به من عند الله. فاكتب لنا كتاباً نتبع ما فيه. وكتب رسول الله ــ ص ــ لخثعم:

«هذا كتاب من محمد رسول الله من حاضر بيشة وباديتها، كل دم أصبتموه في الجاهلية فهو عنكم موضوع ومن أسلم منكم طوعاً أو كرهاً في يده حرث... تسقيه السماء أو يرويه اللثى فزكا عمارة في غير أزمة ولا حطمة فله نشره وأكله... شهد جرير بن عبد الله ومن حضر».

خثعم امتازت بوضاءة نسائها إحداهن تعاقب عليها (في الزواج) أربعة من مشاهير الصحابة بينهم أخوان من بني هاشم والمرأة التي جاءت تسأل محمداً في حجة الوداع والتي أدارت رأس ابن عمه الفضل بن العباس حتى طفق يبصبص لها ومحمد يثني عنقه إلى الناحية الأخرى كانت أيضاً خثعمية وعرف رجالها بثباتهم على دينهم وتمسكهم بمعبودهم السابق (ذي الخلصة) بصورة لم تصدر من غيرهم بيد أن ذلك كلفهم خسائر فوادح وسددوا فاتورة الحساب الباهظة التي كبّدهم إياها الصحابي ــ حديث الإسلام ــ جرير بن عبد الله البجلي الذي أوقع فيهم مذبحة من أفظع المذابح التي شهدتها جزيرة العرب على طول التاريخ الإسلامي ــ وكان من البديهي بعد كل تلك الأفاعيل (نسف ذي

الخلصة ــ هدم الكعبة اليمانية ــ الملحمة الشنيعة) التي تمت على يدي البجلي المبرورتين... أن يدخلوا دين الإسلام ويسلموا لمحمد ودولته القرشية بالغلبة والسيادة فأرسلوا وفداً منهم رافعاً الراية البيضاء ومعلناً الخضوع الكامل والإذعان المطلق والتوبة النصوح التي لا رجعة فيها لأنهم أدركوا أن الرجعة فيها تعني عودة جرير إليهم مرة أخرى وما أدراك ما جرير وما يؤكد ذلك هو الملحظ الشديد الدقة والبالغ الخفاء الذي ورد بكتاب محمد وهو أنه على رأس الشاهدين عليه هو قائد المقتلة الذريعة جرير بن عبد الله.

وفي الخطاب توضيح للحدود التي عليهم أن يتحركوا خلالها دون مجاوزة أو تعدٍ. كما انضوى الكتاب على عبارة تعطي مدلولاً مباشراً وهي (ومن أسلم منكم طوعاً أو كرهاً) أي أن الإسلام كما يكون عن رضى وطواعية واختيار يجيء بطريق القهر والقسر والإكراه فهذه الجملة واضحة لا لبس فيها وهي تَجْبَه كل شكس عنيد بل كل منكر والعياذ بالله للنصوص ــ التي تؤكد ذلك مثل:

آية السيف وغيرها من الآيات وأحاديث محمد الصحيحة والمتفق عليها والمتواترة... الخ.

وجحد هذه الحقيقة أمر غير مفهوم من قبل الجاحدين. إنهم يقيسون النصوص بالظروف الراهنة وينسون أو يتناسون الزمن التاريخي الذي انبثقت فيه وطقّت[٤٣] إبانه والذي كان القسْر العقيدي فيه شأن لا غبار عليه ولا تريث عليه والإسلام ليس بدعاً فيه فاليهودية أقرت المنهج بل وطبقته بشراسة على أيدي يوشع ربيب موسى وتلميذه الأثير وحوارييه. أما في المسيحية فالطامة أكبر

(٤٣) في المعجم الوسيط، **طقّ** أي سمع له صوت.

والوقعة أوعر ــ على خلاف ما يظن الكثيرون ــ فهذا المبدأ معترف به كيف لا وهي ديانة سامية لحماً ودماً وفي أمريكا (الولايات المتحدة الأميركية) الآن جماعات أصولية مسيحية مثل: (جماعة معيدي البناء وحركة لاهوت السيادة الإلهية أو التسيد الإلهي وجماعات بوسطن وشيكاغو وحركة المدارس المسيحية وخدمات كالفن (جنيف) وأنجيلي العروض التلفزيونية وغيرها) تؤمن به وبلزومية نشر المسيحية بحد السيف وإكراه غير المسيحيين على اعتناقها بالقوة بمن فيهم اليهود والمسلمون والبوذيون والذين لا يؤمنون بدين وهم في ذلك مثل جماعات العنف الإسلامية التي خرجت من كم معطف أبي الأعلى المودودي والتي انفجرت في مصر منذ السبعينات[٤٤].

(٤٤) لمزيد من التفاصيل عليك بكتاب **الأصولية الإسلامية: تحديد عقدي للمشكلات والأفكار والمداخل**، تأليف د. صادق جلال العظم، ترجمة د. عاطف أحمد، الطبعة الأولى ١٩٩٧، الناشر مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان.

٣٤ ــ وفد خولان

«قدم وفد خولان وهم عشرة نفر في شعبان سنة عشر فقالوا: يا رسول الله نحن مؤمنون بالله ومصدقون برسوله ونحن على ما وراءنا من قومنا، وقد ضربنا إليك آباط الإبل وركبنا حزون الأرض وسهولها والمنة لله ولرسوله علينا وقدمنا زائرين لك، فقال رسول الله ــ ص ــ: أما ما ذكرتم من سيركم إلي فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة، وأما قولكم زائرين لك فإنه من زارني بالمدينة كان في جواري يوم القيامة، فقالوا: يا رسول الله هذا السفر لا تَوّى عليه[٤٥]. ثم قال رسول الله ــ ص ــ: ما فعل عم أنس؟ وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه. قالوا: بشرّ وعرّ، أبدلنا الله به ما جئت به ولو قد رجعنا إليه لهدمناه وبقيت منا بعد بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به ولو قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله تعالى فقد كنا في غرور وفتنة فقال لهم رسول الله ــ ص ــ «وما أعظم ما رأيتم من فتنة؟ قالوا: لقد رأيتنا قد أسنتنا حتى أكلنا الرمة، فجمعنا ما قدرنا عليه وابتعنا مائة ثور ونحرناها لعم أنس قرباناً في غداة واحدة وتركناها تردها السباع ونحن أحوج إليها من السباع، فجاءنا الغيث من ساعتنا ولقد رأينا العشب يواري الرجل فيقول قائلنا أنعم علينا عم أنس ذكروا لرسول الله ــ ص ــ ما كانوا يقسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءاً لله بزعمهم. قالوا: كنا نزرع الزرع فنجعل له وسطه فنسميه له ونسمي زرعاً آخر حجرة لله،

---

(٤٥) توّى المال: هلك.

فإذا مالت الريح فالذي سميناه لله جعلناه لعم أنس جعلناه لله فذكر لهم رسول الله ــ ص ــ أن الله أنزل عليه ذلك الآية ١٣٦ من سورة الأنعام قالوا: وكنا نتحاكم إليه فنُكَلَّم. فقال رسول الله ــ ص ــ تلك الشياطين تكلمكم. قالوا: إنا أصبحنا يا رسول الله وقلوبنا تعرف أنه كان لا يضر ولا ينفع ولا يدري من عبده ممن لم يعبده.

فقال رسول الله ــ ص ــ: الحمد لله الذي هداكم وأكرمكم بمحمد ــ ص ــ سألوه عن أشياء من أمر دينهم فجعل يخبرهم بها وأمر من يعلمهم القرآن والسنن وأمرهم بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة وحسن الجوار ألا يظلموا أحداً ــ قال: رسول الله ــ ص ــ الظلم ظلمات يوم القيامة وأنزلوا دار رملة بنت الحرث (بن ثعلب الأنصارية النجارية وتكنى أم ثابت وأمها كبشة بنت ثابت بن النعمان وزوجها معاذ بن الحارث بن رفاعة وهي ممن بايع الرسول من الأنصار) وأمر بضيافة فأجريت عليهم ثم جاءوا بعد أيام يودعونه، فأمر لهم بجوائز إثنتي عشرة أوقية ونشأ.

رجعوا إلى قومهم فلم يحلّوا عقدة حتى هدموا عم أنس وحرموا ما حرّم عليهم رسول الله ــ ص ــ وأحلوا ما أحل.

خبر وفد خولان انطوى على معلومات في منتهى الثمانة تهم علماء الأنتربولوجيا الدينية على وجه الخصوص بيد أنه مما يؤسف له أن أساتذة هذا العلم العرب لا يقتربون من كتب التراث (الديني) وينظرون إليها في تعال وترفّع ويعتبرونها (كتباً صفراء)، لا يليق بهم أن يلتفتوا إليها.

الخبر يكشف لنا جانباً من الطقوس التي كان يمارسها عرب الجزيرة فيما قبل الإسلام والقرابين والضحايا التي كانوا يقدمونها لآلهتهم سواء في وقت الشدة أو عند ظهور تباشير الزرع ــ فعند انقطاع المطر واستطالة الجدب كانوا يقدمون ضحايا حيوانية ومن المعروف أن الضحايا الحيوانية هي التالية في التاريخ للضحايا

البشرية... ويلاحظ أن هذه القرابين (الحيوانية) التي كانوا يقدمونها كانت محرّمة عليهم مهما كانت حاجاتهم إليها أو اِضطرارهم إلى تناولها ولعل هذا الطقس أو الشعيرة استمر بعد ذلك.

وفي حالات أخرى حصل تطور وهو تحريم جزء من القربان على صاحبه... وتقديم القرابين الحيوانية طقس مستقر سليماً من كل عيب بريئاً من أي شائبة لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً **(لا تذبح للرب إلهك ثوراً أو شاة فيه عيب شيء ما رديء لأن ذلك رجس لدى الرب إلهك)**[٤٦]. وفيما بعد شدّد محمد على أن تكون الضحية سواء تلك التي يقدمها الحاج أو يذبحها غير الحاج صحيحة سوية ليس فيها ما يعاب. وقد جعلت التوراة لـ الكهنة اللاويين جزءاً من القربان الذي يتقرب به اليهودي إلى إلهه وهي: الساعد والكرش والفكّان[٤٧] وكان محمد يحب من الخروف: الذراع (الساعد). وعن بشائر الزروع فقد ظهّرها إله إسرائيل لصالح الكهنة اللاويين (تعطيه أول حنطتك وخمرك وزيتك وأول جزاز غنمك لأن الرب إلهك قد اختاره من جميع أسباطك لكي يقف يخدم باسم الرب هو وبنوه كل الأيام)[٤٨]. وإذ أن في الإسلام لا يوجد كهنة أو خدّام الرب فإن ثلث الضحية يهدى للجيران والأصدقاء والأقرباء.

واختصاص إله إسرائيل بالقربان الحيواني وإحالة القربان النباتي لخدامه وكهنته مرجعه أنه إله رَعَوي (نسبة إلى الرعاة وهم بنو إسرائيل) ولذا فهو إلف للحيوانات يتقبلها راضياً مسروراً أما القربان

---

(٤٦) **سفر التثنية**، الإصحاح السابع عشر.
(٤٧) السفر نفسه، الإصحاح الثامن عشر.
(٤٨) السفر نفسه والإصحاح ذاته.

النباتي فهو خِلْف له وترتيباً عليه فهو يعرض عنه ويهديه إلى من يقومون بخدمته ــ والإسلام خال من القرابين النباتية وهذا أمر بديهي فقد انبثق في (وادٍ غير ذي زرع) وفاقد الشيء لا يعطيه وقلنا قبل ذلك كثيراً إن النصوص دائماً تحمل بصمات البيئة التي تظهر فيه ولما كانت بيئة الإسلام بدوية رعوية فإن الضحايا والقرابين التي تقدم هي السائدة فيها وهي الحيوانات: الإبل/ الأغنام/ الأبقار، بيد أن محمداً علّم تبعه أن يرددوا دعوات عند بدوّ الثمار حمداً لله ودعاءً له بأن يمنحها البركة واستمرار النماء والعطاء وهو طقس معروف في أغلب الديانات والعقائد، لكن محمداً لم يأمر أتباعه بتقديم قرابين نباتية وكيف يفرض ذلك عليهم وأرضهم جدباء قرعاء ماحلة. وعند انقطاع المطر واستطالة الجدب لا يقدم في الإسلام قرابين إنما هناك صلاة تقام تسمى صلاة الاستسقاء لها طقوس خاصة منها أن يحوّل من يؤمهم للصلاة رداءه ــ إشارة لطلب تحول الجدب إلى حب وغيث ــ وكان عرب ما قبل الإسلام يقيمون عند امتناع المطر احتفالية دينية مشابهة لهذه الصلاة. كذلك شرح الخبر ما كانوا يقومون به من طقوس عند ظهور (بشائر) الزروع وكيف أنهم كان يقدمون جزءاً لله وآخر لصنمهم[٤٩] وكيف أن هذه القسمة تتغير بفعل الريح (فإذا مالت الريح فالذي سميناه لله جعلناه لعم أنس وإذا مالت الريح فما سميناه لعم أنس جعلناه لله) ــ فأخبرهم محمد أن القرآن تحدث عن هذا الأمر[٥٠]. وعندما ذكروا لمحمد أنهم كانوا يتحاكمون إلى صنمهم (عم أنس) وأنهم كانوا يسمعون كلاماً أخبرهم أن

(٤٩) صنمهم يسمى عم أنس. وكانوا يعتبرون الأصنام وسيلة تقربهم إلى الله زلفى.
(٥٠) **القرآن الكريم**، سورة آل عمران، الآية ١٣٦.

الشياطين هي التي تكلمهم لا عم أنس حتى ينزع من نفوسهم أدنى ذرة من إيمان بقدرة ذلك الصنم على القضاء بينهم ثم محادثتهم بما يسفر عنه قضاؤه وكان عرب ما قبل الإسلام يؤمنون بوجود الجن والشياطين وينسبون إليها كثيراً من الأفاعيل وأن لكل كاهن من كهانهم تابعاً من الجن يسترق السمع من أخبار السماء الدنيا ويخبره بها فعندما يبلغهم بها الكاهن يعتقدون أنه يعلم الغيب وقد تحدث القرآن عن مسألة استراق السمع بمعرفة الجن.

جاء وفد خولان في العام العاشر الهجري بعد أن خضعت الجزيرة العربية لسلطان دولة قريش واعتنقت الديانة الإسلامية وتأخرها حتى ذلك العام دليل على أنها كانت تتربص وتنتظر لمن تكون الصولة: لمحمد أم لصناديد مكة؟ فلما رأت بعينها فلج محمد وظفره جاءت منقادة والذي لا شك فيه أن محمداً بفطانته الشديدة أدرك ذلك بيد أنه يتغاضى عنه ويتقبل من القبيلة ووافدها إسلامهم وتسليمهم دون ملامة أو عتاب.

وأعلنوا براءتهم من معبودهم وآمنوا بالله رباً وبمحمد نبياً ورسولاً وأنهم أيقنوا أن صنمهم ذلك لا يضر ولا ينفع بل لا يدري من يعبده ومن لا يعبده. ولتأكيد إيمانهم بالدين الجديد طلبوا من محمد أن يعلمهم شرائعه فوكل بهم من يقوم بذلك ـــ مع وعظهم وإرشادهم وأمرهم بمكارم الأخلاق. واستضافهم وأجرى عليهم حقوق الضيافة وأجازهم كما كان يفعل مع سائر الوفود.

وعند عودتهم لمضارب قبيلتهم كان أول شيء فعلوه هو هدم صنمهم عم أنس ليثبتوا لمحمد صدق دخولهم الديانة التي بشر بها وأنهم غدوا جنوداً أوفياء لدولة قريش إذ أنهم يعلمون تماماً أن عين محمد لن تفارقهم وأنّ الصنم دليل لا يقبل الشك على كذب

ادعائهم الإيمان بالإسلام وجزاء ذلك معروف لديهم.

وأمدنا خبر هذا الوفد بمعلومة هامة عن رملة بنت الحارث التي ذكرنا من قبل أن دارها كانت هي ما يسمى في العرف الحديث بـ (دار الضيافة الرسمية). وهي أنها من بني النجار وهم أخوال محمد... كما أنها من المبايعات السابقات وهذه درجة دينية رفيعة تعطى من يحظى بها مقاماً محموداً وبذلك جمعت بين مزيتين: قرابة محمد والسبق في المبايعة أي احتياز رتبة سامية وهذه أمور لها وزنها في مجتمع يلعب فيه الدين دوراً ملحوظاً ــ هذا بالإضافة إلى سعة دارها وصلاحيتها لاستقبال الوافدين. ومن ناحية أخرى فإن اختيار دارها لذلك قد وثّق مكانتها في مجتمع أثرب/ المدينة. وهو في الأساس مجتمع عربي يولي هذه الاعتبارات أهمية خاصة. للتدليل على ذلك نذكّر بما طلبه العباس بن عبد المطلب من ابن أخيه محمد عند فتح مكة أن يجعل لأبي سفيان مكرمة تكون مبعث فخر له لدى أهل مكة:

«قال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له ما يفخر به... قال: من دخل الكعبة فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن».

وبالمثل فإن اتخاذ دار رملة بنت الحارث داراً رسمية للضيافة من المآثر والمناقب التي لا شك أنها كانت تفخر بها هي ورهطها.

٣٥ ــ وفد الداريين

«قدم وفد الدارين على رسول الله ــ ص ــ مُنصرفه عن تبوك وهم عشرة نفر منهم تميم ونعيم ابنا أوس... فأسلموا وسمّى رسول الله الطيب بن دز عبد الله وسمى عزيز بن مالك عبد الرحمن.

وأهدى هانئ بن حبيب لرسول الله ــ ص ــ أفراساً وقباءً مخوصاً بالذهب فقبل الأفراس، أما القباء فأعطاه العباس بن عبد المطلب فقال: ما أصنع به؟ قال: انتزع الذهب فتحليه نساءك ثم تبيع الديباج فتأخذ ثمنه فباعه ليهودي بثمانية آلاف درهم.

وقال تميم: لنا جيرة من الروم لهم قريتان يقال لإحداهما حبرى والأخرى بيت عينون فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لي قال: فهما لك فلما قام أبو بكر أعطاه ذلك وكتب له به كتاباً».

وفي ابن هشام:

«وكتب رسول الله ــ ص ــ لنعيم بن أوس أخي تميم الداري أن له حبرى وعينون بالشام قريتهما كلها سهلها وجبلها وماءها وحرثها وأنباطها وبقرها، ولعقبه من بعده لا يحاقه فيها أحد ولا يلجه عليها بظلم ومن ظلمهم وأخذ منهم شيئاً فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

وأقام وفد الداريين حتى توفي رسول الله ــ ص ــ وأوصى لهم بـ جاد (يعني المجدود) مائة وسق من خيبر.

عندما قابل وفد الداريين أبدل اِسمي رجلين منهما وسبق لنا شرح ذلك ــ وكان محمد يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ولذا قبل

ما أهداه إليه هانئ بن حبيب ولما كان يحرّم لبس الذهب على رجال أمته فقد أهدى القباء إلى عمه العباس وأرشده إلى ما يعمله بشأنه وقد علل محمد تحريم الذهب على الرجال إلى أن من يلبسه في الدنيا يحرم عليه لبسه في الآخرة التي هي أبقى وأخلد وأنه علامة على الترف والله لا يحب المترفين؛ وقد حاول بعض المُحَدِثين ممن يحمّلون النصوص فوق طاقتها إرجاع التحريم المذكور إلى تأثير الذهب في المعاملات الاقتصادية وأن الإسلام سبق غيره من كبار الاقتصاديين في التعرف على قيمة الذهب ومكانته ودوره المؤثر في الاقتصاد.

وواضح أن هذا غير صحيح فعندما انبثق هذا النص في القرن السابع الميلادي لم يكن لهذه الأفكار وجود حتى تتحدث عنها النصوص أو حتى تومئ إليها هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، لو كان هذا الطرح صحيحاً لشمل التحريم الرجال والنساء بل خَصّ الأخيرات لأنه من المعروف أن النسوان يتحلين بأضعاف ما يتحلى به الرجل ونضرب هذا مثلاً لِمَا يُقدم عليه عدد من البحاث المحدثين من المماحكة ومحاولة إرجاع كل نظرية جديدة سواء في العلوم الإنسانية أو العلوم التجريبية إلى النصوص وأن هذه سبقت على اكتشافها ولو كان الأمر كذلك فلماذا ينتظرون حتى تُعلن النظرية وبعبارة أوضح لماذا لم يقوموا هم بكشف النظرية العلمية بعد أن أكدوا أن النصوص قد انضوت عليها بل أشارت إليها؟ فضلاً عن أن النظريات العلمية دائمة التغير والتطور في حين أن (النصوص) ثابتة وأزلية أبدية لا تتغير أو تتبدل فإضافة النظريات إليها يخالف طبيعتها كما أنه يسيء إليها إذا ثبت خطأ النظرية.

تميم الداري صحابي غير عادي فقد كان نصرانياً قرأ أسفار

اليهود والأناجيل وعلم ما جاء فيها وهو الذي حدّث محمداً بـ خبر الجسّاسة وقصة الدجال وهما من الأخبار المُعجبة. وتحدث تميم لمحمد وإخباره بحكايتهما يأخذه علماء الحديث دليلاً على جواز رواية الكبار عن الصغار.

(روى الشعبي عن فاطمة بنت قيس أنها سمعت النبي ــ ص ــ يذكر الدجال في خطبته وقال فيها: حدثني تميم الداري وذكر خبر الجسّاسة وقصة الدجال)[٥١]. والذي يفعل ذلك أي يخبر محمداً بتلك القصص ثم يقوم محمد بإخبار أصحابه وتبعه بها دليل على سعة علمه وأنه كان يحيط خُبراً بالمسطورات الواردة بـ التوراة والأناجيل وكم في هذين الكتابين المقدسين من مسطورات.

ونظراً لسعة علمه بذلك الإسطير فقد سمح له الخليفة الثاني بـ (القص) في المسجد الأقصى وهذا القص هو أحد منابع ما يُعرف بالإسرائيليات في كتب تفسير القرآن.

ويُفهم من سياقة الخبر أن موطنه فلسطين قرب حبرى وبيت عينون وهما قريتان من أعمال القدس ولهذا سأل محمداً أن يهبه إياهما (إن فَتَحَ الله عليك الشام) ووافقه محمد وكتب له كتاباً بأن من حقه أن يمتلكهما بالكامل أي بجميع ما فيهما من: سهل وجبل وماء وحرث وبقر. ولعقبه من بعده ــ وليس ذلك فحسب بل ملكيته تشمل أنباطها... ونخرج من هذه الواقعة أن الإسلام يجيز الإقطاع بُقرى بأكملها بما عليها حتى الأفراد ومن ثم فيباح لولي الأمر خليفة كان أو أميراً أو سلطاناً ذلك لأن ما يعمله محمد سُنَّة يقتدي بها المسلمون.

(٥١) **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ابن عبد البر، حرف التاء.

تميم كما قلنا إذن في المفتتح طراز فريد من الصحابة فقد سبق له اعتناق المسيحية وقرأ كتب اليهود والمسيحيين وحدّث محمداً بحديث فيه حكايتان مدهشتان (الجسّاسَة ــ الأعور الدجال) وأنه كان يسكن فلسطين ببيت المقدس أو قريباً منها ويقطعه محمد قريتين بما عليهما من زرع وحيوان وبشر وهو أول من ابتدع القصّ في المساجد جرثومة (أصل) الإسرائيليات المنتشرة في عدد من أمهات كتب التفسير ــ بيد أن الذي يتوج شخصية تميم بعلامة استفهام كبرى بالإضافة إلى جماع ما تقدم هو أنه أسلم في السنة التاسعة الهجرية أي قبل وفاة محمد بسنة وبضعة أشهر.

وإقطاع محمد هاتين القريتين اللتين تقعان بفلسطين (الشام) إيماءة واضحة الدلالة تضاف إلى المعنى الكامن وراء غزاة تبوك، موجهتان (= الدلالة والمعنى) إلى خلفائه بضرورة الانسياج: خارج حدود جزيرة العرب لأن فيه تحقيقاً لتوسيع رقعة الإسلام ومدّاً لسلطان دولة قريش.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن رأى بثاقب نظره ضرورة شغل القبائل ــ التي إستطاع بعبقريته الفذة توحيدها ــ لكي لا تناوش قريشاً وتظل مصدر قلاقل وفتن خاصة وأنه يعرف صحبه جيداً فليس منهم من يدانيه في شخصيته الآسرة (الكارزمية) التي نعدها من أهم أسباب تأليف القبائل.

وأدرك أيضاً أنه إذا ظلت القبائل على حالها دون شيء يشغلها عادت سيرتها.. الأولى في الإغارة على بعضها البعض والسلب والنهب.. الخ وهو العرف الذي إستغرق في دخائل نفوس أفرادها مئات الأعوام والذي يرجع أساساً لجدب الجزيرة وجفافها وفقرها بعكس البلدان المجاورة التي تنعم بالخصب والغنى والوفرة بيد أنها

حاربت بعضها البعض فضعفت وتداعت مع ما يضربها من فساد الحكم (الروم) واختلاف واحتراب أبناء الأسرة الحاكمة (فارس) مما كان يحتم تهاويها من أول ضربة وذاك ما حدث بالفعل وهكذا أثبت محمد بُعد نظر وسعة أفق وحنكة وسياسة نادرة المثال.

٣٦ ــ وفد دوس

«قَدِم على رسول الله ــ ص ــ أربعمائة من دوس فقال رسول الله ــ ص ــ: مرحباً أحسن الناس وجوهاً وأطيبهم أفواهاً وأعظمهم أمانة. كان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدّث أنه قدم مكة ورسول الله ــ ص ــ بها فمشى إليه رجال من قريش وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، فقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا فرّق جماعتنا وشتت أمرنا وإنما قوله كالسحر يفرّق بين المرء وابنه وبين المرء وأخيه وبين الرجل وزوجته وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمع منه ــ قال فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه حتى حشوت في أذنيّ حين غدوت إلى المسجد كُرسفاً فرقاً أن يبلغني شيء من قوله.

قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ــ ص ــ قائم يصلي عند الكعبة فقمت قريباً منه فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله فسمعت كلاماً حسيناً فقلت في نفسي واثكل أماه والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقوله فإن كان ما يقول حسناً قبلت وإن كان قبيحاً تركت فمكث حتى أنصرف إلى بيته... دخلت عليه... فقلت يا محمد.. أعرض عليّ أمرك فعرض علي الإسلام وتلا عليّ القرآن.. فأسلمت وشهدت شهادة الحق وقلت: يا نبي الله إني اِمرؤ مطاع في قومي فادع الله أن يجعل لي آية تكون عوناً لي عليهم فيما ادعوهم إليه فقال: اللهم اجعلْ له آيةً. فخرجت إلى قومي حتى إذا كانت بثينة تطلعني على الحاضر وقع نور بين عينيّ مثل الصباح فقلت: اللهم في غير وجهي

إني أخشى أن يظنوا أنها مُثْلَة وقعت في وجهي لفراق دينهم فتحوّل فوقع في رأسي سوطي كالقنديل المُعلّق... أتاني أبي وكان شيخاً كبيراً فقلت: إليك عني فلست منك ولست مني قال ولِمَ قلت فرق الإسلام بيني وبينك فقد أسلمت وتابعت دين محمد ــ ص ــ قال: ديني دينك فقلت اِذهب وأغتسل وطهّر ثيابك حتى أعلمك ما عملت ففعل فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

ثم أتتني صاحبتي فقلت لها ما قلت لأبي... فعرضت عليها الإسلام فأسلمَت.

ثم دعوت دوساً فأبطأوا عليّ فأتيت رسول الله ــ ص ــ فقلت: يا نبي الله غلبني على دوس الزنا فأْدع الله عليهم. فقال: اللهم اهد دوساً ــ اِرجع إلى قومك فادعهم إلى الله وأرفق بهم فرجعت وفعلت ذلك ثم قدمت على رسول الله ــ ص ــ بخيبر فنزلت المدينة بسبعين أو ثمانين منهم ثم لحقنا برسول الله ــ ص ــ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين. فلما قبض رسول الله ــ ص ــ وارتدت العرب خرج الطفيل مع المسلمين حتى فرغوا من طليحة ثم سار معهم إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو فقال لأصحابه:

إني قد رأيت رؤيا فاعبروها إليّ، رأيت رأسي قد حلق وأنه خرج من ضمني طائر وأن امرأة لقيتني فأدخلتني في فرجها ورأيت اِبني يطلبني حثيثاً ثم رأيته حُبس عني. قالوا خيراً رأيت، قال قد أولتها: أما حلق رأسي فوضعي وأما الطائر الذي خرج من ضمنه فروحي وأما المرأة فالأرض وأما طلب اِبني إياي وحبسه عني فإني أراه سيجهد لأن يصيبه من الشهادة ما أصابني فقُتل الطفيل شهيداً في اليمامة وقُتل اِبنه شهيداً عام اليرموك في زمن عمر ــ رضي ــ علّق محمد على صدور الدوسيين وساماً رفيعاً إذ وصفهم بالوسامة وصدق القول وأداء الأمانة... ولعل ضخامة عدد وافدهم أثلجت صدره وأثبتت له أنهم على تلك الشاكلة».

ما قصّه الطفيل عن إسلامه يمنحنا عدة معطيات ثمينة:

أ ــ رأي المكاكوة (أهل مكة) فيما يدعو إليه محمد ونعتهم إياه بأنه سحر يفرّق بين الرجل وابنه أو أبيه وزوجه يتفق مع مستواهم المعرفي الذي يضم الإيمان بـ السحر والحسد والعين وما إليها من الأمور الغيبية اللامرئية وبها يفسّرون الأمور التي تتجاوز مداركهم (مثل دعوة محمد). وهذا دأب المجتمعات ذات الدرجة المهزولة من التحضر والثقافة والتي تعشش فيها الأميّة فالإخباريون نقلوا إلينا أنه عند ظهور محمد لم يكن في مكة سوى سبعة عشر رجلاً يكتبون ويقرأون بل ونحن على مشارف القرن الواحد بعد العشرين نجد أن شعوب البلاد المتخلفة مثل (دول العالم الثالث) لا زالت تؤمن بهذه الأمور (= السحر والحسد والعين..) وتنسب إليها ما يعتري أفرادها من أمراض وإصابات وخسائر... الخ ولعل هذا يرجع إلى الجِذر التاريخي للسحر إذ كما هو معلوم كان السحر والدين مختلطين وكانت عُمالة الكاهن والساحر من الصعب التفرقة بينهما ويزاولها شخص وهذا ما ذكره لنا علماء الأنتربولوجيا عن الشعوب البدائية اِنْ في أفريقيا السوداء أو في أحراش آسيا. فلما ارتفعت مدارك البشر اِنفصل الدين عن السحر واستقل بنفسه ولكن الرواسب القديمة للسحر ما فتئت باقية في النفوس من أثر النشأة الأولى. فلو أن المكيين كانوا على غير حالتهم المتبدية لفقهوا أن ما يدعو إليه محمد منقطع الصلة بالسحر. وهذا التفسير من قبلهم يعطينا مؤشراً نقيس به حالة هؤلاء الناس الحضارية الثقافية ومستواهم المعرفي في القرن السابع الميلادي وهو (= التفسير) يؤكد ما نذهب إليه من

ضرورة الالتفات إلى مجتمع الجزيرة عامة ومجتمع الحجاز خاصة في ذياك الوقت حتى نستطيع أن نُقيّم كثيراً من الأمور ولقد لاحظنا ومعنا الكثير من الباحثين أن عدم الانتباه إلى هذه الحقيقة الجوهرية يوقع في كثير الخلط وعديد من الخطأ، خاصة في مجال تفسير النصوص التي خاطبت أفراد هذا المجتمع.

ب ــ في هذا الخبر تأكيد لما سبق أن قلناه إن الشعراء في ذلك الزمن السحيق كانوا يمثلون الفئة المثقفة (الأنتلجنسيا) فقد جاء على لسان الراوي أن الطفيل رجل شاعر لبيب ثم ورد الوصف ذاته على لسان الطفيل نفسه الذي عرّف اللبيب بقوله: لا يخفى عليه الحسن من القبيح ــ وأصل الكلمة من اللُب أي القلب: قلب الجوز ما هو بداخله فاللبيب هو الذي يفطن إلى قلب الأمر وجوفه ولا تغره القشرة ــ وبمقياس ذاك الوقت يعدّ هذا الأمر الثقافة وكان للشعراء تأثير على مجتمعهم لما لهم من زكانة وبصر بالأمور وللدور الخطير الذي كانت تقوم به أشعارهم في مجتمعهم نستطيع أن نشبههم بوسائط الإعلام (الميديا) في أيامنا هذه ــ ومن هذا المنطلق فإن محمداً كقائدٍ محنك ورئيس دولة يقظ لم تكن عيناه لتغفلان عن الشعراء سواء الذين يناصرونه أو الذين يناصبونه العداء: فقد تغاضى عن جبن حسان بن ثابت ولم يطلب منه الاشتراك في أي غزوة أو سرية أو بعث لأنه يعلمه رعديداً[٥٢] بل كان يدنيه ويقرّبه ويدعو الله أن يؤيده

(٥٢) يقول العامة في مصر: يخاف من خياله.

بروح القدس لأنه كان ينافح عنه وعن الإسلام وعن دولة قريش بشعره ولما جاءه كعب بن زهير تائباً منيباً ومدحه بقصيدته المشهورة ألقى إليه بردته... آية على الرضى والتكريم ومن الضفة الأخرى أي بالنسبة إلى المناوئين والمعاندين والمشاكسين الذين يذكرونه ودينه ودولته بما يكره قال: «من لي بكعب بن الأشرف» وسمع نفر من الأنصار هذه العبارة الموجزة فشمّروا عن سواعدهم واغتالوا كعباً جزاءً وفاقاً على طول لسانه في حق محمد[٥٣].

ج ــ أنّ على من يدخل دين الإسلام وأبواه وزوجته على دين آخر أن يفاصلهما ويفارقهما ما لم يفعلا مثله أي يعتنقا دينه وهذا ما صنعه الطفيل، لم يقل: ادعهم وشأنهم، لهم دينهم ولي ديني أو هم أحرار في البقاء على ملّتهم وأن حرية العقيدة حق إنساني وأنه لا إكراه في الدين ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وهذا نموذج نهديه لمن لا زال في قلبه أو وجدانه أو عقله ذرة من شك فيما أكدناه أن المبادئ والنظريات دائماً تفارق التطبيق العملي وأن هذا ديدن أصحاب العقائد والأيديولوجيات كافة بمن فيهم صحب محمد لأنهم بشر... فضلاً عن أن (النصوص) أشبه بـ المثل العليا التي يتعذر ويتعسّر حتى على تلامذة الرسل/ الأنبياء وحوارييهم وصحابتهم أن يموضعوها على أرض الواقع.

طلب الطفيل من محمد أن يدعو الله أن يجعل له آية تساعده

(٥٣) البخاري ٣/ ١٨٦ ــ سنن، البيهقي ٧/ ٤٠، ٩/ ٨١، كنز العمال ٢٩٨٦٨.

على إقناع دوس (قومه) بدخول الديانة التي حملها إليهم ففعل محمد وهو هنا يقوم بدوره كنبي/ رسول واستجابت السماء. وطلب الدوسيّ مفهوم لأن أولئك المتبدّين لا يجدي معهم المنطق أو الإقناع العقلي بل تبهرهم الخوارق والأعاجيب بيد أن موضع (مكان) الآية لم يرق في نظر الطفيل فطلب من السماء نسخه إلى موضع آخر ومرة أخرى تفضلت السماء واستجابت فنقلت النسور من جبهته إلى رأس سوطه. ومع ذلك لم تجد هذه (الكرامة)[٥٤] نفعاً لأنه فيما يبدو أن الدواوسة كانت أمخاخهم أصلب من حجر الجرانيت.

لم يأمر محمد الطفيل باستعمال القوة مع قومه إذا لم يستجيبوا له كما حدث مع سائر القبائل والعشائر... بل قال له (أرفق بهم). وتفسير ذلك وأضح وهو أن الطفيل أفهم محمداً في بدّي الأمر أنه (امرؤ مطاع في قومه) هذا من ناحية ومن أخرى أن الطفيل كان بمفرده ومن ثم فلا قبل له بقتال قومه وإذا فعل فالنتيجة معروفة سلفاً ولعل محمداً تذّكر ما حدث لـ عروة بن مسعود مع الثقفيين ــ إنما لو كان مع الطفيل جمع لأمرهم بقتالهم حتى يسلموا حسبما جاء في النصوص التي ذكرناها آنفاً. أما التعليل الذي طرحه الطفيل لعدم قبول قومه الإسلام وهو حبهم للزنا فهو تعليل فطير لأنه من غير المعقول أن الدواوسة على بكرة أبيهم زُناة، كما أنّ هناك قبائل كان الزنا فيها فاشياً ومع ذلك اعتنقت الإسلام.

في المجتمعات البدائية والمتبدّية تلعب الرؤى والأحلام دوراً بارزاً في حياة أفرادها فهي تارة تحدد لهم موقع البئر الذي منه يستقون وأخرى تكشف للخليفة أمير المؤمنين أنّ الرجل الذي اختاره لتولي

(٥٤) من المستقر عليه أن المعجزات للأنبياء/ الرسل والكرامات لأولياء الله الصالحين.

وظيفة عامة لا يصلح لها. ويطلعنا الخبر أن الطفيل رأى رؤية مأساوية أوّلها باستشهاده ومن بعده ابنه دفاعاً عن الديانة الإسلامية والدولة القرشية...

وكان من البديهي أنْ تصدق رؤياه وتأويله إياها فيستشهد هو في اليمامة ومن بعده ابنه في اليرموك، وعركة اليمامة وكما ذكرنا كانت ضد مسيلمة وبني حنيفة الذين كبّدوا دولة قريش خسائر فوادح.

مثل سائر القبائل التي تباطأت في الانضواء تحت راية محمد أخذت دوس تراجع حساباتها وكان نجم محمد يعلو يوماً بعد يوم وفي السنة السابعة كانت شارات نصره ــ قد ارتفعت فقد غزا يهود خيبر ووادي القُرى وعقد الصلح مع يهود فدك وتيماء فأدرك الدواوسة أن الأمر لا يحتمل التريث فندبوا سبعين منهم للوفادة على محمد برئاسة الطفيل ونلاحظ أن الرقم من مضاعفات السبعة المقدسة في الديانات الساميّة ولما جاء نصر الله المؤزر وفتحه المبين قدم منهم أربعمائة يعلنون إسلامهم وتسليمهم الأمر لدولة قريش ونزولاً على شمائله الرفيعة فقد تغاضى محمد عن تأخرهم وقابلهم بترحاب ومودة بل أغدق عليهم صفات حسينة.

٣٧ ــ وافد فرد ذناب بن الحارث

«عن عبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفي قال: لما سمعوا بخروج النبي ــ ص ــ وثب ذناب رجل من بني أنس الله بن سعد العشيرة إلى صنم كان لسعد العشيرة يقال له فراض فحطمّه ثم وفد إلى النبي ــ ص ــ وقال: تبعت رسول الله إذ جاء بالهدى وخلفت فراضاً بدار هوان ومنها: ولما رأيت الله أظهر دينه أجبت رسول الله حين دعاني وكان عبد الله بن ذناب الأنسي مع علي بن أبي طالب ــ رضي ــ بصِفيّن فكان له غناء.

كان لـ فراض سادن من سعد العشيرة يقال له ابن رقيبة أو وقشة وكان لهذا السادن رئيّ من الجن يخبره بما يكون فأتى ذناباً، وقال: يا ذناب اِسمع العُجب العجاب بُعث محمد بالكتاب يدعو بمكة فلا يُجاب. فقال ذناب ما هذا؟ فقال السادن: لا أدري كذا قيل لي».

هذا وافد فرد من بني سعد العشيرة جاء إلى محمد بعد أن رأى ظهور الدين (لما رأيت الله أظهر دينه) هي عبارة واضحة لا تحتاج إلى كشف أو شرح ولم يكن ذناب وحده الذي فعل ذلك بل كان هذا دأب العديد من القبائل والبطون والأفخاذ: ظهور الدين ولمعان نجم محمد وارتفاع رايات دولة قريش كلها حوافز للوفود على محمد وإعلان الإسلام والتسليم.

المقطع الأخير من خبر ذناب يطالعنا على معتقد هام من معتقدات أولئك العُربان وهو أن لسادن الصنم رئّى (تابع) من الجن

يأتي له بأخبار الغيب من طريق استراق السمع من السماء الأولى فيخبر السادن بها (وأحياناً الكاهن) أفراد أبرشيته فيعتقدون أنه يعلم الغيب وعلى صلة بالسماء ــ وكان لسعد العشيرة صنم يدعى فراض وسادنه يسمى ابن رقيبة أو ابن وقشة أخبر دناباً أنّ رئّيه أو تابعه من الجن أخبره أن محمداً بُعث بالكتاب بمكة ولكنه لا يدري تفسير ذلك ــ والذي لا شك فيه أن هذا من قبيل الوضع من بعض كُتّاب السيرة لأن محمداً في غنى عن هذه الأساطير لإثبات دعوته.

٣٨ ــ وفد زبيد

«لما كانت السنة التي توفي فيها رسول الله ــ ص ــ رأت زبيد قبائل اليمن تقدُم على رسول الله ــ ص ــ مقرين بالإسلام مصدقين به، يرجع راجعهم إلى بلادهم وهم على ما هم عليه.

وكان رسول الله ــ ص ــ استعمل خالد بن سعيد بن العاص على صدقاتهم وأرسله مع فروة بن مسيك فقال لخالد: والله لقد دخلنا فيما دخل فيه الناس وصدّقنا بمحمد ــ ص ــ وخلينا بينك وبين صدقات أموالنا وكنا لك عوناً على من خالفك من قومنا.

قال خالد: قد فعلتم، قالوا: فأوفدنا نفراً يقدمون على رسول الله ــ ص ــ ويخبرونه بإسلامنا ويقبسونا منه خيراً، قال خالد: ما أحسن ما عدتم إليه وأنا أجيبكم ولم يمنعني أن أقول لكم هذا إلا أني رأيت وفود العرب تمر بكم فلا يحملنكم ذلك على الخروج حتى ساء ظني فيكم وكنتم على ما كنتم عليه من حداثة عهدكم بالشوك فحسبت أن يكون الإسلام راسخاً في قلوبكم».

زبيد قبيلة كبيرة من قبائل اليمن أعلنوا إسلامهم وهم في موطنهم وأعطوا صدقات أموالهم للمصدّق الذي أرسله محمد إليهم وهو خالد بن سعيد بن العاص بيد أنهم لم يرسلوا وفداً منهم لأثرب/ المدينة كما فعلت القبائل الأخرى ــ ومرجع ذلك ثقتهم المفرطة في أنفسهم ومنزلتهم وأنهم ليسوا كغيرهم ونظراً لأنهم يمنيون وشهد محمد لليمانية بالحكمة فقد رأوا أنه ليس من سداد الرأي ولا بُعد النظر التسرع في إعلان الولاء لمحمدٍ وظلّوا يتربصون

لعل أموراً تحدث في آخر لحظة تقلب الصورة رأساً على عقب ولكنها أيقنت مؤخراً أن الفَلَج النهائي غدا من قسم محمد وأن الجزيرة كلها أصبحت تحت قدميه وأذعن أهلها له (رأت زبيد قبائل اليمن تُقبل على رسول الله ــ ص ــ... رأيت وفود العرب تمر بكم).. وهكذا كانت استجابة القبائل تتفاوت فبعضها يسرع والآخر يتباطأ، إنما التراخي يسير طرداً مع وزن القبيلة وقدرها ــ ولما كانت زبيد قبيلة عريقة كبيرة فإن وافديها لم يُقدموا على محمد إلا في السنة التي قُبض فيها ومن ثم فهي تعتبر من أكثر القبائل تباطؤاً في إرسال وفدها ومن الأسف أن الخبر لم يكشف لنا عن كيفية لقاء محمد لهم.

٣٩ ــ وفد بني سعد هذيم

«محمد بن عمر الأسلمي عن ابن النعمان عن أبيه قال:

قدمت على رسول الله ــ ص ــ في نفر من قومي، وقد أوطأ رسول الله البلاد غلبة ــ وأداخَ العرب والناس صنفان إما داخل في الإسلام راغب فيه، وإما خائف من السيف، فنزلنا ناحية من المدينة ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا إلى بابه فنجد رسول الله ــ ص ــ يصلي على جنازة في المسجد فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس في صلاتهم حتى نلقى رسول الله ــ ص ــ ونبايعه ثم انصرف ــ ص ــ فنظر إلينا فدعا بنا فقال (من أنتم؟) قلنا من بني سعد هذيم فقال: أمسلمون أنتم؟ قلنا نعم، قال: فهلاّ صليتم على أخيكم؟ قلنا: يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك فقال ــ ص ــ أنتم أسلمتم فأنتم مسلمون ــ فأسلمنا وبايعنا رسول الله ــ ص ــ بأيدينا على الإسلام ثم انصرفنا إلى رحالنا فقلنا يا رسول الله إنه أصغرنا وإنه خادمنا فقال أصغر القوم خادمهم بارك الله عليه فكان والله خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء رسول الله ــ ص ــ ثم أمّره رسول الله ــ ص ــ فكان يؤمنا. ولما أردنا الانصراف أمر بلالاً فأجازنا بأواقي من فضة لكل رجل منا. فرجعنا إلى قومنا».

هذا خبر بالغة الثمانة ثقيل القيمة لأنه تحدث بصراحة تامة عن الوضع في ذلك الوقت بما لا يدع مجالاً للتخمين والحدس ويضع سداً منيعاً غاية المناعة أمام المماحكة واللف والدوران والتلاعب بالألفاظ (وقد أوطأ رسول الله البلاد غلبة وأداخ العرب والناس صنفان:

إما داخل في الإسلام وإما خائف من السيف.

هذا النص قاطع وصريح الدلالة على أن جزيرة العرب وما حوته من قبائل دَوّخهم محمد وغلبهم ووطئ بلادهم فأذعنوا ودخلوا الدين الذي بشّر بهم واصطفوا تحت بيرق دولة قبيلته قريش بعضهم رغباً والآخر رهباً ــ شطرهم الأول عن إقناع ورضى وشطرهم الآخر خوفاً من حد السيف.

وجاء بنو سعد هذيم مؤرخاً بعد زوال كل شك في أن محمداً غدا سيد الجزيرة لا ينازعه منازع.

٤٠ ــ وفد بني سلامان

كان مقدمهم في شوال سنة عشرة، عن حبيب بن عمر السلاماني:

«قدمنا وفد سلامان على رسول الله ــ ص ــ ونحن سبعة فصادفناه خارجاً من المسجد إلى جنازة دُعي إليها، فقلنا السلام عليك يا رسول الله، فقال: وعليكم من أنتم؟ فقلنا نحن من سلامان قدمنا إليك لنبايعك على الإسلام ونحن على من وراءنا من قومنا. فالتفت إلى ثوبان فقال: أنزل هؤلاء حيث ينزل الوفد ــ فلما صلى الظهر جلس بين المنبر فتقدمنا إليه فسألناه عن أشياء من أمر الصلاة وشرائع الإسلام وعن الرُقى وأسلمنا وأعطى كل رجل خمس أواقي ورجعنا إلى بلادنا في شوال سنة ١٠.

وروى أبو نعيم: أن وفد سلامان قدموا في شوال عشر فقال لهم رسول الله ــ ص ــ: كيف البلاد عندكم؟ قالوا مجدبة فادع الله أن يسقينا في موطننا ــ فقال: اللهم اِسقهم الغيث في دارهم فقالوا: يا نبي الله اِرفع يديك فإنه أكثر وأطيب فتبسم ورفع يديه حتى يُرى بياض إبطيه.

ثم رجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد أمطرت في اليوم الذي دعا فيه رسول الله ــ ص ــ في تلك الساعة بنو سلامان وفدوا متأخرين أي أنهم أتوا خاشعين بعد أن أيقنوا بنصر محمد ودولة قريش ــ والقبائل التي فعلت ذلك كثيرة مما يقطع بأن هؤلاء العَرَبة لا يفهمون إلا لغة القوة ولا يسيرهم إلا السوط ولا يرهبهم إلا السيف... وعدد الوفد سبعة وقد تحدثنا عن قداسة هذا العدد في الديانات السامية.

وإذ أن النبوة في نظرهم ترتبط بالمعجزات والخوارق فقد سألوا محمداً أن يدعو الله ليمطرهم لأن أرضهم جديبة فوافق فلما عادوا إلى بلادهم وجدوا أن الغيث نزل في الساعة ذاتها وفي اليوم نفسه الذي دعا لهم فيه محمد. ومحمد عندما قام بذلك باشر مهمته كنبي وقد بادر ولبّى الطلب لأنه يعلم أن هؤلاء الناس لهم تصور خاص عن النبوة وهو تصور اختلط في أذهانهم بـ الكهانة ــ هذا بالنسبة للقبائل التي لم تحتك باليهود والمسيحيين (النصارى حسبما يجيء في الكتب التراثية) أما التي تماست بهما أو تلك التي انتشرت فيها هاتان الديانتان أو إحداهما فلا مشاحة أنها سمعت عن معجزات أنبياء بني إسرائيل وعن المسيح وما تم على يديه من خوارق العادات نخلص إلى أنه من الطبيعي أن يطلب بنو سلامان من محمد أن يبتهل إلى السماء لتُحيي لهم أرضهم النشفة الماحلة».

٤١ ــ وفد بني سليم

«قدم على رسول الله ــ ص ــ رجل من بني سليم يقال له قيس بن نسيبة فسمع كلامه وسأله عن أشياء ووعى ذلك كله فدعاه رسول الله ــ ص ــ إلى الإسلام فأسلم ورجع إلى قومه بني سليم فقال سمعت برجمة (غلظ الكلام) الروم وهينمة فارس وأشعار العرب وكهانة الكهان وكلام مَقَاول حِمّيْر فما يشبه كلام محمد شيئاً من كلامهم فأطيعوني وخذوا نصيبكم منه فلما كان عام الفتح خرجت بنو سُليمٍ إلى رسول الله ــ ص ــ فلقوه بـ قديد وهم سبعمائة ويقال كانوا ألفاً منهم العباس بن مرداس فأسلموا وقالوا أجعلنا في مقدمتك واجعل لواءنا أحمر وشعارنا مقدماً ففعل ذلك بهم فشهدوا معه الفتح والطائف وحنيناً.

وأعطى رسول الله ــ ص ــ راشد بن عبد ربه رهاطاً (قرية جامعة على ثلاثة أمثال من مكة) وكان سادناً فكسر الصنم وأتى الرسول ــ ص ــ فقال له: ما اسمك؟ قال: غاوي بن عبد العزى قال: أنت راشد بن عبد ربه فأسلم وحسن إسلامه وشهد الفتح معه.

قال رسول الله ــ ص ــ: خير قرى عربية خيبر وخير بني سليم راشد وعقد له على قومه.

وفد رجل من بني سليم على النبي ــ ص ــ بالمدينة فأسلم وعاهده أن يأتيه بألف من قومه على الخيل ثم أتى قومه فأخبرهم الخبر فخرج معه تسعمائة وخلّف في الحي مائة فأقبل بهم زيد إلى النبي ــ ص ــ فنزل به الموت فقسمه ثلاثاً وأمّر على كل ثلث رجلاً وقال هلم: اِئتوا هذا

الرجل حتى تقضوا العهد الذي في عنقي ثم مات.

فقدموا على رسول الله ــ ص ــ فقال: أين الرجل الحسن الوجه الطويل اللسان الصادق الإيمان قالوا: دعاه الله فأجابه ــ فقال: أين تكملة الألف الذين عاهدني عليهم، قالوا: خلّف مائة بالحي مخافة حرب كانت بيننا وبين كِنانة قال: ابعثوا إليها فإنه لا يأتيكم في عامكم هذا شيء تكرهونه.

فبعثوا إليها فأتت بـ الهدة بين مكة والطائف وهي مائة عليها المنقع بن مالك فلما سمعوا وئيد الخيل قالوا: يا رسول الله أُتينا قال: لا بل لكم لا عليكم هذه سليم بن نعور قد جاءت فشهدوا معه ــ ص ــ الفتح وحنيناً».

كان بنو سليم يعلمون بـِ الحدادة ولذا نعتوهم بـ (القيون) جمع قَيْن والقيْن هو العبد وهو لقب يشي بالهزء والتحقير ومرده أن العُربان أهل جزيرة العرب كانوا وما زالوا يأنفون من الأعمال اليدوية إنها في نظرهم حِطّة ففي الماضي اْستخدوا العبيد والإماء للقيام بها والآن بعد انفجار النفط في بلادهم المبروكة وهي مجرد مصادفة جيولوجية يستأجرون أبناء الدول الفقيرة ليؤدوها ــ لأن اليَعَاربة تعوّدوا في البوادي أن يحصلوا على رزقهم من النهب والسلب أما في ما يمكن أن يسمى تجاوزاً الحواضر مثل مكة فقد عاشوا على التجارة التي ناء بعبئها الرقيق والعُبدان أو من الربا أو من عرق الإماء (الجواري) يؤجرونهن ليُزنى بهن ويحصل سادتهن على كسبهن مقابل توفير الطعام والسكن والحماية ولا يجدون سادتهن في ذلك أدنى غضاضة وقد أشار القرآن إلى تلك السُبّة.

والآن يعيش خَلَفُهم المحظوظ على فوائد الودائع الأسطورية التي نجمت عن النفط أو على التجارة التي يديرها لهم موظفون من الدول الأخرى (يمكنك أن تصفهم بـ رقيق الحداثة) والذي يمارى

في هذه الحقيقة الموجعة نسأله لماذا لم تقم في جزيرتهم القدسانية صناعات رغم وجود خامات هائلة وفي أيديهم الأموال الطائلة؟

ومضارب بني سُليم كانت قريبة من أثرب/ المدينة ومع ذلك تأخروا في إعلان إسلامهم وانضمامهم تحت جناح دولة قريش حتى عام الفتح ــ ولعل اشتغالهم بالحدادة هو أحد أسباب التباطؤ ــ لأن الذي يعمل بالصناعة يتميز بقدر من العقلانية بخلاف الراعي والدليل حمله الخبر ذاته فإن أول رجل منهم قدم على محمد وهو قيس بن نسيبة وازن بين القرآن وبين برجمة الروم وهينمة الفرس وكلام أقيال حِمْيّر وأشعار العرب وكهانة الكهان فوجده مغايراً لها في بيانه وفصاحته وطلاقته وقوة أسره وعمق بلاغته وبديع نظمه وهذا منهج عقلي قُحّ ــ وانتظروا حتى عام الفتح فخرجوا سبعمائة ونلاحظ الرقم فهو من مضاعفات السبعة ــ وعلى رأسهم عباس بن مرداس وهو من المؤلفة قلوبهم تسخّط ــ في غزوة حنين ــ نصيبه من الغنائم وقال شعراً في ذلك فردّ محمد: اقطعوا لسانه ــ أي أعطوه حتى ينتهي عن الشكوى ــ وقبلهم محمد في جيشه فغدوا له مدداً وأشركهم في فتح مكة والطائف وحنين وكان من بينهم سادن صنم يعد إسلامه مكسباً لمكانته المتميزة بين قومه ــ وهذا شأن رجال الدين في كل زمان ومكان ــ ومن ثم احتفى به محمد فـ:

١ ــ غيّر اسمه القبيح من غاوي بن عبد العزى إلى راشد بن عبد ربه.

٢ ــ نفحه قرية جامعة اسمها (رهاط) قريبة من مكة والإقطاع يشمل القرية بما فيها ومن فيها كما ألمعنا.

٣ ــ لقّبه بـ (خير بني سليم) وهو تشريف يتحلّب له ريق

الألوف خاصة وأنه من محمد النبي/ الرسول والقائد والحاكم.

٤ ــ عقد له على قومه ــ وقلة من أسلم عُوملت هذه المعاملة الكريمة ودائماً يثبت محمد أنه يعرف للناس أقدارهم وينزلهم منازلهم.

إنما هل مكان السادن في رهطه هو الدافع على الإنعام عليه أم لأنه كان يتولى عُمالة دينية رفيعة المستوى فإذا انسلخ منها وآمن بالديانة التي بشّر بها محمد عد ذلك إعلاناً لأبناء أبرشيته وللكافة أنها الديانة الصحيحة وأن عقيدته كانت زائفة باطلة؟

للإجابة عن هذا السؤال يتعين علينا أن نتعرف إلى السادن من هو وماذا يعمل؟

السادن هو الحاجب لكعبة أو بيت مقدس أو معبد وسادن الصنم هو خادمه وحافظه ومتولي أموره ومدبر شئونه والصنم هو المعبود الذي يقرّب عابديه إلى الله زلفى.

إذن السادن هو المتحدث الرسمي للمعبود وهي وظيفة خطيرة ومن ناحية أخرى فإن لفظة سَدَن تعني أخفى وغطّى ف سَدَن الستر أرخاه والكلمات التي من الجذر ذاته تَعطي الدلالة نفسها مثل سَدَل وسَدَف ولذلك فإن السدانة والحجابة صنوان(٥٥).

وهكذا يبين أن السادن يجمع بين الحجابة وخدمة المعبود ومعرفة أسراره فمن يجمع في يديه كل هذه الأمور ثم يضرب بها عُرض الحائط ويعتنق ديناً جديداً لا يستحق أن يلقى التكريم.

---

(٥٥) **القاموس المحيط**، الفيروزآبادي **وأساس البلاغة**، جار الله الزمخشري **والمصباح المنير**، المُقري الفيومي **والمعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية.

٤٢ ــ وفد بني شيبان

«عن قيلة بنت مخرمة: قدمت على رسول الله ــ ص ــ مع وفد بني شيبان وهو قاعد القرفصاء فلما رأيته متخشعاً في الجلسة أرعدت من الفرق، فقال جليسه: يا رسول الله اِرتعدت المسكينة فقال ولِمَ؟ ولم ينظر إليّ وأنا عند ظهره: يا مسكينة عليك السكينة، فلما قالها أذهب الله ما كان أُدخل قلبي من الرعب.

وتقدم صاحبي أول رجل فبايعه على الإسلام عليه وعلى قومه ثم قال يا رسول الله اكتب بيننا وبين تميم بالدهناء ولا يجاورنا إلينا منهم إلا مسافر أو مجاور فقال: يا غلام اكتب له بالدهناء.

فلما رأيته أمر بأن يكتب له بها شخص بي وهي وطني وداري فقلت: يا رسول الله إنه لم يسألك السويه من الأرض إذا سألك، إنما هذه الدهناء عندك مقيد الجمل ومرعى الغنم ونساء تميم وأبناؤها وراء ذلك، فقال: أمسك يا غلام صدقت المسكينة المسلم أخو المسلم يسعهما الماء والشجر ويتعاونان على الفتّان (الشيطان).

فلما رأى حريث أن قد حيّل دون كتابه ضرب بإحدى يديه على الأخرى فقال: كنت أنا وأنت كما قيل: حتفها تحمل ضأن بأظلافها، فقلت: أما والله إن كنت لدليلاً في الظلماء، جواداً بذي الرجل، عفيفاً عن الرفيقة حتى قدمت على رسول الله ــ ص ــ ولكن لا تلمني على حظي إذا سألت حظك فقال: وما حظك في الدهناء لا أبا لك فقلت: مقيد جملي تسأله لجمل إمرأتك فقال: لا جرم أني أُشهد رسول الله أني لك أخ ما حييت إذ أثنيت هذا علي عنده. فقلت إذ

بدأتها فلن أضيعها. فقال رسول الله ــ ص ــ أيلام ابن ذه يفصل الخطة وينتصر من وراء الحجرة فبكت وقلت: والله كنت ولدته يا رسول الله حازماً فقاتل معك يوم الربذة ثم ذهب يحيرني من خيبر فأصابه حماها وترك على النساء فقال والذي نفس محمد بيده لو لم تكوني مسكينة لجررناك اليوم على وجهك أو لجُررت على وجهك، شكّ عبد الله أيُغلب أُحيْدكم أن يصاحب صويحبة في الدنيا معروفاً فإذا حال بينه وبينه من هو أولى استرجع ثم قال: رب انسني ما أمضيت وأعني على ما أبقيت والذي نفسي بيده إن أُحيدكم ليبكي فيستعبر إليه صويحبة فيا عباد الله لا تعذبوا إخوانكم وكتب لها في قطعة من أديم أحمر: لقيلة وللنسوة بنات قيلة: ألا يظلمن حقاً ولا يُكرهن على مَنْكَح وكل مؤمن مسلم نصيراً أحسنّ ولا تسئّن».

شيبان قبيلة ذات مكانة وشرف يقول الشاعر: معن بن زائدة الذي زيدت به شرف على شرف بني شيبان ومعن هذا أحد حكماء العرب وذوي الأحلام والحجى تُحكى بشأنه حكايا معجبة. كما اشتهر بعض بنيها في فتوحات النهب والاستيطان التي شنها اليعاربة على البلاد ذوات الحضارات العريقة التي أوقعها سوء حفظها في جيرتهم.

ضم الوفد إحدى النسوة ولعل ذلك من الآثار البواقي للمجتمع الأموي (نسبة إلى الأم) الذي كأنه مجتمع العُربان قبل أن يُقصي الذكر الأم من طريقه ويتسيّد ويسيطر على المجتمع فيتحول إلى مجتمع ذكوري بطريركي ــ ويبرز لنا الخبر في فاتحته قوة شخصية محمد وهيبته التي يحس بها كل من يلقاه مما انتاب قيلة من رِعدة رغم أنها ذات لَسَن وفصاحة كما يستبين من ثنايا الواقعة.

ويكشف لنا السياق أن مضارب الشيبانية تجاوز حمى قبيلة بني تميم الأعاريب الجُفاة الذين نادوا محمداً من وراء الحجرات

وفاخروه ونافروه. ومن ثم طلبوا منه أن يكتب لهم (الدهناء) حداً فاصلاً بينهم وبين التميميين الأجلاف. وباشر محمد صفته كرئيس دولة (فقال: يا غلام اكتب له بالدهناء) ومفهوم هذه العبارة وجود أغيلمة بين يديه يباشرون تحرير كتبه وبداهة هم بخلاف كُتّاب الوحي وهكذا كلما نقرأ أخبار الوفود ونتبصر فيها ونطالعها بعيون يقظة تتكشف لنا أحوال تلك الحقبة الفاذّة المُعجبة التي لم تتكرر على طول التاريخ العربي الإسلامي وهنا نتبين شخصية تلك المرأة وقوة عارضتها وبلاغتها ونصاعة منطقها فقد اِعترضت وقدمتُ حُججاً أقنعت محمداً فقال (أمسك يا غلام) ولم تكتف بذلك بل واصلت دفاعها حتى حرّر لها محمد كتاباً وللنسوة بنات قيلة أمر فيه بعدم ظلمهن أو إكراههن على زواج لا يرغبن فيه.

وهذه الواقعة تدحض ما يملأ كتابات أصحاب فرق التمجيد والتعظيم وخطبهم التي ما فتئت في كل حين تزعم أن المرأة في فترة ما قبل الإسلام (يسمونها الجاهلية) لم تكن شيئاً مذكوراً بل كما مهملاً وأن (النصوص) هي التي ردّت إليها اعتبارها ونطّقتها بل إنهم يتجرأون على الحق فيتمادون في ادعاءاتهم فيقولون أن أعطت المرأة حقوقاً لم تنلها من قبل لا في المشرق ولا في المغرب على طول التاريخ دون أن يكلف أحدهم نفسه الاطلاع على وضع بل مقام المرأة المحمود في الحضارات الشامخة وعلى سبيل المثال الحضارة المصرية القديمة ليكفوا عن إطلاق الأحكام جزافاً دون تدقيق أو تمحيص ومن أسف أن هذا الادعاء تجده أيضاً مسطوراً في كتابات تضفي على نفسها المسحة العلمية ويحررها أساتذة جامعيون وبُحّاث أكاديميون. والسؤال الذي نوجهه إلى الافتخاريين والمداحين والتهليليين كيف يتسنى لـ (النصوص) أن تنسلخ عن

بيئتها وتتجاوز مجتمعها وتخترق مستواها المعرفي وتتخطى رتبتها الحضارية؟

أليس هذا ما يمكن أن يقال بحق (النصوص) في مضمار المرأة أنها خطت بها إلى الأمام خطوات ونفحتها حقوقاً كانت محرومة منها ولكن أبداً لم تصل بها إلى آخر المطاف ونهاية الشوط ويكفيها (= النصوص) شرفاً وفخراً هذه الخطوات التقدمية وأنها فتحت الباب لإنصافها.

٤٣ ــ وفد صداء

«عن زياد بن الحارث الصدائي ــ رضي ــ قال: أتيت رسول الله ــ ص ــ فبايعته على الإسلام فأخبرت أنه بعث جيشاً لقومي.

لما انصرف رسول الله ــ ص ــ من الجعرانة سنة ثمان، بعث قيس بن سعد بن عبادة إلى ناحية اليمن وأمره أن يطأ صداء فعسكر بناحية قناة في أربعمائة من المسلمين.

قال زياد: يا رسول الله قد جئتك وافداً على مَن ورائي فاْردد الجيش وأنا لك بإسلام قومي وطاعتهم فقال لي: اذهب وردهم فقلت يا رسول الله إن راحلتي قد كلّت فبعث رجلاً فردّهم من صدر قناة وكتب إلى قومي كتــاباً مَقْدَم وفــدهم بإسلامهم. فقدم منهم خمسة عشر رجلاً فقال سعد بن عبادة يا رسول الله دعهم ينزلون عليه فجاءهم وأكرمهم وكساهم ثم راح بهم إلى رسول الله ــ ص ــ فأسلموا وبايعوه على من وراءهم من قومهم، قال زياد: قال يا أخا صداء إنك لمطاع في قومك فقلت: بل الله هداهم للإسلام ــ فقال لي: أفلا أؤمرك عليهم فقلت: بلى يا رسول الله فكتب لي كتاباً أمرني فيه فقلت: يا رسول الله بشيء من صدقاتهم قال: نعم فكتب لي كتاباً آخر وكان ــ ص ــ ذلك في بعض أسفاره ونزل منزلاً فأتاه أهله يشكون عاملهم ويقولون أخذنا بكل شيء بيننا وبين قومه في الجاهلية فقال: أفعل ذلك؟ قالوا: نعم فالتفت إلى أصحابه وأنا فيهم فقال: لا خير في الأمارة لرجل مؤمن، فدخل قوله ــ ص ــ في قلبي ثم أتاه آخر فقال: يا رسول الله أعطني فقال له: من يسأل الناس عن غنى فصداع في الرأي وداء في البطن... حتى إذا طلع الفجر نزل ــ ص ــ لحاجته

ثم اِنصرف وتلاحق أصحابه فقال: هل من ماء يا أخا صدِاء؟ فقلت: لا إلا شيء قليل لا يكفيك فقال ــ ص ــ: اِجعله في إناء ثم ائتني به ففعلت فوضع كفه في الماء ــ قال زياد: فرأيت بين كل أصبعين من أصابعه عيناً تفور ثم قال لي: يا أخا صداء لولا إني أستحي من ربي عز وجلّ وأستقينا، نادِ في أصحابي من له حاجة في الماء فناديت فيهم فأخذ من أراد منهم شيئاً. فلما قضى رسول الله ــ ص ــ الصلاة أتيته بالكتابين وقتلت اِعفني من هذين الكتابين فقال: ما بدالك فقلت: سمعتك تقول: لا خير في الإمارة لرجل مؤمن وأنا مؤمن بالله تعالى ورسوله وتقول للسائل:... وقد سألتك وأنا غني. فقال: هو ذاك فإن شئت فأقبل وإن شئت فدع، فقلت: أَدَعُ فقال لي: فدلّني على رجل أؤمّره عليكم فدللته على رجل من الوفد فأمّره عليهم.

ثم قال يا رسول الله إن لنا لبئراً إذا كان الشتاء كفانا ماؤها واجتمعنا عليها وإذا كان الصيف قل ماؤها فتفرقنا على المياه حولنا وكل من حولنا عدو لنا فادع الله لنا في بئرنا أن يسعنا ماؤها فنجتمع عليها ولا نفرق، فدعا بسبع حصيات ففركهن بيده ودعا فيهن ثم قال اِذهبوا بهذه الحصيات فإذا أتيتم البئر فألقوا واحدة واحدة واذكروا اسم الله تعالى.

قال زياد الصدائي: فقلنا ما قال فما استطعنا بعد ذلك أن ننظر إلى قعرها.

ورجع الخمسة عشر إلى بلادهم ففشا فيهم الإسلام فوافى النبي ــ ص ــ مائة رجل في حجة الوداع».

صداء قبيلة ظلت حتى العام الهجري الثامن تتأبى على محمد فلا هي تبغي اعتناق الدين الذي بشر به ولا تريد أن تبلغها دولة قريش وبذا تذهب شخصيتها وتمّحي كينونتها...

ولم يكن أمام محمد بدّ من معالجة هذا العناد الغبي... فهي لو تركت على حالها لضربت مثلاً شروداً في المناوأة والمشاكسة ومنها

تنتقل العدوى إلى غيرها من القبائل والبطون... الخ فندب قيس بن سعد بن عبادة وهو من شجعان الأنصار وابن سيد الخزرج سعد بن عبادة الذي سعى إلى تولي الخلافة ــ بعد موت محمد وذلك في سقيفة بني ساعدة ولكن لم يتوفق له ذلك لأسباب تندّ عن الموضوع ــ وقيس هذا هو الذي سلّمه محمد راية الأنصار في فتح مكة بعد أن انتزعها من أبيه سعد الذي صرح بأنه سيكون «يوم الملحمة»... وقيس سيتردد اسمه في عراك علي بن أبي طالب مع مخالفيه ــ وتأمير محمد قيساً على رأس جيش من أربعمائة جندي يعني قوة صداء ومنعة مواقعها وشجاعة بنيها في الحروب وإذ أن الأنصار كما رددنا أصلهم يمانية فإن اختيار محمد لأحد أبناء الأنصار المرموقين ليرأس المقاتلين لصداء القبيلة اليمانية دليل لا يرقى إليه شك على أن محمداً بالغ الحصافة، شديد الحنكة، بصير بالأمور يضع الرجل المناسب في المكان المناسب ــ ومن سياق الخبر أدركنا أن تعليمات محمد لقيس أن يطأ[٥٦] صداء لأنهم ظلوا على (شركهم) حتى السنة الثامنة الهجرية... فلا دواء لهم إلا ذلك... تطبيقاً للشعار المستقر الإسلام أو السيف. ونهدي هذه الواقعة إلى من زال في نفسه مثقال ذرة من ريب في ذلك الشعار وتطبيقاته العديدة التي أوردناها.

علمت صداء بإرسال محمد جيشاً بقيادة قيس لدكّ معاقلها ووطء مضاربها وقتل رجالها وسبي نسائها وفتياتها وذراريها وأدركوا أن قوتهم وشجاعتهم لا تُغنيان عنهم شيئاً بعد أن رفرفت أعلام محمدٍ ودولته القرشية على بقاع كثيرة في شبه الجزيرة وأن الباقي سوف يركع قريباً على ركبتيه وأن القبائل سارعت إلى

---

(٥٦) كلمة **يطأ** تعني الدوس الشديد والدعك والمعك والهرس... الخ.

إرسال وفودها... فبعث الصدائيون واحداً امتاز بالتمرس بأساليب الديبلوماسية والسفارة والوفادة على الأكابر فأتى محمداً وتذلل إليه وتخشّع ورجاه أن يردّ جنوده لأن قبيلته آمنت بالله رباً وبه نبياً ورسولاً وانْضمت للواء القرشي ــ وأنها أرسلت وفداً سرعان ما يصل لـ/ أثرب فرضي محمد عن صداء وأرسل مندوباً إلى قائد السرية قيس بن عبادة أن يكرّ راجعاً.

عندما وصل الوفد ترجّى محمداً سعد بن عبادة أن ينزلوا عليه رغم كونهم خمسة عشر رجلاُ فاستجاب محمد فأنزلهم وحيّاهم وأكرمهم وكساهم وقدمهم لمحمد فأسلموا وبايعوه عن أنفسهم وعمن وراءهم (قبيلتهم). وابن عبادة من أثرياء الأنصار وكانت له قطعة طعام تدور مع محمد في أبياته أي ترسل إلى بيت الزوجة التي يختار المبيت عندها من زوجاته التسع.

وإلحاح سعد بن عبادة على إنزال وفد صداء عليه مردّه اتحاد الأصل بين الصدائيين (بني صداء) وبين بني قيلة (الأنصار) فكلاهما يماني ــ وربما أراد امتصاص غضبهم على ابنه قيس لتوليه قيادة جيش الهجوم عليهم ووطئهم فربما يدبرون له مكيدة ويوقعون به شراً وهو قافل ــ ويؤكد ذلك أننا حتى الآن لم نر ابن عبادة يتطوع باستضافة أي وفد من الوفود التي أتينا على أخبارها. ولو أن هذا كله لا يحول دون تقرير السخاء والجواد في حق زعيم الخزرج فقد كان من أشد بني قيلة (الأنصار) كرماً وبذلاً.

أثنى محمد على زياد الصدائي خيراً وسأله إنْ كان يريد أن ينصبه أميراً عليهم مكافأة له على حسن سفارته وسعيه الحميد الذي أدى إلى حقن دماء الطرفين وإسراع قبيلته إلى الإيمان بالإسلام والخضوع لبيرق القرشيين، فوافق زياد ولكنه عاد بعد

ذلك واستعفى من الإمارة بعد أن علم من محمد أنه لا خير فيها لمن يريد الله والدار الآخرة وقد جاء في الخبر ما يقطع بأن المحكومين كانوا يتشكّون لمحمدٍ (رئيس الدولة) عُمالهم أي ولاتهم وينقلون إليه انتقاداتهم لتصرفاتهم وسلوكياتهم وللأسف أن هذا التقليد الديموقراطي اختفى بعد أن أحاط الخلفاء والسلاطين والأمراء أنفسهم بالحاشية والحجاب والأجناد.

حمل إلينا الخبر معجزتين قام بهما (محمد/ الرسول):

الأولى: فوران الماء بين أصابع كفه وتحوّل (الشيء القليل من الماء إلى ماء كثير أخذ منه كل واحد من صحبه حاجته) وهي معجزة ذكرتني فور قراءتها للمرة الأولى بمعجزات ابن مريم في تكثير الطعام والشراب لحوارييه وتبعه كافة والتي نقلتها إلينا الأناجيل الأربعة.

الأخرى: قيام محمد بعرك حصيات ودعوته فيهن ثم طلبه من الصدائيين أن يذهبوا بهن إلى بئرهم ويلقوها واحدة واحدة (لا دفعة واحدة) فيها مع ذكر اِسم الله عليها وبعدها تحوّل (= البئر) من الشح والقلة والوشل إلى بئر لا يطال قعرها لا صيفاً ولا شتاءً.

وكان الصدائيون قد شكوا إليه عدم كفاية ماء بئرهم خاصة في الصيف وفي المعجزة الأخيرة يشد الانتباه بضعة أمور:

أ ــ أن محمداً هو الذي حدّد عدد الحصيات بسبع وسبق أن كررنا علو كعب هذا الرقم في الديانات الإبراهيمية الساميّة.

ب ــ أنه فركهن بيده ودعا فيهن.

ج ــ أنه لفت نظرهم إلى ضرورة إلقاء الحصيات واحدة إثر واحدة.

د ــ ذكر اسم على كل واحدة قبل إلقائها.

واشتراط العدد سبعة ثم اتباع طقوس معينة من قبل محمد (فرك الحصوات في يده ثم الدعاء فيهن) وطقوس أخرى من قبل بني صداء (إلقاء الحصى واحدة وراء أخرى لا دفعة واحدة والذكر عليها قبل قذفها في البئر). هذه الطقوس نرجّح أنها تهم علماء الأنثربولوجيا الدينية ولكنهم للأسف لا يلتفتون إلى الكتب التراثية التي تحملها باعتبار انها كتب صفراء ويلهثون وراء الفرنجة يلتقطون ما أوردوه في كتبهم من أمثال، ونحن لا نهزأ بعلماء الأنثروبولوجيا الدينية من الفرنجة بل نقدرهم حق قدرهم ــ بيد أن الذي نهدف إليه هو أن يكون لعلمائنا شخصيتهم العلمية البحثية المتميزة وهذه لا تتأتى إلا بالاهتمام بكتب التراث التي حوت كنوزاً من المعارف والمعلومات لا تقدر بثمن.

٤٤ ــ وفد ضمام بن ثعلبة

«بعث بنو سعد بن بكر، ضمام بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ــ ص ــ فقدم إليه وأناخ بعيره على باب المسجد ثم دخل ورسول الله ــ ص ــ جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلاً جلداً أشعر ذا غديرتين فأقبل فقال أيكم محمد فقلنا له: هذا الأبيض المتكئ يقال: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد عليّ في نفسك قال: لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك فقال: يا محمد أتانا رسولك فقال إنك تزعم أن الله تعالى قد أرسلك قال: صدق، ثم أخذ ضمام يسأل عن العقيدة والصلوات والزكاة والصوم والحج حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهاني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص وأنا رسول من ورائي من قومي فقال رسول الله ــ ص ــ: إنْ صدق ليدخلن الجنة. فلما ولّى قال: فقه الرجل. قومه اِجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به: بئست اللات والعزى فقالوا: صه يا ضمام اِتقِ البرص والجذام، اِتقِ الجنون فقال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله بعث رسولاً وأنزل عليكم كتاباً فاستنقذكم به مما كنتم فيه وإني أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه.

فوالله ما أمسى ذلك اليوم في حاضره رجل أو امرأة إلا مسلماً، وبنوا المساجد وأذّنوا بالصلوات قال ابن عباس: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة».

هذا وافد فذ أرسله بنو سعد بن بكر يتحسس حقيقة الدين

الذي دعا محمد لاعتناقه وليتسقّط الأخبار... ويطلعنا الخبر على أن ضماناً كانت له غديرتان أي أنه من المألوف أن يكون للرجل غديرتان أو أكثر يسرحهما ويرجلهما ويدهنهما... وفي وقتنا الراهن: هذا لا يجوز إلا للنسوان ولو أطلق رجل غدائره لوُصف بأنه مخنث ما يقطع بأن ذلك المجتمع يغاير تماماً مجتمعنا المعاصر تمام المغايرة وبداهة أن الاختلاف في الهيأة واللباس والمشرب والمطعم والذوق العام ينتج عنه بطريق الحتم واللزوم اختلاف في الأفكار والرؤى والأعراف والتقاليد والقيم والمبادئ والمثل... الخ نتوصل من ذلك إلى أن (الأسطير) الذي ظهر في أحشاء ذلك المجتمع من البديهي أن يغاير المجتمع المعاصر الذي يفاصل ذياك المجتمع في كل الأمور بديّاً بتسريحة شعر الرجل وهيأته وملبسه حتى القيم والأفكار التي تعشعش في دماغ القبلي البدوي الصحراوي...

ومما يؤسف له أنه حتى الآن هناك من يرفض الاقتناع بهذه البديهية ولا ينفك يجادل فيها.

وهذه واحدة من أهم العلل التي تقبع وراء ما نراه من تخليط وتضارب ومن حرج شديد يشعر به المخاطبون بذلك (الإسطير) مع أن مثل الذي يتوجه به إلى أحد المعاصرين ويطلب منه أن يطبقه ويسير على خطاه مثل الذي يحتم عليه أن يطلق غدائره ويسير بها بين الناس لا يبالي بما يلقاه منهم.

بعد أن تعلّم ضمام أركان الإسلام على يد محمد رجع إلى قومه ينقل إليهم ما حصّله من فقه فبدأ بلعن اللات والعُزّى وهما من معبوداتهم وقد ورد ذكرهما في القرآن ففزعوا ورجوه أن يكف لكي لا يصاب بـ البرص والجذام أو الجنون فسفه هذا الافتراض

السخيف وأفهمهم أن هاتين المعبودتين أعجز من أن تنفعا أو تضرا.

وهنا ملحظ بالغ الأهمية وهو أن الدعوة للأديان عموماً تعتمد على تهديد من لا يرفض الإيمان بها بالويل والثبور وعظائم الأمور في الدنيا بالأسقام والأمراض ونقص الثمرات في الأنفس والأموال وفي الآخرة بأهوال الجحيم ونيران السعير وبينهما أي في القبر بالعذاب الشديد والثعبان الأقرع... الخ.

ولذا نجد أن رهط ضمام ما إن أعلن لهم كفره باللات والعُزّى حتى حذروه من العقاب الأليم الذي توقعه عليه المعبودتان اللتان كفر بهما ــ وهذا هو ما درجت عليه العقائد والملل والنِحَل كافة ولا يغير من الأمر شيئاً اِختلاف أنواع العذاب وصوره وفنونه ــ وفي المقابل فإنّ من يؤمن بالمعبود أو المعبودة فإنه في الدنيا سيحيا حياة طيبة ويعيش عيشة سعيدة وإذا مات فإن قبره سوف يتحول إلى روضة فيحاء أما في الآخرة فسيلقى النعيم المقيم والحور العين وأنهار العسل المصفى والخمر المعتّق يعبّ منها كما يريد...

إذن الأديان تتمحور على دعامتين: الترغيب والترهيب، النعيم أو الجحيم... السعادة أو الشقاء إلى آخر هذه الثنائية التي تحاصر الإنسان منذ بلوغه سن التمييز ولا تدع له وقتاً أو مجالاً للتفكير بحيث لا تتاح له فرصة الموازنة لأنها محسومة إذ لا يوجد عاقل يختار الشقاء والجحيم ويعرض عن النعيم بـ لذائذه التي لا تخطر له على بال.

٤٥ ــ وفد طيء

«وقدم طيء على رسول الله ــ ص ــ خمسة عشرة رجلاً رأسهم وسيدهم زيد الخير وهو زيد الخيل... فدخلوا المدينة ورسول الله ــ ص ــ في المسجد، فعقلوا رواحلهم بفناء المسجد ثم دخلوا فدنوا منه ــ ص ــ فعرض عليهم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم. وأجازهم بخمس أواقٍ فضة كل رجل منهم وأعطى زيد الخيل اثنتي عشرة أوقية ونَشّاً وقال: ما ذُكر رجل من العرب إلا رأيته دون ما ذُكر لي إلا ما كان من زيد الخير فإنه لم يبلغ كل ما فيه وسماه زيد الخير، وقطع له فيد وأرضين وكتب له بذلك كتاباً ورجع مع قومه ــ فخرج من عنده ــ ص ــ راجعاً إلى قومه فقال رسول الله ــ ص ــ: إنْ ينج زيد من حمى المدينة فإنه... والتقدير فإنه لا يُعاب. فلما انتهى من بلد نجد إلى ماء مياهه يقال له فردة أصابته الحمى به فمات هناك وعمدت امرأته بجهلها وقلة عقلها إلى ما كان رسول الله ــ ص ــ كتب له فحرقته بالنار.

إن زيداً أقام بمفرده ثلاثة أيام ومات فأقام عليه قبيصة بن الأسود المناحة سنة ثم وجه براحلته ورحله وفيها كتاب النبي ــ ص ــ فلما رأت امرأته الراحلة ليس عليها زيد ضرمتها بالنار فاحترقت واحترق الكتاب.

روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري ــ رضي ــ أن علياً ــ كرم ــ بعث إلى رسول الله ــ ص ــ بذهبية في أديم مفروط لم تحصل من ترابها فقسمها رسول الله ــ ص ــ بين أربعة نفر: عُيينة بن بدر، أقرع بن حابس، زيد الخيل، علقمة بن غيلان.

عن عبد الله بن مسعود ــ رضي ــ قال: كنا عند رسول الله ــ ص ــ فأقبل راكب فأناخ فقال: يا رسول الله إني أتيتك من مسيرة تسع... لأسألك عن خصلتين أسهرتاني: فقال له ما اسمك؟ فقال: أنا زيد الخيل قال: بل أنت زيد الخير، فسل فربما معضلة قد سئل عنها.

فقال أسألك عن علامة الله فيمن يريد وعن علامته فيمن لا يريد فقال له النبي ــ ص ــ كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت أحب الخير وأهله...

هذه علامة الله فيمن يريد وعلامته فيما لا يريد ولو أرادك بالأهدى هيأ لك لها ثم لا تبالي من أي وادٍ هلكت أو سلكت وروى أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً قال: يا رسول الله أسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامة فيمن لا يريد.

وروى ابن سعد: قدم عمرو بن المسيح.. الطائي على النبي ــ ص ــ وهو يومئذٍ إلى مائة وخمسين فسأله عن الصيد فقال له: كل ما أهميت ودع ما أنميت. وكان من أرمى العرب والإنماء أن تصيب إصابة غير قاتلة في الحال.

طيء من القبائل التي انتشرت فيها المسيحية ولذا فقد استقبلهم محمد اِستقبالاً طيباً وأثنى على مقدمهم (زيد الخيل) ونفحه لقباً منيفاً (زيد الخير) جمع له فيه الزيادة والخيرية ليس ذلك فحسب بل أقطعه أقطاعاً جزلاً ــ وكتب له به كتاباً. بيد أنه تنبأ بموته بسبب حُمّى المدينة ــ وقد صحت نبوءته.

ويحمل لنا الخبر طقساً أو تقليداً كان يباشره أولئك العُربان عند وفاة سيد ذي قدر ومكانة وهو إقامة المناحة عليه سنة كاملة وحرق راحلته بما عليها إذا وافته منيته وهو مسافر ودفن في الطريق وعودة الراحلة بدونه وذلك إما تشاؤماً منها (= من الراحلة) وإما لتلحق بـ صاحبها لتغدو في خدمته في الدار الآخرة كما كانت في الدنيا أو ليكمّل عليها مشوار العودة ولو من طريق الرمز بعد أن قهره الموت ومنعه من إتمامه في الدنيا، وأياً كان التعليل فإنّ ذلك الطقس الجنائزي هو وسائر طقوس الانتقال التي درج على ممارستها أولئك اليعربيون يتعين الحفر

فيها لمعرفة جذورها الغوائر لمعرفة ولادتها الصحيحة وربطها بالعقائد التي كانوا يعتنقونها والتي نرجّح أننا نجهل عنها الكثير ودعك من الكتابات المجانية الخفيفة التي تحصرها في عبادة الأصنام».

٤٦ ــ وفد بني عامر

«قدم على رسول الله ــ ص ــ وفد بني عامر، فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وجبار بن سلمى وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم ــ فقدم عامر عدو الله على رسول الله ــ ص ــ وهو يريد الغدر به.

وجبار بن سلمى هو قاتل عامر بن فُهيْر ببئر معونة وأسلم مع من أسلم من بني عامر ــ قال لعامر إن الناس قد أسلموا فأسلم قال: والله لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي أفأتبع هذا الفتى من قريش ثم قال لأربد: إذا قدمنا على الرجل فسأشغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فاْعلُه بالسيف، فإن الناس إذا قتلت محمداً لم تزد على أن تلتزم بالدية وتكره الحرب فسنعطيهم الدية قال أربد: أفعل. فلما قدموا على رسول الله ــ ص ــ وانتهى إليه عامر وأربد فجلسا بين يديه قال عامر: يا محمد خالني (اتخذني خليلاً أو تفرد لي خالياً حتى أتحدث معك) قال: لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له، قال: يا محمد خالني وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به، لعل أربد لا يحير شيئاً، إن يد أربد يبست على السيف فلم يستطع سلّه.

فلما رأى عامر أربد ما يصنع شيئاً قال: يا محمد خالني، قال: لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له. فقال عامر: ما تجعل لي يا محمد إنْ أسلمت؟ فقال رسول الله ــ ص ــ: لك ما للمسلمين وعليــك ما عليهم قال عامر: أتجعل الأمر لي بعدك إنْ أسلمت؟ فقال رسول الله ــ ص ــ: ليس ذلك لك ولا لقومك ولكن لك أعنة الخيل، قال: أنا الآن في أعنة خيل بخير، أتجعل لي الوبر ولك المدر.

قال رسول الله ــ ص ــ لا ــ فلما قاما قال عامر: والله يا محمد لأملأنها عليك خيلاً جُرداً ورجالاً مُرداً ولأربطن بكل نخلة فرساً فقال رسول الله ــ ص ــ: اللهم اِكفني عامراً واهدِ قومه ــ فلما خرجوا من عند رسول الله ــ ص ــ قال عامر لأربد: ويلك يا أربد: أين ما كنت أمرتك به، والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندي عليّ منك وأيم الله لا أخافك بعد اليوم قال: لا أبا لك لا تعجل عليّ والله ما هممت بالذي أمرتني به من أمره إلا دَخَلْتَ بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك أفأضربك بالسيف.

حتى إذا كان بـ (حَرّة واقمٍ): إحدى حرتيّ المدينة وهي حَرّة الشريعة، نزلا فخرج إليهما سعد بن معاذ وأُسيد بن الحضير فقالا: أشخصا يا عدويّ الله عز وجلّ لعنكما الله فقال عامر من هذا يا أربد؟ قال: هذا أُسيد بن الحضير ــ فخرجا ومكث رسول الله ــ ص ــ يدعو على عامر ثلاثة صباحاً: اللهم اكفني عامر بن الطفيل بما شئت وابعث عليه داماً يقتله، حتى إذا كان بـ «الرَقْم» موضع بالمدينة تنسب إليه السهام الرَقِميّات وبعث الله على عامر الطاعون في عنقه فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول فجعل يمس فرحته في حلقه ويقول:

يا بني عامر أغدة كغدة البكر في بيت امراة من بني سلول (موصوفون باللؤم)، يرغب عن أن يموت في بيتها، ثم ركب فرسه فأحضرها وأخذ رمحه وأقبل يجول فلم تزل تلك حاله حتى سقط عن فرسه ميتاً.

ثم خرج أصحابه حين واروه حتى قدموا أرض بني عامر شاتِيْن، فأتاهم قومهم فقالوا: ما وراءك يا أربد قال: لا شيء والله لقد دعاني إلى عبادة شيء لو وددت أنه عندي الآن فارميه بالنَبْل حتى أقتله، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يتبعه (أو يبيعه) فأرسل الله عز وجلّ عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما وفي حديث ابن عباس ــ رضي ــ: حتى إذا كان بالرَقْم أرسل الله تعالى عليه صاعقة فقتلته.

قال ابن عباس وابن اسحق: أنزل الله عز وجلّ في عامر وأربد: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ (سورة الرعد، الآية ١١) أي ملائكة تعتقبه يحفظونه من الجن وغيره ــ ﴿ويسبح الرعد بحمده﴾ (نفس السورة، الآية ١٣) الرعد هو ملك بالسحاب يسوقه يقول سبحان الله بحمده.

﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ (نفس السورة، الآية ١٣)، نزل في رجل بعث إليه رسول الله ــ ص ــ من يدعوه فقال من رسول الله ــ ومن الله؟ أمن ذهب هو أم من فضة أو نحاس؟ فنزلت به صاعقة فذهبت بقحف رأسه».

هذا وافد مناوئ مشاكس بل معادٍ يضمر الغدر والخيانة، ضم مردة عتاة على رأسهم عامر بن الطفيل أحد صناديد العَرَبَة ومن الذين كانوا يحلمون بالسيطرة على الجزيرة وبمن عليها (والله لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي) ولكنه لم يكتب له الفَلَج ولما نجح محمد فيما أخفق (فشل) فيه حقد عليه حقداً أسود وكرهه كراهية عميقة وقبل أن نستطرد في ذكر المؤامرة الدنيئة التي دبرها للخلاص من محمد ننوه إلى أن هاجس التوحيد ساور الكثيرين من زعماء العُربان وكانت الظروف جميعها تدفع إلى الوحدة والتوحيد[٥٧].

اتفق ابن الطفيل ــ عليه اللعنة ــ مع شيطان آخر لا يقل عنه خبثاً ومكراً وشراً على خطه لقتل محمد غيلة. وملخصها أن يقوم عامر بشغل محمد بالحديث عنه فيعلوه أربد بالسيف بيد أن هذه المؤامرة الدنيئة أخفقت وذلك لقوة شخصية محمد وهيبته اللتين تأخذان بمجامع كل من يلتقيه خاصة لأول مرة، كما كان محمد محاطاً

---

(٥٧) فضلاً نرجو التكرّم بالرجوع إلى كتابنا **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية**، مرجع سابق.

بحراسة خاصة شديدة كما أن عامراً وأربد بن قيس اِشْتُهر عنهما الخبث والغدر ودليل قيام هذه الحراسة نستخلصه من الخبر ذاته (قال عامر: يا محمد خالني) أي تفرّد لي خالياً لكي أتحدث معك ما يعني وجود آخرين بجواره، هم حرسه. وقد روينا في مواضع أخرى أن عمر بن الخطاب كان قائد سرية الحرس الخاص في الخضر أي في غير السفر ــ أياً كان الأمر فإن خطة القتل لم تنجح فبدأ عامر يساوم محمداً فعرض عليه أولاً أن يجعل الأمر له من بعده وسبق أن ذكرنا أن كلمة العرض واقترح عليه أن يعينه قائداً لسلاح الفرسان (أعنة الخيل)، فردّ عامر أنه الآن عليها (= على أعنة الخيل) ــ فطرح طلباً جديداً أن يحكم البوادي (الوبر) ولمحمد الحواضر (المدر)...

وكان من البديهي أن تجيء إجابة محمد بالسلب، لأن لا يقبل شركة في حكم الجزيرة ولو استجاب لعامر لقدّم بذلك برهاناً على ضعف دولة قريش ولحرك ذلك مطامع كثيرين من أمثال ابن الطفيل ــ هذا من ناحية ــ ومن ناحية أخرى فإن دخول الإسلام يتعين أن يتم بلا شروط وقد رأينا فيما سبق كيف أن محمداً كان يجابه أي اشتراط أو مساومة بعدم القبول، بعده لجأ ابن الطفيل إلى الوعيد والتهديد والبادي من سياقة الخبر أنه يتسم بسوء تقدير المواقف وانعدام البصيرة في قراءة الواقع إذ نراه في تدبير المؤامرة كان يظن أن قتل محمد ميسورٌ وعند قتله سينتهي الأمر بقبول الدية من أولياء دمه وتحل المشكلة وبالمثل بالنسبة للتهديد بالقتل فقد تصور ابن الطفيل أن محمداً شيخ قبيلة ينازله كندٍ له ــ غير مدرك أنه غدا رئيس دولة وأن قبائل الجزيرة أعلنت خضوعها له وأن جيوشه قد دوّختها وغلبتها.

وقد كان في مقدور محمد أن يؤدب ابن الطفيل على سوء أدبه وقبح خطابه إياه أو حتى يرد عليه ساخراً من تهديده الأجواف ووعيده الزائف: بيد أنه لم يفعل وكل ما أقدم عليه هو أن توجه إلى السماء ملتمساً منها أن تكفيه شروره وكالعادة كانت السماء رحيمة بمحمد، عطوفة عليه فاستجابت له فرمت عامراً بداء عضال قضى عليه ومات شريداً طريداً.

أما أربد الشريك في المؤامرة والذي استهزأ بالله عندما سأله قومه عن دين محمد، فقد أرسلت السماء صاعقة أحرقته وجملاً كان يتبعه ــ وهكذا تم الانتقام ممن حاولا اغتيال محمد.

ويتحفنا ابن عباس ــ الحبر وترجمان القرآن وابن عم محمد بـ معلومة موجزها أن هناك كتيبة من الملائكة كان يتناوب أفرادها حراسة محمد ليلاً ونهاراً من الجن وغيره، وهذه بخلاف سرية الحرس الخاص الذي يتولى رئاسته عمر بن الخطاب ــ وبأن هناك آية في القرآن تؤكد حقيقة وجود كتيبة الحراسة الملائكية.

وأيضاً واقعة إرسال السماء للصاعقة التي أحرقت أربد يسندها إلى آية في القرآن أيضاً ــ وبذلك يؤسس ابن عباس الوقائع وخاصة الخارقة على آيات في القرآن ليوثق حدوثها من جانب ولتأكيد رعاية السماء لمحمد وحمايتها له وإحاطته بعنايتها من جانب آخر ــ وبذلك يثبت أنه ترجمان للقرآن بـ (حق وحقيق) ونحن نرى في منهج حبر الأمرة في هذه الخصوصية الجذر التاريخي للاتجاه المعاصر من بعض الباحثين في رد أي نظرية علمية (تجريبية) أو إنسانية إلى القرآن.

جاء في الخبر أن وفد بني عامر ضم جبار بن سلمى قاتل عامر من فهيرة في بئر معونة التي حدثت في السنة الرابعة الهجرية

(وكانت الدولة القرشية في طور النشوء) وهي واقعة اِتسمت بالمكر والخسة والدناءة إذ فيها غدرت غطفان ببعثة قوامها أربعون رجلاً أرسلهم محمد إلى أهل نجد ليفقهوهم في أمور دينهم وكان من بينهم عامر بن فهيرة الذي لعب دوراً متميزاً في رحلة النزوح (الهجرة) من أم القرى إلى أثرب واشتمال وفد بني عامر على مثل هذا الفاتك الفاجر بالإضافة إلى عامر وأربد يجيز لنا أن نطلق عليه لقب (وفد المردة) وأن ندرك أن الوفود تباينت نوعيتها وأنها جميعها لم تكن على شاكلة واحدة الأمر الذي كبّد محمداً كثيراً من المشاق النفسية والآلام المعنوية وأنه عانى الكثير في مراودة أمثال أولئك الشياطين ــ بيد أن الذي لا مرية فيه أنه (محمداً) قد نجح نجاحاً يفوق الوصف في مقابلة كل وفد بما يليق به ومخاطبته بما يناسبه.

٤٧ ــ وفد بني عبد بن عدي

«قدم وفد بني عبد بن عدي فيهم الحارث بن وهبان وآخرون ومعهم رهط من قومه فقالوا: يا محمد نحن أهل الحرم وساكنيه وأعز من به ونحن لا نريد قتالك ولو قاتلك غير قريش لقاتلنا معك ولكننا لا نقاتل قريشاً وإنا لنحبك ومن أنت منه وقد أتيناك فإن أصبت منا أحداً من أصحابك فعلينا ديته إلاّ رجلاً هرب فإن أصبته أو أصابه أحد من أصحابك فليس علينا ولا عليك.

فقال عويمر بن الأحزم: دعوني آخذ عليه. قالوا: لا، محمد لا يغدر ولا يريد أن يُغدَر به فقال حبيب بن ربيعة: يا رسول الله إن أُسيد أبي أناس هو الذي هرب وتبرأنا إليك منه، وقد نال منك فأباح رسول الله ــ ص ــ دمه وبلغ أُسيد أقوالهما لرسول الله ــ ص ــ فأتى الطائف فأقام به فلما كان عام الفتح كان فيمن أهدر دمه ــ فخرج سارية بن زنيم إلى الطائف فقال له أُسيد ما وراءك؟ قال: أظهر الله تعالى نبيه ونصره على عدوه فأخرج يا ابن أخي إليه فإنه لا يقتل من أتاه فحمل أُسيد امرأته وهي حامل تنتظر وألقت غلاماً عند قرن الثعالب وأتى أُسيد أهله فلبس قميصاً واْعتم ثم أتى رسول الله ــ ص ــ وسارية قائم بالسيف عند رأسه يحرسه. فأقبل أسيد حتى جلس بين يدّي رسول الله ــ ص ــ وقال:

يا محمد أهدرت دم أُسيد؟ قال: نعم. قال: أتقبل منه إن جاء مؤمناً؟ قال: نعم فوضع يده في يد رسول الله ص ــ فقال: هذه يدى في يدك أشهد أنك رسول الله ولا إله إلا الله. فأمر رسول الله ــ ص ــ رجلاً يصرخ أن أُسيد قد آمن وأمنه رسول الله ــ ومسح وجهه وألقى يده

على صدره ويقال إن أُسيد كان يدخل البيت المظلم فيضيء.

وقال أسيد أبياتاً منها: تعلّم رسول الله أنك قادرٍ... على كل حي متهمين ومنجد فلما أنشده: أنت الذي يهدي معداً لدينها، قال رسول الله ــ ص ــ بل الله يهديها قال الشاعر (أسيد): بل الله يهديها وقال لك أشهد».

بنو عبد بن عدي يعدّون أنفسهم من أهل الحرم وبينهم وبين قريش حلف أو عقد ومن ثم صرحوا لمحمدٍ أنه لو قاتل قريشاً لما قاتلوا في صفه وهذا يدلنا على أن الأحلاف كان لها شأن كبير في حياتهم وفي علاقاتهم بعضهم بعضاً وافتخروا بأنهم أعز من سكن الحرم إلا أنهم لا يبغون الدخول في حرب معه ولا شك أن ذلك بعد أن توطدت أقدام دولة قريش في يثرب ومن ثم فإن عبارة (وأنا لنحبك) من قبيل المداهنة والزلفى والتملّق فلو كانوا صادقين في إدعائهم ذاك لنزحوا (هاجروا) إلى يثرب ومما يقطع برعبهم من محمد أن واحداً منهم نال منه فتبرأوا منه والرعب أحد الأسلحة الفتاكة التي ساهمت في نصر محمد على هؤلاء الأعاريب (نُصرت بالرعب مسيرة شهر)، وقد أباح محمد دمه وأهدره ولو أن بني عامر لم يفعلوا ذلك (لم يتبرأوا) لدلّ ذلك على أنهم يؤيدونه في عدوانه على محمد وهذا يكفي لشن الحرب عليهم.

وكما ارتعدت فرائص أولئك الرهط فخلعوا أسيد بن أبي أناس منهم فإنه قد ركبه الذعر وملأ أقطار نفسه الخوف ولم يجد بداً من الهرب (من الحرم) وأتى الطائف ورغم أنها كانت حتى ذلك الوقت في الشرك وتناوئ محمداً ولم تعتنق الإسلام وتركع لدولة قريش إلا بعد الفتح ــ كما أنها كانت حصينة محاطة بأسوار منيعة أخفق المسلمون عند عودتهم من فتح مكة في اختراقها بل سقط عندها عدد منهم قتلى رغم ذلك كله فإن أسيداً لم يشعر بالأمان ــ

وتضاعفت فرقه ورعبه عندما فتح محمد مكة ومَنّ على زعمائها وأهلها فقال لهم (اذهبوا فأنتم الطلقاء) وظل هذا اللقب يطاردهم طول حياتهم واقتنع أُسيد أخيراً أنه لا منجاة له إلا بتسليم نفسه لمحمد بعد أن أكد له أحد أقربائه أن محمداً لا يقتل من أتاه منيباً تائباً معتذراً فأقدم على ذلك وقبل محمد توبته وسعيه إليه متخشعاً متذللاً وأمر على الفور بإعلان إلغاء قرار إهدار دمه ـــ مخافة أن يقتل شخص لم يعلم بالعفو عنه ـــ ولم يكتفِ بذلك بل منحه كرامة بأن وضع يده على صدره ومنذ تلك الساعة و(أُسيد كان يدخل البيت المظلم فيضيء).

وإزاء هذه المنح الجزيلة: العفو عنه وإلغاء قرار سفح دمه وإعلانه للكافة ثم كرامة إضاءته للمكان فقد انطلق لسان أسيد بقصيدة خريدة مدح فيها محمداً ـــ بيد أن الذي يلفت النظر فيها (= أبيات القصيدة) أن الشاعر أو أُسيد قرر بكل وضوح أن محمداً غدا مهيمناً ومسيطراً على الجزيرة ومن فيها سواء أكانوا مُتْهِمِيْن أو مُنْجِدِيْن أهالي البوادي أو سكان الجبال، قاطني تهامة أو أبناء نجد ـــ وهي ليست قولة شاعر بل هي حقيقة ثابتة.

جاء في الخبر (وأتى أي أُسيد رسول الله ـــ ص ـــ وسارية قائم بالسيف عند رأسه يحرسه) وهذا يؤكد ما قلناه في الخبر السابق أن هناك سرية حراسة خاصة لمحمد ـــ وهي بخلاف كتيبة الحراسة الخاصة الملائكية كما جاء على لسان الحبر الذي حدد اختصاص كل منهما فالأولى تحرسه من الناس والأخرى تخصصت في حراسته من الجن ولو أن هذا لا يمنع من صد غيرهم عند اللزوم.

٤٨ ــ وفد عبد القيس

«بينما رسول الله ــ ص ــ يحدّث أصحابه إذ قال لهم: سيطلع عليكم من ها هنا ركب هم خير أهل المشرق فقام عمر ــ رضي ــ فتوجه نحوهم فلقي ثلاثة عشر راكباً فقال: من القوم؟ فقالوا: من بني عبد القيس، قال فما أقدمكم التجارة؟ قالوا: لا قال: أما إنّ النبي ــ ص ــ قد ذكركم آنفاً فقال خيراً ثم مشوا معه حتى أتوا النبي ــ ص ــ فقال عمر للقوم: هذا صاحبكم الذي تريدون، فرمى القوم بأنفسهم عن ركائبهم فمنهم من مشى ومنهم من هرول ومنهم من سعى حتى أتوا النبي ــ ص ــ فابتدره القوم ولم يلبسوا إلا ثياب سفرهم فأخذوا بيده فقبلوها، وتخلف الأشج وهو أصغر القوم في الركاب حتى أناخها وجمع متاع القوم وذلك بعين رسول الله ــ ص ــ وفي حديث الذراعي بن عمر العبدي عن البيهقي: فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبّل يد رسول الله ورجله، وانْتظر الأشبح حتى أتى عيبته فلبس ثوبيه، وفي حديث عن الإمام أحمد ــ رضي ــ فأخرج ثوبين أبيضين من ثيابه فلبسهما ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله ــ ص ــ فقبلهما وكان رجلاً دميماً فلما نظر رسول الله ــ ص ــ إلى دمامته أنه «لا يسقى في مسوك الرجال» جمع مسك وهو الجلد، إنما يحتاج من الرجل أصغريه لسانه وقلبه.

فقال له رسول الله ــ ص ــ: «إنّ فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة قال يا رسول الله أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: بل الله تعالى جبلك عليهما قال: الحمد لله قال: يا معشر عبد القيس ما لي أرى وجوهكم قد تغيّرت؟ قالوا: يا نبي الله نحن في أرض

وخمة وكنا نتخذ من هذه الأنبذة ما يقطع من بطونها فلما نهيتنا عن الظروف فذلك الذي ترى في وجوهنا. فقال ـــ ص ـــ: إن الظروف لا تُحلّ ولا تُحرّم ولكن كل مسكر حرام.

وأقبل القوم على تمرات لهم يأكلون، فجعل رسول الله ـــ ص ـــ يسمي لهم كذا وكذا قالوا: أجل يا رسول الله نحن أعلم بأسمائها منك فقال لهم: هذا البرني أمسى من خير تمراتكم.

كتب رسول الله ـــ ص ـــ إلى أهل البحرين أن يقدم عليه عشرون رجلاً منهم فقدموا على رأسهم عبد الله بن عوف الأشج وفيهم الجارود ومنقذ بن حيان وهو ابن أخت الأشج وكان قدومهم عام الفتح، فقيل يا رسول الله هؤلاء وفد عبد القيس قال: مرحباً بهم نعم القوم عبد القيس ـــ نظر رسول الله ـــ ص ـــ إلى الأفق صبيحة ليلة قدموا وقال: ليأتين ركب من المشرق لم يُكْرَهُوا على الإسلام، قد انضوا الركاب وأفنوا الزاد وبصاحبهم علامة، اللهم اغفر لعبد القيس أتوني لا يسألون مالاً هم خير أهل المشرق.

فجاءوا عشرين رجلاً رأسهم الأشج فسلموا عليه ـــ ص ـــ وهو بالمسجد فسألهم أيكم الأشج فقال: أنا يا رسول الله وكان دميماً فنظر إليه رسول الله ـــ ص ـــ فقال. روى الإمام أحمد عن الزراع بن عامر أنه قال: يا رسول الله ـــ إن معي رجلاً خالاً لي (مجنون) مصاباً فادع الله تعالى له. فقال: أين هو، ائتين به، قال فصنعت ما صنع الأشج، ألبسته ثوبيه وأتيته به، فأخذ طائفة من ردائه فرفعها حتى بان بياض إبطه، ثم ضرب ظهره وقال: اخرج عدو الله فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول ثم أقعده بين يديه فدعا له ومسح وجهه فلم يكن في الوفد أحد بعد دعوة رسول الله ـــ ص ـــ أفضل منه.

روى الشيخان عن ابن عباس ـــ رضي ـــ قال: قدم وفد عبد القيس على رسول الله ـــ ص ـــ فقال: مَن القوم؟ قالوا من ربيعة قال مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى ـــ فقالوا: يا رسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة وأنه يحول بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر وإنا لا نقبل

إليك إلا في شهر حرام فأمرنا بأمر فَصْلٍ إنْ عملنا به دخلنا الجنة... فأمرهم ونهاهم... قال: وفي القوم رجل أصابه جراحة كذلك قال: وكنت أخبئها حياءً من رسول الله.

عن أنس ــ رضي ــ أن وفد عبد القيس من أهل هجر قدموا على رسول الله ــ ص ــ فبينما هم عنده إذ أقبل عليهم فقال: لكم تمرة تدعونها كذا وتمرة تدعونها كذا حتى عدّ ألوان تمرهم أجمع فقال له أحدهم:

بأبي أنت وأمي يا رسول الله: لو كنت ولدت في هَجر ما كنت بأعلم منك الساعة أشهد أنك رسول الله، فقال: إن أرضكمُ رفعت لي منذ قعدتم إليّ فنظرت من أدناها إلى أقصاها فخير تمركم البرني الذي يذهب بالداء ولا داء معه.

أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجده ــ ص ــ في مسجد عبد القيس بجواثي من البحرين. وعن أم سلمة أن رسول الله ــ ص ــ أخّر الركعتين بعد الظهر بسبب اشتغاله بوفد عبد القيس حتى صلاهما بعد الظهر في بيتها.

قال رسول الله ــ ص ــ خير أهل المشرق عبد القيس.

وعن نوح بن مخلّد ــ رضي ــ أنه أتى رسول الله ــ ص ــ وهو بمكة فسأله ممن أنت؟ قال: أنا من صبيقة بن ربيعة فقال ــ ص ــ: خير ربيعة عبد القيس ثم الحي الذي أنت منهم أنا حجيج من ظلم عبد القيس».

تنبيهات

قدوم وفد عبد القيس قبل فتح مكة، إسلامهم تقدم على قبائل مضر الذين كانوا بينه وبين المدينة، ومساكنهم بالبحرين وما ولاها من أطراف العراق، جمعوا بعد رجوع وفدهم، سبقوا جميع القرى إلى الإسلام.

قال النووي هم أربعة عشر راكباً ــ وعند ابن منده: ثلاثة عشر.

رواية الدولابي كانوا أربعين راكباً ــ إذن الثلاثة عشر هم الرؤوس والباقون أتباع.

كانت مضر تبالغ في تعظيم شهر رجب ــ يخصونه بمزيد من التعظيم مع تحريمهم القتال في الأشهر الثلاثة الأخر.

منقذ بن حيان أحد بني غنم بن وديعة كان متجره إلى يثرب في الجاهلية فشخص إليها بملاحف وتمر من هجر بعد هجرة النبي ــ ص ــ إليها (إلى يثرب)، فبينما منقذ قاعد إذ مرّ به النبي ــ ص ــ فنهض منقذ إليه فقال له ــ ص ــ: أمنقذ بن حيان كيف جميع هيئتك وقومك؟ ثم سأله عن أشرافهم رجل رجل بأسمائهم فأسلم منقذ وتعلم سورة الفاتحة واقرأ باسم ربك ثم رحل قِبَل هَجَر ــ فكتب النبي ــ ص ــ معه إلى جماعة عبد القيس كتاباً فذهب به وكتمه أياماً ثم أطلعت عليه إمراته وهي بنت المنذر بن عائذ ــ وهو الأشج سماه النبي ــ ص ــ لأثر كان في وجهه وكان منقذ يصلي ــ رضي ــ فأنكرت امرأته ذلك وذكرته لأبيها المنذر فقالت: أنكرت على بعلي منذ قدومه من يثرب أنه يغسل أطرافه ويستقبل الجهة تعني القبلة فيحني ظهره مرة ويضع جبينه مرة، ذلك ديدنه منذ قدم ــ فتلافيا فتحاربا ذلك فوقع الإسلام في قلبه. ثم سار الأشج إلى قومه عَصَرٍ ومُحاربٍ بكتاب رسول الله ــ ص ــ فقرأه عليهم فوقع الإسلام في قلوبهم وأجمعوا على المسير إليه ــ ص ــ فسار الوفد فلما دنوا من المدينة قال النبي ــ ص ــ لجلسائه (أتاكم وفد عبد القيس خير أهل المشرق وفيهم الأشج العَصْري غير ناكثين ولا مبدلين ولا مرتابين إذ لم يُسْلِم قوم حتى وتروا).

تضمن خبر وفد عبد القيس معاني عديدة، متنوعة أي جمعت بين الكثرة والتنوع... ففي المفتتح نطالع أن محمداً أعلم جلساءه

بطلوعهم قبل قدومهم ثم نفحهم لقب (خير أهل المشرق) هكذا بإطلاق ودون تحديد وما إن وصلوا أثرب واستدلّوا على شخص محمد وقبل أن ينزعوا عنهم ثياب سفرهم قذفوا أنفسهم من على رواحلهم وبعضهم مشى والبعض الآخر هرول وتسابق الجميع على تقبيل يد محمد، وفي القديم والحديث وفي كل المجتمعات ولدى سائر الشعوب فإن تقبيل اليد من رجل لآخر دليل الخشوع ورمز الخضوع وإمارة على الاستسلام وشارة على الانقياد وآية على الإتباع وعلامة على الإذعان وعمل العبد قيسيين هذا من بدئه إلى منتهاه يقطع بأمرين:

أ ــ عِظم سلطان محمد.

ب ــ إن ما يقال عن أنفة العربي وكبريائه هو محض خرافة مثل خرافات أيسوب بل هم على النقيض من أسرع الشعوب إظهاراً للذلة وتقديماً للخشوع إذا ووُجهوا بمن يغلبهم ويدوّخهم.

ولقد نقل إلينا البيهقي أن تقبيل بني عبد القيس تجاوز اليد إلى الرجل وهذا كما هو متعارف عليه بين الجميع في الشرق والغرب والشمال والجنوب برهان على نهاية الانكسار وغاية التسليم ونضع هذا الخبر الذي أورده البيهقي وهو أحد مصنفي الحديث الموثوقين ومؤلفاته تنال عظيم الاحترام لدى أهل السنة والجماعة ــ نضعه تحت أنظار الذين تأخذهم الحميّة وتركبهم العصبية عندما يدّعون أن النفور من الذلة والحفاظ على الكرامة من أهم صفات ابن يَعْرب فها هو أحد ثقات نقلة أحاديث محمد يقدم إلينا دليل النفي وأن حفيد يشْجُب لا يجد غضاضة في تقبيل أرجل سيده وزعيمه وكبيره وقائده... الخ. إنّ اليعربي يظهر خنزوانته وكبرياءه على من لا حول لهم ولا قوة مثل الشعوب التي قمعها بحد السيف أما

عندما يلاقي من يصده ويقف أمامه ويقهره فلا مانع لديه من أن يبوس القدم(٥٨). وينقلب من أسد هصور وهزبر مفترس وليث متوحش إلى حمل وديع وقط أليف وحمامة لطيفة ولا يلفى في ذلك أي مفارقة(٥٩) لأن من ركائز خلقه أن يلبس لكل حالة لُبوسها.

وفي كل موضع يؤكد محمد عظم خلقه وحسن سياسته فنراه يحيي رجلاً بالغ القبح، شديد الدمامة (الأشج) ويتألفه ويزيل عنه ما قد يشعر به من خجل لمخاصمة القسامة إياه وابتعاد الوسامة عنه ويبلغه أن وضاءة الرجل ليست بذات بال ولا يؤبه بها بل العبرة فيه (= الرجل) بـ لسانه وقلبه وكان القلب يعني آنذاك العقل وأن فيه (الأشج الدميم) خصالاً يحبها رب محمد ومحمد، ولا شك أن هذا اللقاء الجميل له قد رفع روحه المعنوية وأزال عنه كل اضطراب خاصة وأنه طرح بين يدي محمد تقدمة طيبة وهي بوس يديه.

سؤال بني عبد القيس عن الظروف (الأوعية) والأنبذة يوثق حقيقة ذكرناها آنفاً وهي أن أولئك العُربان نظراً لانخفاض مستواهم الحضاري وانعدام أي أنشطة (فنية ــ اجتماعية ــ أدبية... الخ) لديهم يصرّفون فيها طاقاتهم ويفرغون فيها نوازعهم لم يجدوا سوى أمرين: مفاخذة النسوان ومعاقرة المزة (الخمر)، ولما جاء الإسلام وحرّم عليهم شرب الخندريس أوقعهم في حيس بيس فطفقوا يختلقون المعاذير (ورد في هذا الخبر نحن في أرض وخمة) ليستمروا في تعاطيها بيد أن محمداً كان حاسماً، صارماً كحد السيف ففوّت عليهم غرضهم.

---

(٥٨) في المعجم الوسيط، **باسه** بوساً: قبّله، فارسي مُعرّب.
(٥٩) تقول العامة في مصر: حاجة عادية خالص.

جاء العبد قيسيون إلى محمد عام الفتح أي أنهم تريثوا حتى تأكد فلج محمد ونصره ومع ذلك فقد أحسن استقبالهم وعلة تأخرهم في الوفود عليه هي أنهم على قدر وفير من العز والشرف والثروة ودليله في السياقة (أتاني قوم لا يسألون مالاً) وقد درجوا في ذلك على سنة القبائل العريقة وكان محمد يتوقع مجيئهم إليه في كل لحظة (.. سيطلع عليكم من ها هنا ركب... نظر رسول الله ــ ص ــ إلى الأفق صبيحة ليلة قدموا وقال: ليأتين ركب من المشرق..) وهكذا كان ينتظر وفادتهم ما بين عشية وضحاها... لأن تباطؤهم وهم القبيلة الكبيرة أمر مقلق... فإما أن يندب إليهم من يطأ حماهم ويقتل رجالهم ويسبي ذراريهم ونسوتهم إذ أنهم رفضوا اعتناق الدين ــ أو يتركهم على حالهم وهذا إخلال صريح بالشعار المعمول به (الإسلام أو السيف) كما يُعطي غيرهم من العُربان حجة لأن يحذوا حذوهم وهذا ينقض عرى دولة قريش عروة إثر أخرى وأحلى الخيارين أمرّ من العلقم. فلما وصلوا إلى أثرب كان سروره بهم كبيراً ودعا لهم وكشفنا فيما سلف عن مظاهر ترحيبه الأخرى بهم بل إنه لانشغاله بقدومهم أخّر ركعتيّ الظهر ولم يصلهما إلا في بيته ولم يكن يُقْدِم على ذلك إلا لشأن خطير.

كان محمد على علم تام بأحوال الجزيرة وبقاعها كافة فنراه عندما قابل رجلاً منهم في مكة (سأله عن أشرافهم رجلاً رجلاً يسميهم بأسمائهم. حتى عدّ ألوان تمرهم أجمع فقال له أحدهم: (بأبي وأمي يا رسول الله لو كنت ولدت في هَجَر لما كنت بأعلم منك الساعة). هكذا نجده (= محمداً) على معرفة واسعة ببقاع الجزيرة كافة وأسماء زعمائها وأشرافها وزروعها ومحصولاتها وهذا أمر بديهي لأن مشروع سيطرة دولة قريش على أنحاء الجزيرة كافة

كان يحتّم ذلك ويقتضيه ويتضاعف إعجابنا بمحمدٍ عندما نعرف أن موطن بن قيس: هجر بالبحرين أي بينها وبين حاضرة الدولة: أثرب ألوف الأميال ــ ولعل الذين يمارون في هذا المشروع والتخطيط الذي أعد له منذ الجد قصيّ بن كلاب يجدون في هذه الأخبار وأمثالها وهي بالعشرات إنْ لم نقل بالمئات ما يقنعهم به.

يطلعنا الخبر على تقليد كان سائداً في تلك الفترة السابقة على الإسلام وهو الأشهر الحُرُم التي يحرم فيها القتال: ثلاثة سَرْد وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد فرد هو رجب وكان موضع تعظيم منهم بل مبالغة في التعظيم وقد رويت أحاديث عن محمدٍ فيها أيضاً تبجيل له ولا غرابة في ذلك فإنّ محمداً رغم تفرده وفذاذته وعبقريته فإنه ابن مجتمعه كما ورد بشأن الشهر الحرام في القرآن ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾(٦٠). فكما حرّم السابقون عن الإسلام الحرب في هذه الأشهر كذلك فعل القرآن ووصف أي قتال يقع فيه بأنه كبيرة من الكبائر وحذّر إحلال الشهر الحرام ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحلّوا شعائر الله ولا الشهر الحرام﴾(٦١). وسبق أن قلنا إن كثيراً مما كان سائداً قبل الإسلام انتقل إليه إما بقضه وقضيضه وإما مع شيء من التعديل والتحور ولا دهش في ذلك بل الدهش في نقيضه لأن (النصوص) اِنبثقت في داخل حنايا ضلوع تلك البيئة فلا بد إذن أن تحمل قسماتها وتنطبع ببصماتها ولو كان هذا المبدأ غير صحيح أو حتى محل شك فلماذا لم تجيء النصوص ممهورة بِخواتم البيئة

---

(٦٠) **القرآن الكريم**، سورة البقرة، الآية ٢١٧.
(٦١) **القرآن الكريم**، سورة المائدة، الآية ٢.

الزراعية أو الباردة... أو موشومة بـ بطابعها[٦٢]. وتحريم القتال في الأشهر الحرم مرده أن تلك الأشهر كانت شهور الحج إلى كعبة مكة (كانت في جزيرة العرب ٢٣ كعبة) والذي كانت تقام على حوافيها أسواقٌ تجارية حافلة بالبضائع والعروض فكان من الحتم اللازم الاتفاق على وقف القتال حتى يتمكن الناس من أداء مناسك حجهم[٦٣].

وأحاطنا الخبر علماً بـ معجزة وهي رفع أرض هجر لمحمدٍ لينظر فيها ويعلم أنواع تمورها وأيها يذهب بالداء ومعجزة أخرى وهي شفاء مجنون وذلك من طريق إخراج الجن ــ الذي كان يتلبسه من جسده وما إن غادره عدو الله وفارق بدنه حتى غدا صحيحاً بل صار أعقل أفراد الوفد وأنفذهم بصيرة وأبلغهم حجى ومحمد عندما فعل ذلك كله باشر مهمته كنبي ــ وقيام عبد القيس بإحضار المجنون معهم في رحالهم لكي يشفيه لهم محمد ثم طلبهم ذلك منه ــ يؤكد ما سبق أن سطرناه من أن النبوة تمتزج في عقولهم بإظهار المعجزات تأثراً منهم بالصورة التي رسمها لهم اليهود والمسيحيون (يسمونهم النصارى) عن أنبيائهم والمخاريق التي كانوا يقومون بها ــ وشفاء محمد للمجنون وأخراجه الجن من جسمه يذكّرنا بالمعجزات المماثلة التي كان يظهرها ابن مريم إثباتاً لنبوته فقد كان ضليعاً في ذلك.

(٦٢) عن تأثر الإسلام بالحقبة السابقة عليه فضلاً نرجو الرجوع إلى كتابنا **الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية**، دار سينا للنشر، القاهرة. مرجع سبق الإلماع إليه وقد ظهرت له طبعة ثانية أخيراً بالاشتراك مع مؤسسة الانتشار العربي، بيروت.

(٦٣) **المناسك** التي كانوا يؤدونها آنذاك جميعها انتقلت حذوك القذة بالقذة إلى الإسلام باستثناء تنقية (التلبية) من ألفاظ الشرك، ومزاولة البيع والشراء في الأسواق التي أشرنا إليها.

والبعض يعلل ظهور المعجزات (الصحية/ الطبية) مثل شفاء الأعمى والأبرص والمجذوم على يد عيسى أن قومه كانوا قد برعوا في الطب فلا بد أن تأتي معجزاته من النوع ذاته وهذا كلام غير صحيح ولا يمت إلى العلم والتاريخ بأدنى صلة فاليهود الذين خاطبهم ابن مريم كانوا قوماً متبدّين لم ينبغوا لا في الطب ولا في غيره من العلوم الطبيعية (التجريبية) وكانت بيئتهم من أشد البيئات تخلفاً. وهكذا يتهاوى هذا التعليل الفاسد ــ الذي يماثل التعليل الذي طرحوه بشأن المعجزة التي جرت على يد موسى وهي السحر بمقولة أن قدامى المصريين قد برعوا فيه إذن ضربة لازم أن يبدي لهم نبيهم معجزة في ذلك المضمار لكي تقهر دهاقنته وتغلب أساتذته.

ومرة أخرى يثبت أنه تعليل خائب لأن المصريين القدامى برعوا في الكثير: في الفلك والعلوم والطب (معجزة التحنيط ما زالت حتى الآن سراً غامضاً) والرياضيات بما فيها الهندسة والزراعة وفنون الحرب والمباني... فلماذا اختير السحر بالذات وحصراً وتحديداً لموسى ليؤكد للمصريين القدماء نبوته.

كتمان منقذ بن حيّان للكتاب الذي بعث به محمد معه إلى (جماعة عبد القيس) مرجعه في تقديرنا إلى خوفه من القتل بيد أنه لم يستطع أن يخفي إسلامه وألا يباشر طقوسه في بيته مما لفت نظر زوجته فأبلغت عنه أباها المنذر بن عائذ الذي جادله حتى وقع الإيمان في قلبه وذاق حلاوة الإسلام.

هذا الشطر من الخبر يدلنا على أن رهط بني عبد القيس ظلوا على عقيدتهم المشركة حتى اللحظات الأواخر مثل غيرهم من العشرات غيرهم من القبائل والأفخاذ والبطون... الخ كما أنه ليس

من المعقول أن يتيسر نقلها من الشرك إلى الإسلام خلال فترة وجيزة حتى يُنسب إليهم الارتداد عنه وذلك في مفتتح خلافة ابن أبي قحافة أي أقل من سنتين وهل إسلام عشرة أشخاص أو عشرين أو خمسين... الخ يعني إسلام أفراد القبيلة كلها بحيث يعتبرون جميعهم مرتدين فيُحاربون ويُقاتلون ويوقع عليهم عقوبة الردّة وتفعل بهم الأفاعيل التي نُفذت على الأيدي المباركة لقواد أبي بكر وخاصة ابن الوليد؟

٤٩ ــ عدّي بن حاتم

«قال عدّي بن حاتم ــ رضي ــ: بعث رسول الله ــ ص ــ ولا أعلم أحداً عن العرب كان أشد كراهية له حين سمع به مني، كنت شريفاً ونصرانياً وأسيراً في قومي بالمِرْباع وملكاً في قومي، فلما سمعت به كرهته أشد ما كرهت شيئاً، فقلت لغلام لي عربي راعياً لأبلي: لا أبا لك أعدد لي من إبلي أجمالاً ذُللاً سِماناً فاحبسها قريباً مني فإذا سمعت بجيش لمحمد وطئ هذه البلاد فآذِنّي. آتاني ذات غداة فقال: يا عدّي ما كنت صانعاً إذ غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن فإني قد رأيت فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد، فقلت قرّب لي أجمالي فقربها فاحتملت بأهلي وولدي وقلت: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام فسلكت الجوشية (حصن من حصون حمص). فخرجت إلى أقصى العرب مما يلي الروم ثم كرهت مكاني أشد مما كرهت مكاني الأول وخلّفت بنتاً لحاتم في الحاضر ــ فجاءت خيل رسول الله ــ ص ــ فأخذوا عمي وناساً ــ فلما قدمت الشام أقمت بها وتخالفني خيل رسول الله ــ ص ــ فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت فقدم بها عليه ــ ص ــ في سبايا طيء وقد بلغه هربي إلى الشام. جُعلت ابنة حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تُحبس فيها ــ فمرّ رسول الله ــ ص ــ وكانت امرأة جزلة يعني عاقلة.

وفي حديث عليّ ــ رضي ــ: لما أُتي بسبايا طيء وقفت جارية جمّاء (لا قرن لها)، حمراء (بيضاء) لَعْساء (في شفتها سواد)، ذَلْفاء (ارتفاع طرف الأنف مع صغر أرنبته) عَيْطاء (طويلة العنق في اعتدال)، شمّاء الأنف (مرتفعة قصبة الأنف)، درْماء الكعبين (لا حجم لعظامها)

خَدَلَجّة الساقية (ممتلئة الساقين)، لفّاء الفخذين (متدانيتهما من السمن)، خميصة الخصرين (أي ضامرتهما)، ضامرة الكَشْحيْن (الكشح ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف)، مصقولة المتْنَيْن (مضمرتهما)، قال فلما رأيتها أعجبت بها وقلت لأطلبن إلى رسول ــ الله ــ أن يجعلها فيئاً، فما تكلمت أُنسيت جمالها لما سمعت من فصاحتها.

فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلّي عنا ولا تُشمت بنا أحياء العرب فإني ابنة سيد قومي إن أبي كان يحمي الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويكسو العاري ويُقري الضيف ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم الطائي.

فقال النبي ــ ص ــ يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً ولو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه خلّوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله يحب مكارم الأخلاق.

وفي حديث ابن اسحق: فقالت يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد فامنن عليَّ مَنّ الله عليك ــ قال من وافدك؟ قالت: عدّي بن حاتم قال: الفارّ من الله ورسوله قالت ثم مضى وتركني حتى إذا كان الغد مرّ بي وقد يئست منه فأشار إليّ رجل من خلفي أن قُومي كلميه فقمت إليه فقلت... فقال ــ ص ــ قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم أذنيني، فسألت عن الرجل الذي أشار إلى أن أكلمه فقيل عليّ بن أبي طالب ــ رضي ــ وأقمت حتى قدم ركب من بلّى أو قضاعة ــ وإنما أريد أن آتي أخي بالشام، فجئت رسول الله ــ ص ــ فقلت يا رسول الله قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ، فكساني وحملني وأعطاني نفقة فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

قال عدّي: فوالله إني لقاعد في أهلي إذ نظرت ظعينة تصوّب إليّ لؤمنا. قال فقلت: ابنة حاتم قال: فإذا هي هي، قال فلما وقفت عليَّ انْسلخت تقول: القاطع الظالم اِحتملت بأهلك وولدك وتركت بقية

والدك وعورتك. قال: قلت: أي أُخيّة لا تقولي إلا خيراً فوالله ما لي عذر، لقد صنعت ما ذكرت. ثم نزلت فأقامت عندي، فقلت لها وكانت امرأة حازمة: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى الله أن تلحق به سريعاً فإن يكن نبياً فللسابق فضله فقد أتاه فلان فأصاب منه ــ وإن يكن ملكاً فلن تزل في عز اليمن وأنت أنت، قلت والله إنّ هذا للرأي. فلما بلغني ما يدعو إليه من الأخلاق الحسنة ما قد اجتمع إليه من الناس، خرجت حتى أقدم على رسول الله ــ ص ــ المدينة فدخلت عليه وهو في مسجده وعنده امرأة وصبيان أو صبي وذكر قربهم منه ــ ص ــ فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر فسلّمت عليه: فقال من الرجل؟ فقلت أنا عديّ بن حاتم، فقام فانْطلق بي إلى بيته فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجته فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك، ثم مضى بي حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من آدم (جلد) محشوة ليفاً مقدّمها (فقذفها) إليّ فقال: اِجلس على هذه، قلت: يا رسول الله بل أنت فاجلس عليها قال: بل أنت فاجلس عليها وجلس ــ ص ــ بالأرض ــ فقال:

يا عديّ أخبرك ألا إله إلا الله ــ فهل من إله إلا الله وأخبرك أن الله تعالى أكبر فهل من شيء هو أكبر من الله عز وجلّ ثم قال: يا عدّي أسلم تسلم، فقلت: إني على ديني قال: أنا أعلم بدينك، فقلت أنت أعلم مني بديني ــ قال: نعم يقولها ثلاثاً.

«ألست ركوسياً؟» فرقة من النصارى والصابئين ــ فقلت: بلى ــ قال: ألست ترأس قومك؟ قلت: بلى، قال: أولم تكن تسير في قومك بالمرباع، قلت: بلى والله، وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يُجهل قال: فإن ذلك لم يكن يحلّ لك في دينك. ثم قال: يا عدّي لعلك إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين إن رأيت خصاصة مَن عندنا: فوالله ليوشكن المال أن يفيض منهم حتى لا يوجد من يأخذه ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم. فوالله

ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت قال ــ ص ــ هل رأيت الحيرة، قلت: لم أرها وقد علمت مكانها قال: يا عدّي فإن الظعينة سترحل من الحيرة تطوف بالبيت في غير جِوارٍ لا تخاف أحداً إلا الله عز وجل والذئب على غنمها فقلت في نفسي: أين ذُعّار طيء الذين سَعّروا البلاد[٦٤]؟

قال: فلعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى المُلك والسلطان في غيرهم والله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم ــ لتُفتحن عليهم كنوز كسرى بن هرمز.

ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يُخرج ملء كفيه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه ــ قال عدّي: فأسلمت فرأيت وجه رسول الله ــ ص ــ قد استبشر. ورأيت الظعينة ترحل من الكوفة حتى تطوف البيت لا تخاف إلا الله عز وجل وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ولئن طالت بكم حياة سترون ما قال أبو القاسم ــ ص ــ بنت حاتم اسمها سَفَانة[٦٥].

لما كان البخل طبعاً في بني يعرب والشح غريزة فيهم والكزازة جبّلة لديهم فلم يشتهر فيهم بالكرم ولم يُعرف بالجود ولم يؤثر عنه السماحة سوى نفر محدود لا يتجاوز عدد أصابع يد واحدة. ويأتي على رأس هؤلاء حاتم الطائي وقد وصفه محمد بأنه يحب مكارم الأخلاق وإكراماً له فقد أطلق إسار ابنته».

الأوصاف التي وردت في الخبر لابنة حاتم الطائي تمثل نموذج جمال المرأة في نظرهم وكلها أوصاف حسّية فقد تناولت الشعر والشفتين والأنف والعنق والكعبين والساقين والفخذين والخصرين... الخ. وكان امتلاء الساقين في نظرهم دليلاً على أن المرأة تعطي متعة كاملة عند ركوبها وعلامة لا تخيب على ذلك

---

(٦٤) **الذُعّار**: الذين يفزعونهم. **سَعّروا**: أوقدوا.
(٦٥) **الحَيْرة**: البلد القديم بظهر الكوفة ومحلة معروفة بـ نيسابور.

ويكاد الهوس يضربهم إذا صادفوا مَرَة بهذا الوصف وبعد الساقين الخِدلّجين أو إذا شئت الدقة هما ينبئان عن سمن الفخذين المُيزة المصليّة (التالية) التي تملك عليهم ألبابهم بل تُطِيْش أحلامهم. ولا غرابة في اقتصارهم على الأوصاف الجسدية للمرأة وميلهم إلى اشتراط كونها ضخمة وثيرة ممكورة فهذا هو شأن البدائيين والمبتدين الذين نفرت منهم الحضارة وخاصمتهم المدنية وتجافى عنهم الرقي وأشاحت بوجهها عنهم الثقافة.

قلنا قبل ذلك أن قبيلة طيء من القبائل التي انتشرت بين أفرادها المسيحية، وبطل الخبر: عدّي يقول عن نفسه إنه كان نصرانياً (= مسيحياً) شريفاً وملكاً في قومه ويسير فيهم بـ (المرباع) ومدلوله أن سادة القبيلة كانوا نصارى (مسيحيين). والمِرْباع هو ربع الغنيمة يختص به الزعيم أو الرئيس أو العميد في القبيلة وكذا بالصفّي والنشيطة والصفّي هو ما يصطفيه لنفسه مثل عبد أو أمة أو درع أو سيف أو مجنّ... أما النشيطة فهي ما كانوا يغنمونه وهم في طريقهم إلى موضع الموقعة أي إلى مكان النهب والسلب.

وفشو المسيحية في عدد من القبائل الكبيرة مثل طيء وتميم وإياد وحنيفة يفسر لنا شراسة (حروب المرتدين) والقساوة التي أظهرها إبّانها خالد بن الوليد وغيره إزاء العدو. فتلك القبائل كانت ذات أديان تدافع عنها وكما قلنا قبل قليل: إن إسلام وافدها على يد محمد لا يعني إسلام أفراد القبيلة على بكرة أبيهم ـــ والحميّة التي أظهروها في معاركهم تقطع بعمق إيمانهم بعقائدهم إذن ليس الأمر كما تصوره لنا الكتابات المجانية الهشّة وهو أن القبائل المرتدة اِستولى على عقولها أولئك المتنبئون الكذبة خاصة أنها (= تلك الكتابات) صورتهم لنا في مناظر هزلية ساخرة.

هذا بالإضافة إلى أسباب عصبية واقتصادية واجتماعية عاونت على إذكاء نار تلك الحرب وبتعبير أقرب إلى الصحة: كانت هي وراء انفجارها التي يمكن أن توصف بأنها حروب وطنية دافعت فيها القبائل عن مواطنها ومصالحها بالإضافة إلى أديانها التي هي بدورها سماوية كتابية فضلاً عن أن لها فضل السبق ومن ثم نخلص إلى وجوب دراسة تلك الحروب دراسة علمية موضوعية ــ بعيداً عن السطيحة والوقوع تحت تأثير العواطف الفجّة.

ومن الخبر ندرك أن جيوش دولة قريش غطت الجزيرة حتى وصلت إلى مشارف الشام (مما يلي الروم) ونذكّر هنا بما ورد في الكتب التراثية في السيرة والتاريخ أن محمداً دوّخهم وغلبهم ووطئهم ومصداق ذلك ما نقرأه في الخبر أن جيوش دولة قريش في أثرب داست أرض أو حمى قبيلة طيء ومن هرب منهم لاحقه حتى حدود الدولة البيزنطية وتأخذ ما تصادفه في طريقها من مغانم ورجال ونساء منهم عم عدّي بن حاتم وأخته سفانة الحسينة الجميلة الجزلة التي دفعت وضاءتها وحلاوتها وقسامتها علياً ابن عم محمد إلى التفكير في طلبها منه ليتخذ منها جارية للمتعة ناسياً أنه زوج ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين ولم يفكر كيف يرضى محمد أن يدخل على ابنته الحبيبة هذا الضرر المبين بأن يمنحه تلك المرأة الفاتنة الحلوة.

ويطلعنا الخبر على أن هناك حظيرة أعدت خصيصاً لحبس السبايا فيها مما يشي بنظرتهم إلى النسوان وأنه لا فرق بينهن وبين المواشي وبأن عددهن كان وفيراً ولا غرابة في ذلك لأن جيوش دولة قريش المظفرة دعكت الجزيرة بأسرها أو أغلب أقطارها وفي كل مرة كانت تؤوب بقطار من السبايا الفاتنات... يُودعن الحظيرة

الميمونة كالحيوانات انتظاراً لتوزيعهن على الصحبة المباركة مكافأة لهم على جهادهم وبلائهم أو يُبعن في الأسواق ويُشترى بثمنهن كراع وسلاح وحلقة لتواصل الجيوش فتوحاتها المظفرة مزيداً من القبائل وتعود بمزيد الإماء الوسيمات والأسيرات الوضيئات... الخ.

وفي كل مرة يثبت محمد أنه جدير بالوصف الباهر الذي نعته به القرآن ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[٦٦] فلقد عفا عن سفانة بنت حاتم الطائي تقديراً لمناقبه الجليلة ومآثره الفاخرة وفعاله الحميدة وصنائعه السامية ولما كان محمد يحدث عن نفسه (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وهذا في رأينا هو جوهر دعوته ولب تعاليمه وقلب مبادئه ومن ثم فعندما رأى شخصاً حقق تلك المبادئ وحوّلها من مُثُل عليا يُنظر إليها فقط إلى واقع ملموس يراه الناس بأعينهم ويسمعونه بآذانهم ويلمسونه بأيديهم قرر تكريم ذلك الشخص بالعفو عن اِبنته ورد حريتها إليها وتجنيبها عار الأسر وذل الرق ومهانة العبودية. ولم يكتفِ بذلك بل أنعم عليها وكساها وحملها أي أعطاها ركوبة وسلمها نفقتها... الخ. ولا وجه للعجب فالجواد يعرف قدر الأجواد.

وأتى هذا الجميل الذي صنعه محمد في بنت حاتم أكله ولا غرو فهي من بيت ملك تربت على فضائل الأخلاق وعلى رأسها الإقرار بالمعروف وشكر أهله الذين أسدوه. ومن ثم فقد نصحت أخاها عدياً أن يلحق بمحمد فسواء أكان نبياً أو ملكاً فهو الكاسب في الحالين والرابح على الفرضين فلو كان نبياً كان من صحبه السابقين وإن كان ملكاً فسيعرف له مكانته إذ ما زال تكريم محمد إياها ماثلاً في ذهنها ولما كانت عاقلة لبيبة فقد نزل أخوها

(٦٦) **القرآن الكريم**، سورة القلم، الآية ٤.

عدّي على رأيها وامتطى راحلته وتوجه إلى يثرب ويهمنا في هذا الشطر من الخبر الفرضان اللذان طرحتهما سفانة اِبنة حاتم عن محمد فهو إما نبي وإما ملك ـــ ولا ثالث لهما ـــ ولعل ما ورد في التوراة عن أنبياء بني إسرائيل وملوكهم هو الذي أوحى لها بهذين الفرضين وإطلاعها على قصص التوراة أمر وارد وغير مستبعد فأخوها نصراني وهي من بيت عز وشرف فمعرفتها القراءة والكتابة مسألة محتملة خاصة وأنها كما جاء في الخبر عاقلة لبيبة حازمة فلا يُستبعد عليها ذلك. وعندما قابل أخوها عدّي محمداً وعاين أحواله عن قرب اِنتهى إلى أنه من المستحيل أن يكون ملكاً ومن ثم بقي الفرض الآخر وهو أنه نبي.

الحوار الذي دار بين عدّي ومحمد في البيت بالغ الخطر فهو قد كشف لنا عن علم محمد بالمسيحية وفرقها ومذاهبها ـــ ولم يترك لنا فرصة للحدس والتخمين بل قال صراحة (أنا أعلم بدينك) ومحمد لا ينطق عن الهوى ويقول الحق في الرضى والسخط وعندما يقطع بأنه أعلم (صيغة أفعل التفضيل) بدينه فلا مجال للتشكيك في ذلك ثم قدّم دليل الثبوت على ذلك العلم حينما ذكر لعدّي بن حاتم الفرقة التي ينتسب إليها ثم ذكر له الأعمال التي يقوم بها وجبهه أنها منافية لتعاليم الدين الذي يؤمن به ولو كان الأمر على خلاف ذلك لجادله (عدّي في ذلك) ولكنه أُلقم حجراً والتزم الصمت، ليس ذلك فحسب بل تأكد لديه أنه نبي حقاً ولكن من أين لمحمدٍ هذا العلم الغزير بالمسيحية وتعاليمها وفرقها... الخ.

قلنا قبل ذلك إنّ هناك فترة تبلغ ما يقرب من خمسة عشر عاماً من حياة محمد لم تسلط عليها كتب السيّر والتواريخ الضوء

الكافي وهي التي تبدأ منذ اقترانه بخديجة هي السيدة البالغة الثراء وكان سنّه آنذاك خمسة وعشرين عاماً حتى بداية إعلانه لدعوته وكان بلغ الأربعين.

لقد أسقط مال خديجة عن كاهل محمد عبء السعي ومشاقّه على الرزق اللذين عانى منهما قبل الزواج وأتحفه بفرصة ذهبية تفرغ فيها للتأمل والبحث والاختلاط بأصحاب الأديان والعقائد والملل المختلفة من الذين كانت تعج بهم مكة... كذلك اِتصل محمد بورقة بن نوفل ان عم خديجة وهو قد لعب دوراً مؤثراً مع محمد فورقة كان من الأحناف وقيل إنه كان على دين ابن مريم... والثابت أنه كان يقرأ اللغة العبرية ويترجم من التوراة والإنجيل ولا شك أنه عقدت بينهما جلسات طويلة تحاورا فيها في كل الأمور التي تتصل بالأديان والعقائد السائدة آنذاك، من حصيلة ذلك تراكمت لدى محمد معلومات غزيرة عن الأديان المعروفة في ذياك الوقت ــ هذا عن المرحلة المكية وهي التي نسميها (فترة التأسيس). أما في يثرب فقد كانت لمحمدٍ اجتماعات مع أحبار يهود وجرت بينهما مساجلات ومما يؤسف له أن كتب السيرة لم تدونها لنا.

كذلك هناك عدد من علماء اليهودية والمسيحية دخل الإسلام مثل أُبيّ بن كعب وتميم الداري وكانوا مقربين من محمد ومن طبائع الأمور أن يحاورهم في عقائدهم السابقة التي كانوا عليها قبل إسلامهم ــ أما سليمان الفارسي فهو بحر لا يُنزف من العلوم الدينية لأنه قطع رحلة طويلة في معرفة الأديان ودارستها والعقائد وكانت له جلسات طويلة في هدأة الليل مع محمد حتى أنّ زوجه الأثيرة عائشة تشكّت منها ــ هذا ما حصّله محمد في المرحلة الأثربية يضاف إلى ما جمعه في التأسيس بمكة فتَشكّل من

مجموعها علمٌ غزيرٌ بمختلف العقائد والأديان والملل والنحل ونخرج من ذلك إلى أنه عندما قال لعدّي بن حاتم إنه أعلم بدينه منه كان صادقاً كما هو شأنه في كل أحواله وأقواله ولم يكتف بهذا القول بل قدّم البرهان على صدقه ولو أنه في غير حاجة إلى ذلك فقد أخبر عدّياً أنه ركوسي وأن أفعاله وممارساته لا تتفق مع مبادئ الركوسية، ما اضطر عدّياً إلى أن يصرّح (وعرفت أنه نبي مرسل).

وقدم لنا الخبر نبوءته أو نبوءات ذكرها محمد لعدّي سوف يراها إن طالت به الحياة وأكد عدّي أنه رآها تحققت والذي يهمنا فيها (تلك النبوءات) هو ثقة محمد التي لا حدود لها في أن سلطان دولة قريش سوف يمتد إلى فارس والعراق وأنها ستضع يدها على كنوز كسرى ويسكنون قصوره البيض. وهذه النبوءة فضلاً عن أنها تشي بالتفاؤل فإنها إيحاء لخلفائه وصحبه من القرشيين حصراً وتحديداً بضرورة الخروج من حدود الجزيرة والانسياح وراء تخومها واجتياح دولة الأكاسرة.

بيد أنه لماذا خَصّ محمد دولة أنوشروان بهذا الإيحاء؟

هناك عدة أسباب منها أن محمداً عندما بعث برسالة إلى كسرى مزقها. وقال لرسول محمد لولا أن الرسل لا تقتل لقطعت رأسك ـــ هذا الرد الحقير المملوء بالكبرياء والسفالة غيّر قلب محمد عليه ودعا عليه بتمزيق ملكه. ولكن لا مانع بجانب الدعاء أن يحث تبعه على أن يتولوا بأنفسهم تمزيق ذلك الملك ـــ هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنّ دولة فارس هي الجار الجُنُب للجزيرة ومن ثم فهي أولى بأن تطأها جيوش دولة قريش وليس من المنطق ولا من حسن الإستراتيجية تخطّيها والذهاب إلى الدولة البيزنطية

البعيدة ــ وآخر الأسباب وأجدرها بالالتفات هو أن محمداً وهو السياسي المحنك والقائد الفذ لا بد أنه كان على علم بأحوال دولة بني ساسان وأنها تترنح وأن جيوش دولة قريش سوف تجدها لقمة سائغة[٦٧] وقد تحقق ذلك كله. وهكذا يمكن أن نسمي تلك المقولة من محمد أنها استراتيجية في صورة نبوءة وسواء كان هذا أم ذاك فإنها أتت أُكلها بصورة مذهلة على يد خلفائه.

(٦٧) لمعرفة أسباب تردّي أحوال دولة ساسان يمكنك الرجوع إلى كتابنا **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية**، مرجع سابق.

٥٠ ــ وفد بني عُذرة[٦٨]

«قدم على رسول الله ــ ص ــ في صفر سنة تسع وفد عذرة إثنا عشر رجلاً فيهم جمرة بن النعمان العذري وسليم وسعد إبنا مالك وآخرون فنزلوا دار رملة بنت الحارث النجارية هم جاءوا إلى النبي ــ ص ــ فسلّموا بسلام أهل الجاهلية فقال: من القوم فقال متكلمهم: من لا تنكر نحن بنو عُذرة أخوة قصيّ لأمه نحن الذين عضدوا قصياً وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر ولنا قرابات وأرحام فقال لهم: مرحباً بكم وأهلاً ما أعرفني بكم فما منعكم من تحية الإسلام، قالوا: كنا على ما كان عليه آباؤنا فقدمنا مرتادين لأنفسنا وقدمنا وقالوا: إلام تدعو؟ فقال: أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن تشهدوا أني رسول الله إلى الناس جميعاً فقال متكلمهم فما وراء ذلك من الفرائض ــ فأجابهم.. فقال المتكلم: الله أكبر نشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله قد أجبناك إلى ما دعوت إليه ونحن أعوانك وأنصارك يا رسول الله ــ إن متجرنا إلى الشام وبه هرقل فهل أُتيت في أمره بشيء؟

فقال: أبشروا فإن الشام ستفتح عليكم ويهرب هرقل إلى ممتنع ونهاهم ــ ص ــ عن سؤال الكاهنة فقالوا يا رسول الله إن فينا امرأة كاهنة قريش والعرب يتحاكمون إليها فنسألها عن أمور فقال ــ ص ــ لا تسألوها عن شيء فقال متكلمهم: الله أكبر ــ ثم سألوه عن أشياء من أمر دينهم فأجابهم فيها ــ وأقاموا أياماً ثم انصرفوا إلى أهليهم وأمر لهم

(٦٨) **عذرة:** قبيلة من اليمن.

بجوائز كما أجيز الوفد وكسا أحدهم بُرداً.

وروى ابن سعد ــ رحم ــ وفد زمل بن عمرو العذري على النبي ــ ص ــ فعقد له لواءً على قومه وأنشأ أبياتاً حين وفد منها: لأنصر خير الناس نصراً مؤزراً... وأعقد حبلاً من حبالك في حبلي».

قصيّ هو الجد الأعلى لـ محمد وهو الذي وضع حجر الأساس لدولة قريش وكان أبوه كلاب بن مرة قد تزوج فاطمة بنت سعد بن سبل فولّدت له زهرة وقُصيّاً وتوفي فنكحت من بعده ربيعة بن حرام بن ضبّة فاحتملها إلى مضارب قبيلته (قضاعة) وولدت له رِزاح بن ربيعة ــ ثم عاد قصّي إلى مكة موطن آبائه وأجداده فلما أَمِر أمره وأوشك أن يتسيّد على أم القرى وكرهت خزاعة ذلك وتصدّت له وعزمت على حربه فما كان منه إلا أن اِستنجد بأخيه لأمه رزاح بن ربيعة فأنجده واقتتل الفريقان قتالاً شديداً وبعد خطوب وتحكيم... الخ. وليَ قصيّ أمر مكة وكعبتها المقدسة وأصبح السيد الوحيد بلا منازع فجمع قريشاً وطفق يضع اللبنات الأولى في صرح دولتها[٦٩].

ونحن لا نؤرخ هنا لقصيّ ولا لغيره إنما ذكرنا هذا الطرف من سيرته لعلاقته بما ورد في الخبر ــ فـ بنو عذرة هم رهط رزاح بن ربيعة أي أخي قصيّ من أمه فاطمة بنت سعد بن سيل وهو الذي أنجده في عراكه مع خُزاعة وبني بكر حتى قُيّض له الفلج... وبكل جلافة وصلف ذكّروا محمداً بذلك الجميل وما سكتوا عنه واضح وهو أنه لولاهم لما استطاع قصيّ أن يتسيّد مكة ويلم شعث قريش ويضم شتاتها ويضع بذرة الدولة التي طرحت شجرة وريفة على يد

(٦٩) لمزيد من المعلومات يمكنك الرجوع إلى الفصل الأول، (المؤسس الأول، قصيّ بن كلاب) من كتابنا **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية**، مرجع سابق.

الحفيد محمد ــ ولما امتاز به محمد من حِلْم وسعة صدر فقد تجاوز عن ذلك الأسلوب الجافي ورحّب بهم وأنزلهم دار الضيافة الرسمية (دار رملة بنت الحارث النجارية الأنصارية).

وبدأوا في السؤال عن الإسلام وشعائره... فعلّمهم إياها ونظراً إلى قيام علاقات تجارية واقتصادية ومالية بينهم وبين دولة الروم فقد استفسروا منه عما إذا كان لديه شيء؟

ونحن لا نستبعد أن تكون دولة الروم البيزنطية قد أرسلتهم عيوناً لها على محمد ليتحسسوا لها أخباره ويتعرفوا إلى خطته الإستراتيجية نحوهم ولا غرابة في ذلك فقد كانت مكة آنذاك تعجّ بجواسيس دولتي الروم والفرس فالتجسس إذن ليس بدعاً في تلك الأيام ولا يحول دون قيام بني عذرة بتلك المهمة القرابات والأرحام التي أشاروا إليها فحفيد يَشْجُب عبُدٌ للدينار، ليست له مبادئ وفي سبيله يبيح كل شيء حتى قرابته.

ووجود تلك القرابات والأرحام دافع ممتاز لكي يقوم الروم بتوظيفهم لتلك المأمورية كما أنها هي ذاتها (القرابات والأرحام) هي جواز مرورهم لدى محمد ــ الذي كان كشأنه دائماً حصيفاً فأخبرهم بأن الشام سوف تُفتح على أيديهم هم وسيهرب هرقل من أمامهم وهذان الخبران (فتح الشام عليهم وهرب الأمبراطور) يستحيل على بني عذرة نقلهما إلى الروم إذ لو فعلوا لكان في ذلك إهلاكهم وبذلك يكونون قد سعوا لحتفهم بظلفهم ــ وحتى إذا لم يجد هذا الفرض قبولاً... فهناك فرض آخر عساه يلقى استجابة وهو أن محمداً تعمّد أن يسرّب خبر العزم على وطء الشام إلى دولة الروم من طريق العُذريين حتى يفتّ في عضدها أي هو نوع من الحرب النفسية تمهيداً للحرب الفعلية. وسواء أصح الفرضان أو

أحدهما أو لم يصحا معاً فإن ما دار بشأن هذه الخصوصية من حوار بين محمد وبني عذرة يُعبّر عن استراتيجية ثابتة لدى محمد. وليس ثمة ما يمنع أن يعبّر عنها في صورة نبوءة واعتبارها كذلك (= استراتيجية ثابتة) يستقي دليل ثبوته من تكرار هذه المقولة من محمد (رأيناها قبل ذلك في الخبر السابق مباشرة: خبر عدّي بن حاتم الطائي).

نهى محمد بني عذرة عن تحكيم كاهنة قريش أو سؤالها عن أي شيء وذلك مسألة طبيعية لأن الكهانة بطلت بظهور محمد وتبشيره بدعوته ومن المفارقات الطريفة أن كاهنة قريش هي التي تنبأت لـ عبد المطلب الجد المباشر لمحمد بتحقيق حلم الأجداد والآباء أي قيام دولة قريش على يد الحفيد محمد ــ فإذا به يصدر قراره بحظر التعامل معها بأي صورة وكم في التاريخ من مفارقات؟

٥١ ــ وفد بني عقيل بن كعب

«روى ابن سعد ــ رحم ــ عن رجل من بني عقيل عن أشياخ قومه: وفد منا من بني عقيل على رسول الله ــ ص ــ ربيع بن معاوية وآخرون فبايعوا وأسلموا وبايعوه على مَن وراءهم من قومهم فأعطاهم ــ ص ــ العقيق: عقيق بني عقيل وهي أرض فيها عيون ونخل ــ وكتب لهم بذلك كتاباً في أديم أحمر:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى محمد رسول الله ــ ص ــ ربيعاً ومطرفاً وأنساً أعطاهم العقيق ما أقاموا الصلاة وسمعوا وأطاعوا، ولم يعطهم حقاً لمسلم وكان الكتاب في يد مطرف».

وقدم على رسول الله ــ ص ــ أبو حرب بن خويلد فقرأ عليه رسول الله ــ ص ــ القرآن وعرض عليه الإسلام فقال: أما وايم الله قد لقيت الله أو لقيت من لقيه وإنك لتقول قولاً لا نُحسن مثله ولكني سوف أضرب بقداحي هذه على ما تدعوني إليه وعلى ديني الذي أنا عليه وضرب بالقداح فخرج عليه سهم الكفر ثم أعاده فخرج عليه سهم الكفر ثم أعاده فخرج عليه ثلاث مرات فقال محمد يدعو إلى الإسلام ويقرأ القرآن وقد أعطاني العقيق إن أنا أسلمت، فقال له بمقال؛ أنا والله أخطك أكثر مما يخطك محمد ــ ثم ركب فرسه وجرّ رمحه على أسفل العقيق فأخذ أسفله وما فيه من عين.

ثم إن عقلاً قدم على رسول الله ــ ص ــ فعرض عليه الإسلام وجعل يقول له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: أشهد أن هبيرة بن

المفاضة[٧٠] نعم الفارس بين قرني لبان[٧١] ثم قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: أشهد أن الصريح تحت الرغوة ثم قال له الثالثة: أتشهد فشهد وأسلم».

البيعة هنا كما عند سائر الوفود من بضعة نفر (على مَن وراءهم مِن قومهم) ومن وجهة نظرنا أن هذه البيعات سياسية وليست دينية ففي السياسة يجوز أن يوكّل جماعة أحدهم أو نفراً ليبايعوا عنهم أما في مسائل الدين والاعتقاد فهذه الأنابة غير جائزة أو مقبولة أو مستساغة لأنها مسائل شخصية قُح كاملة القُحوحة فكيف تجوز فيها الوكالة، وكما أن الشخص هو الذي سوف يُسأل ويُحاسب ثم يُعاقب بشخصه فيتعين إذن أن يؤمن أولاً، ويؤمن بنفسه دون وكيل ومن هذا الطرح نخلص إلى أمرين نرى أنهما على درجة وافية من الأهمية:

أولهما: أن البيعة التي كان يعطيها الوفدة لمحمد عن قومهم أو عن من ورائهم هي بيعة سياسية للإذعان لدولة قريش فحسب وليس معنى ذلك أن قبائلهم أو عشائرهم أو بطونهم أو أفخاذهم لم تدخل الإسلام، إن ما نهدف إليه أن تلك البيعة (السياسية) لا تعني بحال من الأحوال اعتبار كل فرد في القبيلة أو الرهط أو الفخذ أو القوم غدا مسلماً ــ ويترتب على هذا الأمر بطريق الحتم واللزوم.

الأمر الثاني: إن عَدّ القبائل التي رفضت الانضواء لدولة قريش مرتدة ــ بداهة باستثناء بعض قبائل محدودة مثل حنيفة وتميم... وهي التي ظهر فيها أنبياء بني يَعْرُب الكذبة ــ ومعاملة جميع أفرادها كمرتدين وإجراء أحكام الردّة عليهم فرداً فرداً ومجازاتهم

---

(٧٠) **ابن المفاضة**، هو هبيرة بن معاوية، فارس الهرار فرسه.
(٧١) **لبان**: اسم موضع.

بتلك الأفاعيل مثل الحرق بالنار والرمي من شواهق الجبال والتنكيس في البيار[٧٢].

كل هذه الأمور غير جائزة ومرفوضة من الدين والعرف والعقل لأنه ببساطة حتى يُعتبر الشخص مرتداً يجب أن يثبت أنه نطق بالشهادتين أي صار مسلماً، فهل بيعة بضعة أشخاص تعتبر إسلاماً لسائر أفراد القبيلة أو الرهط أو الفخذ أو الجماعة أو القوم؟ إن سادة دولة قريش وعلى رأسهم أبو بكر لا يجهلون هذه القاعدة الكلية ولكنهم في سبيل ترسيخ قوائم دولتهم وتمكين عمدها وتوثيق أسسها تغاضوا عنها...

وسبق أن قلنا إن النظرية شيء والتطبيق شيء آخر وأن هذا الداء لَطّ كل أصحاب العقائد والأيديولوجيات بمن فيهم أصفياء الأنبياء وتلامذتهم وصحبتهم...

وإذ كان أبو بكر لم يجرؤ على إعلان فصل النظرية عن الواقع فإن عبد الملك بن مروان واتته الشجاعة على التصريح بذلك فقد كان من خيار التابعين يلازم حلقات العلم في مسجد محمد بأثرب حق لقب بِ (حمامة المسجد) وروى بضعة أحاديث وحمل عدد من دواوين السنّة المعتبرة رواياته لها بيد أنه بعد أن أتته الخلافة منقادة تجرّ إليه أذيالها كان يقرأ القرآن فأغلق المصحف وقبّله ووضعه في مكان حريز وقال له: الآن نفترق[٧٣].

وفي سبيل المحافظة على مُلكه وليبقى متربعاً على عرش الخلافة

(٧٢) لمعرفة التفاصيل عما قامت به جيوش دولة بني قريش من شناعات فيما سُمّي بـ حروب الردة ارجع إلى **تاريخ الطبري**، الجزء الثالث وقد طبعته دار المعارف، مصر عدة طبعات.
(٧٣) تقول العامة في مصر أنا من سكة وأنت من سكة.

رمى الكعبة (قُدُس الأقداس) بـ المنجنيق وسلّط الحجاج بن يوسف الثقفي على رقاب المحكومين وأطلق يديه يفعل فيهم ما يشاء وداس (= عبد الملك) على كل ما تعلّمه من علم وفقه في مسجد محمدٍ وعَلى يديّ صحبه.

ولكن هل يعني ذلك أننا نقدم ابن مروان على ابن أبي قحافة صاحب محمد في سفرة النزوح (الهجرة)؟

الإجابة عن ذلك بالنفي ولا يوجد مسلم يفعل ذلك ــ إنما في هذه الخصوصية: الفصام النِكد بين المبادئ والواقع الذي طال الجميع دون استثناء حتى خُلْصان الأنبياء/ الرسل وصحبهم كان عبد الملك أشد جرأة فقد صرّح ولم يجمجم وكشف ولم يستر وأعلن ولم يُخْفِ.

ثم نعود إلى السياق:

البيعات إذن هي بيعات سياسية ــ واحتساب كل أفراد القبيلة مسلمين بمجرد عقد هذه البيعة خطأ. ومحاربتهم بمقولة أنهم مرتدّون خطأ مركب وفادح بل خطيئة كبرى.

لكي يسترضي محمد بني عقيل أقطعهم العقيق وهي أرض فيها عيون ونخل وكتب لهم بذلك كتاباً وقد فعل ذلك بصفته حاكماً ومن ثم رأينا عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان قد أقطعا هما بدوريهما عدداً من الصحابة قرى وإقطاعات ولا أحد يعترض على ذلك ــ إذ أنه من إطلاقات ولي الأمر في الإسلام ولا معقب عليه.

يقدم لنا الخبر طقساً معاشياً أو حياتياً كان يمارسه أولئك العُربان فعندما كان أحدهم يُقدم على شأن ذي بال كان يضرب بقداحه فإن أمرته أمضاه وإن نهته تركه ــ ولزيادة التأكيد يضرب ثلاث مرات. وقد فعل أحد بني عقيل ذلك عندما عرض محمد عليه

الإسلام رغم إقراره بأن ما يدعو إليه حسن وأنهم لا يقدرون على مثله.

أما الآخر فقد كان غاية في الجفاوة وقلة الأدب وسوء الذوق فعندما سأله محمد أن يشهد أنه رسول الله أخذ يجيب إجابات خائبة خائرة دلت على أَفَن عقله وعَطَن تفكيره وكرّر عليه السؤال مرتين وفي الثالثة شهد شهادة الحق وأسلم. وهاتان الواقعتان وأشباههما تطلعنا على مدى معاناة محمد وحمله وصبره على أولئك الأعراب الغلاظ الجفاة.

٥٢ ــ وفد عمرو بن معدي كرب الزبيدي

«قدم عمرو في أناس من زبيد على رسول الله ــ ص ــ وكان عمرو قد قال لـ قيس بن مكتوم المرادي ــ ابن أخته ــ إنك سيد قومك وقد ذكر لنا رجلاً من قريش يُقال له محمد خرج بالحجاز يقول إنه نبي فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه فإن كان نبياً فلن يخفى عنك إذا لقيناه اتبعناه وإنْ كان غير ذلك علمنا علمه فأبى عليه قيس ذلك وسفّه رأيه فركب عمرو حتى قدم على رسول الله ــ ص ــ فأسلم وصدقه وآمن به فلما بلغ ذلك قيساً أوعد عمراً وتحطّم عليه قال خالفني وترك رأيي فقال عمرو ذلك شعراً أوله: أمرتك يوم ذي صنعاء أمراً بادياً رُشده فأقام عمرو في قومه فلما توفي رسول الله ــ ص ــ ارتدّ ثم رجع إلى الإسلام وأبلى يوم القادسية وغيرها.

وجّه رسول الله ــ ص ــ عليّاً وخالد بن سعيد إلى اليمن وقال: إن اجتمعتما فَعليّ الأمير وإن افترقتما فكل واحد منكما أمير فاجتمعا.

فلما بلغ عمرو بن معدي مكانهما، أقبل في جماعة من قومه فلما دنا منهما قال: دعوني حتى آتي هؤلاء القوم فإني لم أُسمّ لأحدٍ قط إلا هابني فلما دنا منهما نادى: أنا أبو ثور أنا عمرو بن معدي كرب فابتدره عليّ وخالد ــ رضي ــ إذ سمع قولهما قال: العرب تفزع مني وأراني لهؤلاء جزرة[٧٤] فانصرف عنهما وكان عمرو فارس العرب مشهوراً بالشجاعة وكان شاعراً مُحسناً. وأسلم قيس بن مكشوح بعد

(٧٤) **جزرة** أي شاه مُسَمّنة، وفي حديث خوات في النهاية: أبشِر بجزرة سمينة أي صالحة لأن تُجْزَر.

ذلك وله ذكر في الصحابة وقيل كان إسلامه بعد وفاة رسول الله ــ ص ــ وكان شجاعاً فارساً شاعراً وكان يناقض عَمْراً».

هذه قصة أحد المرتدين عمرو بن معدي كرب كان فارساً شجاعاً وشاعراً مُغْلِقاً قدم على محمد وسمع منه فأسلم وآمن وصدق وكان ذلك أمراً بديهياً لأن الشعراء في ذاك الوقت هم طبقة المثقفين ــ كما ذكرنا من قبل ــ فبهرته طلاقة القرآن وبلاغته وبيانه ونظمه... الخ.

وعاد إلى مسقط رأسه وبين قومه ولكنه ارتد وشارك في حركة الردّة مع الأسود العنسي ثم رجع إلى إسلامه بعد أن أسره خالد بن سعيد بن العاص الأموي وأوثقه وأرسله إلى اِبن أبي قحافة في أثرب فعفا عنه بعد أن اعتذر وأعلن توبته وساهم بعد ذلك في فتوحات النهب والسلب والاستيطان وفعل فيها الأفاعيل.

وعمرو هذا لا جرم أن يُعدّ مرتداً لأنه أسلم بنفسه وبايع محمداً بشخصه بخلاف الفرد القابع في جوف البادية الذي لم يُسلم ولم يُبايع بل بايع عن قبيلته كلها عدة أفراد بيعة سياسية ولم يوكلهم أن يُسلموا نيابة عنه الخ. أما حركة ردّة العنسي فقد سبق بحثها فيما قبل.

عندما وجه محمد كلاً من عليّ بن أبي طالب وخالد بن سعيد بن العاص الأموي أخبرهما أنه عند اجتماعهما فالإمارة لـ عليّ... هذا أمر متوقع لمناقب أبي الحسنين الجليلة وشمائله الفخيمة التي لا يختلف عليها اثنان ولا ينتطح فيها عنزان ــ هذا من ناحية ــ أما من الناحية الأهم فهي أن بني هاشم في نظر محمد لا يَعْدُلهم رهط لا في داخل قريش ولا في خارجها حتى في عملية المؤاخاة التي أجراها بين النازحين (المهاجرين) والمستوطنين بني قيلة (الأنصار) لم

يُؤاخِ بين هاشميّ واحد وبين مستوطن (أنصاري) مؤاخاة فعلية وكأن يصرّح بتفضيله لبني هاشم. أما خالد بن سعيد فقد توفي محمد وهو في اليمن فلما عاد إلى أثرب اِعترض على تولّي ابن أبي قحافة الخلافة (مُلك محمد) وكان من رأيه أن بني هاشم أحق بها وصرح بذلك على رؤوس الأشهاد وكان من أهم الأسس التي بنى عليها اعتراضه هو أن الذي تربع على كرسي الخلافة من فرع مهزول من قريش.

حاول عمر بن يكرب أن يهوّش علياً وخالداً[٧٥] ولكنهما لم يخافا منه فانصرف مخذولاً أمام الرُفقة التي جاءت معه لتشهد هزيمة القرشيين على يديه وصرّح بأنهما كان سينحرانه كما تنحر الشاة السمينة التي أصلح ما تكون للجزر، ولو لم يفعل ذلك عليّ وخالد لما كانا جديرين بالنسب إلى قريش كما أنهما يفقهان أنهما لو أظهرا أي رعب منه لأهدر ذلك هيبة دولة قريش أمام عيون اليمانية.

الخبر يحمل إلينا مفارقة مُعجِبة وهي أن عمرو بن معد يكرب أسلم وبايع محمداً ولكن عندما أعلن الأسود العنسي ثورته ضد دولة بني قريش انضوى تحت لواء الكاذب. في حين أن قيس بن مكشوح الذي عارض عَمْراً ونعى عليه إسلامه وإتباع محمد بل توعّده ــ أعان على قتل الأسود الكذوب مع فيروز بمؤامرة دبراها مع زوجة العنسي واختُلف في شأن قيس: هل أسلم في حياة محمد أم في عهد اِبن أبي قحافة ــ إنما الذي لا مرية فيه أنه لم يلتقِ بـ محمد.

ثم شارك في وطء بلاد العراق وفارس وشهد القادسية ونهاوند

(٧٥) في المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، **الهائشة:** الفَزْعَة تقع بالليل أو بالنهار.

وعمل فيهما أعمالاً يصفها اِبن الأثير الجزري بأنها (آثار صالحة في قتال الفرس)[٧٦]. وغفر الله لـ ابن الأثير فهو يسمي قتل الرجال وسبى النسوان والذرية ودكّ الحصون وتحريقها وتسويتها بسطوح الأرض ونهب الأموال... الخ آثاراً صالحة. ولما ناوأ ابن هند أبا الحسن في خلافته الشرعية وحاربه انحاز اِبن مكشوح لمعسكر الحق كما فعل في أول إسلامه وكان على رأس الأبطال الصناديد في جند عليّ في صِفّين وفيها قُتل ومات ميتة الشجعان فبعد أن صرع مبارزة من فرسان ابن هند وجَندله لم يجرؤ أحد من معسكر الباطل أن يبرز إليه بل رموه بالحراب حتى قتلوه على خلاف ما تقضي به قوانين القتال وأعرافه ولا ننتظر من هؤلاء التقيد بأي مبدأ أو عرف أو تقاليد وعلى رأسهم ابن هند؟

(٧٦) **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، المجلد الرابع، طبعة دار الشعب، مصر.

٥٣ ــ وفد رجل من عنس[٧٧]

«عن رجل من عنس قال: كان منا رجل وفد على النبي ــ ص ــ فأتاه وهو يتعشى فدعاه إلى العشاء فجلس فلما تعشى أقبل عليه فقال: أتشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقال أشهد فقال: أراغباً جئت أو راهباً: أما الرغبة فوالله ما في يديك مال وأما الرهبة فوالله أني لببلد ما تبلغه جيوشك، ولكني خُوفت فخفِت وقيل لي آمن بالله فآمنت فأقبل ــ ص ــ على القوم فقال: رب خطيب من عنس[٧٨]، فمكث إلى رسول الله ــ ص ــ ثم جاء يودّعه فقال له ــ ص ــ أخرج وَتَبّتَه أي أعطاه شيئاً[٧٩] وقال: إن أحسست شيئاً فوائل[٨٠] إلى أدنى قرية فخرج فوعك في بعض الطريق فَوالَ إلى أدنى قرية فمات رحمه الله واسمه ربيعة بن رواء العنسي».

في خبر ربيعة بن رواء العنسي عبارة بالغة الدلالة وهي (أما الرهبة فوالله إنّي لببلد ما تبلغه جيوشك) أي أن جيوش دولة قريش تبعث الرهبة في نفوس القبائل لأنها ترفع شعارات (أسلموا تسلموا) (أسلموا تحقنوا دماءكم وتصونوا نسوانكم وذراريكم من السبي والرق)، (الإسلام أو السيف) ــ وقد أخبر محمد أنه نُصر بالرعب

---

(٧٧) **عنس** بن مَذّحِج منهم الأسود العنسي وهو الأسود بن كعب بن غوث الذي تنبأ بـ اليمن.

(٧٨) **عنس** لقب زيد بن مالك بن أدد أبو قبيلة باليمن ومِخْلاف عنس مضاف إليه.

(٧٩) **التبات:** الزاد والجهاز ومتاع البيت.

(٨٠) **وائل:** إلجأ، وَالَ يئِل فهو وائل أي اِلتجأ إلى موضع ونجا.

مسيرة شهر أي أن جيوش الدولة القرشية بعثت الرعب والفزع والخوف في قلوب أعاريب الجزيرة من على بُعدِ مسافة يقطعها الفارس في شهر أي أنها أدخلت الهليع في قلوب القبائل كافة بطول الجزيرة وعرضها. وهكذا تتوالى الأخبار وتتراكم الآثار لتؤكد الحقيقة الثابتة وهي أن السيف وُظِّف بمهارة لتحقيق أمرين:

أ ــ نشر الديانة

ب ــ ترسيخ سلطة دولة قريش

يبدو أن محمداً تخايل في العنسي مرضاً خطيراً أو لمح علامات الموت على وجهه فنصحه بما يفعله إذا وعك ولقد صحت فراسته فمات في الطريق. ويمكنك أن تسميها فراسة أو نبوءة ففي كلتا الحالين كان صادقاً وهو كذلك في كل حال وحين.

٥٤ ــ وفد بني غامد

«وفد غامد سنة عشر وهم عشرة نزلوا بـ يقيع الغرقد وهو يومئذٍ أثل وطرفاء ثم انطلقوا إلى رسول الله ــ ص ــ وخلّفوا عند رحلهم أحدثهم سناً فنام عنه وأتى سارق فسرق عيبة لأحدهم فيها أثواب له. وانتهى القوم إلى رسول الله ــ ص ــ فسلّموا عليه وأقروا له بالإسلام وكتب لهم كتاباً فيه شرائع الإسلام وقال لهم: من خلّفتم في رحالكم؟ فقالوا: أحدثنا سناً يا رسول الله فقال: فإنه قد نام عن متاعكم حتى أتى آت أخذ عيبة أحدكم فقال رجل من القوم يا رسول الله ما لأحد من القوم عيبة غيري فقال ــ ص ــ: فقد أُخذت وُردت إلى موضعها ــ فخرج القوم سراعاً حتى أتوا رواحلهم فوجدوا صاحبهم فسألوه عما أخبرهم رسول الله ــ ص ــ فقال: فزعت من نومي ففقدت العيبة فقمت في طلبها فإذا رجل كان قاعداً فلما رآني صار يعدو مني فانتهيت إلى حيث انتهى فإذا أثر حفر وإذا هو قد غيّب العيبة فاستخرجتها فقالوا: نشهد أنه رسول الله فإنه قد أخبرنا وأنها قد رُدّت. فرجعوا إلى النبي ــ ص ــ فأخبروه، وجاء الغلام الذي خلّفوه فأسلم وأمر النبي ــ ص ــ أُبيّ بن كعب فعلّمهم القرآن وأجازهم كما كان يجيز الوفود وانصرفوا».

هذا الخبر يحمل إلينا قصة معجزة جرت على يد محمد كانت من العوامل الدافعة لإسلام وافد غامد وهي إخبارهم عن سرقة عيبة أحدهم ثم ردّها. والعيبة هي الوعاء الذي توضع فيه الأشياء: ملابس ونحوها فرجعوا إلى رحالهم وسألوا الحارس فرد عليهم بأنه

نام قليلاً فجاء لص وسرق العيبة ودفنها في حفرة استطاع الغلام الحارس أن يكتشفها فأعادها إلى مكانها ــ فلما عادوا إلى محمد شهدوا شهادة الحق (أسلموا) فكتب لهم كتاباً فيه شرائع الإسلام وعلّمهم القرآن وأجازهم كغيرهم من الوفود.

٥٥ ــ وفد بني غسّان

«قدم وفد غسان على النبي ــ ص ــ في شهر رمضان سنة عشر على النبي ــ ص ــ وهم ثلاثة نفر فأسلموا وقالوا: لا ندري أيتبعنا قومنا أم لا، وهم يحبون بقاء ملكهم وقرب قيصر فأجازهم رسول الله ــ ص ــ بجوائز وانصرفوا راجعين، فقدموا على قومهم فلم يستجيبوا لهم وكتموا إسلامهم ــ حتى مات منهم رجلان على الإسلام ــ وأدرك الثالث منهم عمر بن الخطاب ــ رضي ــ عام اليرموك[٨١] فلقى أبى عبيدة فأخبره بإسلامه فكان يُكرمه».

خبر هذا الوفد على قصره البالغ ينفحنا بمُعطى عميق الدلالة وهو أن إسلام الوفد لا يعني بحال من الأحوال إسلام قومهم أو رهطهم أو قبيلتهم وأنه عند عودته فإن من وراءه قد يستجيبون وقد يرفضون، وهذا ما ذهبنا إليه وأوردناه من قبل. ونستخلص منه أن مجرد وصول وفد من قبيلة يعلنون إسلامهم ومبايعتهم لمحمدٍ لا يدلّ بذاته على أن القبيلة بأسرها عدت مُسلمة ــ وترتيباً عليه فإن محاربتها بتهمة الردة ومعاملة أبنائها كـ مرتدين خطأ فادح بل خطيئة كبرى. وعسى أن يشكّل هذا الخبر دليل ثبوت على صحة ما ذهبنا إليه.

(٨١) **اليرموك:** وادٍ بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن.

٥٦ ــ فروة بن مسيك

«قدم فروة بن مسيك المرادي ــ رضي ــ وافداً على رسول الله ــ ص ــ مفارقاً لملوك كِندة ومتابعاً له ــ ص ــ وقال في ذلك شعراً منه:

قربت راحلتي أؤم محمداً أرجو فواضلها وحسن ثرائها

ثم خرج حتى أتى المدينة وكان رجلاً له شرف فأنزله سعد بن عبادة عليه ثم غدا إلى رسول الله ــ ص ــ وهو جالس في المسجد فسلّم عليه ثم قال: يا رسول أنا لمن ورائي من قومي، قال: أين نزلت يا فروة؟ قال: على سعد بن عبادة وكان يحضر مجلسه ــ ص ــ كلما جلس ويتعلم القرآن وفرائض الإسلام وشرائعه وكان بين مراد وهمدان قبيل الإسلام وقعة أصابت فيها همدان»(٨٢).

هذا الخبر يؤكد ما أوردناه من أن القبائل الكبيرة والعريقة أو الذين كانت لهم رئاسة وحازوا ملكاً تباطأوا في الوفادة على محمد فها هو فروة بن مسيك المرادي يفارق ملوك كِندة ويسعى لمحمد وعلة الفراق والفاصلة هي ما ذكرنا. وتحدثنا من قبل عن كِندة. ونظراً لعلو مكانة فروة فقد نزل على سيد الخزرج وزعيمهم سعد بن عبادة ومن ذلك نخرج بأن دار رملة (دار الضيافة الرسمية) تتزل فيها الوفود السُكّ(٨٣).

---

(٨٢) **همدان** قبيلة معروفة، وهمذان بلدة في أقليم الجبال.

(٨٣) في المعجم الوسيط **السُكّ** من الطرق: الضيق المنسد وجحر العقرب والبئر الضيقة

في كل العقائد والأيديولوجيات والأحزاب تتم مكافأة العضو المؤمن بالنظرية والمخلص للمبادئ... وهذا تأويل تأمير محمد فروة على مراد وزيد ومذجح كلها لقاء إسلامه وهجره ملوك كِندة وليعوضه عن الشرف والسيادة اللذين فقدهما بـ انفصاله عنهم ــ ونظراً لأنه منهم ومن ثم فهو أدرى بهم بيد أنه لم يُترك وحده فهو مهما كانت الأحوال حديث عهد الإسلام ومن ثم فقد بعث معه خالد بن سعيد الأموي القرشي ليقبض الصدقات فلا تُترك للمرادي فربما يحوزها لنفسه ليتقوّى بها فالمال عصب المُلك به يُشترى الكراع والسلاح وتُستمال الأجناد والأعوان وتُقام الحصون... خاصة وأن اليمن يبعد عن أثرب عاصمة الدولة. وظل سعيد له ملازماً كظله لا تغفل عينه عنه لحظة حتى توفي محمد راضياً مرضياً. وبذلك يثبت لنا محمد في كل موضع أنه حصيف ومحنك.

الخرق أو الحفر والمفرد والجمع سُكّ. أ. هـ. وتقول العامة فلان سَكّة أيّ كلام، يعني عادي لا يؤبه له وزن ولا خطر له.

٥٧ ــ وفد بني قرارة

«لما رجع رسول الله ــ ص ــ من تبوك وكانت سنة تسع قدم عليه وفد بني قرارة بضعة عشر رجلاً فيهم خارجة بن حصن والحرّ بن قيس وهو أصغرهم وهم مسنتون على ركاب عجاف فجاؤوا مقرين بالإسلام فنزلوا دار رملة بنت الحرث (الحارث)، وسألهم ــ ص ــ عن بلادهم فقال أحدهم يا رسول الله أسنتت بلادنا وهلكت مواشينا وأجرب جنابنا وغرث عيالها فأْدع لنا ربك يُغيثنا وأشفع لنا إلى ربك وليشفع لنا ربك إليك فقال: سبحان الله ويلك يا هذا، أنا أشفع إلى ربي عز وجل فمن الذي يشفع ربنا إليه... إن الله عز وجل ليضحك من شففكم[٨٤] وأذلكم وقرب غياثكم. فقال الأعرابي: يا رسول الله ويضحك ربنا عز وجل؟ فقال: نعم فقال الأعرابي: لن نعدمك من رب يضحك خيراً فضحك ــ ص ــ من قوله وصعد المنبر فتكلم بكلمات وكان لا يرفع يديه في شيء إلا في استسقاء، فرفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه وكان مما حفظ من دعائه: اللهم اِسق بلادك وبهائمك وأنشر رحمتك وأحيي بَلدك الميت... فقام أبو لبابة بن المنذر الأنصاري ــ رضي ــ فقال: يا رسول الله التمر في المريد يا رسول الله وكررها فقال رسول الله ــ ص ــ اللهم أسقنا حتى يقوم أبو لبابة عرياناً يسد ثعلب (الذي يسيل من ماء المطر) مريده بإزاره، قالوا: لا والله ما نرى السحاب من سحاب ولا قزعة (قطعة السحاب) وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار فطلعت من وراء سبع سحابة مثل الترس، فلما

(٨٤) **الشف:** الفضل والنقصان ضد.

توسطت السماء اِنتشرت ثم أمطرت قال: فلا والله ما رأينا الشمس سبتاً (أسبوعاً) وقام أبو لبابة عرياناً يسد ثعلب مريده بإزاره لئلا يخرج التمر منه ــ فجاء ذلك الرجل أو غيره فقال يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فصعد رسول الله ــ ص ــ فدعا ورفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الأكام والضراب وبطون الأودية ومنابت الشجر فانجابت السحابة عن المدينة إنجياب الثوب».

قرارة إحدى القبائل التي أذعنت متأخرة ومن قبائل اليمن المعروفة ولعله يكون السبب في تراخيها ــ والخبر يتضمن تفصيل معجزة جرت على أيدي محمد إذ أخبروه أن العام عام جدب وقحط وأن بلادهم شَرِقَة للغيث وطلبوا منه أن يدعو الله ليفكّ عنهم الضيق ويكشف عنهم البلاء ويمطرهم فوافق وعلى الفور صعد المنبر ورفع يديه حتى رأوا بياض إبطيه وأخذ يبتهل إلى الله أن يرسل الغيث وينزل الحيا فاْستجابت السماء ورغم أنه لم تكن هناك إشارة ولو صغيرة تدل على نزول المطر إذا به بعد برهة يسيرة أخذ ينهمر إنهماراً استمر أسبوعاً بكامله حتى ترجّى القراريون محمداً أن يطلب من السماء أن تقطع الماء لكيلا يهلك المال ففعل.

ومرة أخرى تعطفت السماء وأمرت المطر فكفّ عن الهطول.

بيد أن الخبر ذاته يثير إشكالية حادّة إذ أن موطن بني قرارة اليمن والغيث بـ المدينة بدليل أن أبا لبابة عبد المنذر الأنصاري ومريده كانا بأثرب.

ونقرأ في الخبر أن الرجل القراري نفسه اِلتمس من محمد مرة أخرى أن يرجو السماء أن توقف المطر لأن الأموال هلكت والسبل اِنقطعت ــ فهل امتد المطر من يثرب حتى موطن بني قرارة باليمن ولما كان الرجل بيثرب فكيف علم أن الأمطار سحّت هناك لمدة

أسبوع حتى أتلفت الأموال وقطعت الطرق. أو أنهم بخبرتهم وتجربتهم كانوا يعلمون أنه إذا أمطرت في أثرب فإنها تكون كذلك باليمن.

هذا الخبر مثل لما تحفل به النصوص من تناقض ولا معقولية ونظراً لأنها تقرأ بعيون مُغمضة وبعقول مُسيَّجة وبأمخاخ مغسولة وكل ذلك بتأثير القداسة فإن القارئ لها لا ينتبه لهذا الكم من التناقضات واللامعقوليات بل إنه بعد مطالعتها يمصمص شفتيه إعجاباً ويتمتم بكلمات التقديس.

٥٨ ــ وفد بني قيس بن عاصم

«ذكرت قيس عند رسول الله ــ ص ــ فقال: رحم الله قيساً، قيل يا رسول الله أنتم على قيس قال نعم إنه كان على دين أبينا إسماعيل ــ إن قيساً فرسان الله تعالى في الأرض، والذي نفسي بيده ليأتين على الناس زمان ليس لهذا الدين ناصر غير قيس إن قيساً خير الله تعالى ــ يعني أُسْد الله.

عن قيس بن عاصم ــ رضي ــ قدمت على رسول الله ــ ص ــ فلما رآني قال سيد أهل الوبر فلما نزلت أتيته فجعلت أحدّثه فقلت يا رسول الله: ما المال الذي ليست عليّ فيه تبعة من ضيف ضافني أو عيال كثروا عليّ؟ فأجابه وأخذ يسأل عن أمور أخرى والرسول ــ ص ــ يجيبه وقال الحسن البصري ــ رحم ــ لما حضرت الوفاة قيساً جمع بينه وأخذ ينصحهم: نصح لهم في الحياة ونصح لهم في الممات.

مدح محمد قيساً وأغدق عليهم ألقاباً شامخة فهم فرسان الله تعالى وخيره وأُسْده ــ وزعيمهم هو سيد أهل الوبر وأمدنا بمعلومتين على قدر وفير من الثمانة هما:

أ ــ أن قيساً (الجد) كان على دين أبي العرب إسماعيل ونظراً لأن محمداً كان يتوخى الدقة التامة في كل ما يرد على لسانه فإن قوله (على دين إسماعيل) لا على (دين إبراهيم) أمر يلفت النظر فهل لكل منهما دين مستقل أم اِقتصر على إسماعيل باعتباره الأب المباشر لِلْعربَة؟

ب ــ ليس لهذا الدين ناصر غير قيس هكذا حصراً وتحديداً.

فهل كان يعني في ذلك الوقت فحسب ــ أم هم نصراء الدين في كل العصور حتى يرث الله الأرض وسواء كان هذا أم ذاك فإن الحديث يُعتبر مُشكلاً لأنه في ذلك الوقت وفي ما تلاه شارك كثيرون قيساً في نصرة الدين.

٥٩ ــ وفد بني كِندة

«قدم الأشعث بن قيس على رسول الله ــ ص ــ في ثمانين أو ستين راكباً من كندة فدخلوا عليه مسجده قد رجّلوا جميعهم واكتحلوا ولبسوا جباب الحبرات مكففة بالحرير فلما دخلوا قال لهم أوَلم تسلموا قالوا: بلى، قال: فما هذا الحرير في أعناقكم؟ فشقوه ونزعوه وألقوه ثم قال الأشعث بن قيس: يا رسول الله نحن بنو آكل المرار وأنت بن آكل المرار فضحك ــ ص ــ ثم قال: ناسب بهذا النسب ربيعة بن الحارث والعباس بن عبد المطلب ــ قال الزهري راوي الحديث كانا تاجرين وكانا إذا سارا في العرب فسُئلا: من أنتما، قالا: نحن بنو آكل المرار يتعززان بذلك في العرب ويدفعان به عن نفسيهما لأن بني آكل المرار من كِندة كانوا ملوكاً. قال لهم: لا نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا.

وفي المسند: قال الأشعث بن قيس قدمنا على رسول الله ــ ص ــ وفد كِندة ولا يرون إلا أنني أفضلهم قلت: يا رسول الله ألستم منا؟ قال: لا نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا. فكان الأشعث يقول: لا أوتي برجل نفى رجلاً من قريش من النضر بن كنانة إلا جلدته الحدّ.

عن الأشعث: قدمت على رسول الله ــ ص ــ في وفد كِندة فقال لي رسول الله ــ ص ــ: هل لك ولد؟ قلت غلام ولد مخرجي إليك من ابنة فلان ولو وددت أن يشبع القوم. فقال: لا تقولَنّ ذا فإن فيهم قرّة العين وأجراً إذا قُبضوا ثم قال: إنهم لمجبنة مبخلة. وروى العسكري عنه قال: قدمت على رسول الله ــ ص ــ فقال لي: ما فعلت بنت

عمك قلت: نفست بغلام والله لوددت أن لي سبيّة فقال: إنهم لمجبنة مبخلة وإنهم لقرة العين وثمرة الفؤاد. شهد الأشعث اليرموك بالشام ففقئت عينه ثم سار إلى العراق فشهد القادسية والمدائن وجلولا ونهاوند وسكن الكوفة».

أخيراً حزمت كِندة رأيها بعد أن تيقنت من انتصار محمد على عدوه وأنه أصبح سيد الجزيرة ومالك زمام أمورها وخضعت كل القبائل وارْتمت وقبّلت يديه ورجليه فأرسلت كِندة وافداً يبلغ عدده ما بين الستين والثمانين راكباً ونظراً لأنهم ملوك فقد جاءوا بهيئة وملابس تليق بهم ونظراً لأن غالبية صحب محمد والمحيطين به الإ قلة ضئيلة فقراء محاويج لأن الغنائم الأسطورية التي كسحوها كسحاً من البلاد التي داسوها بخيولهم الميمونة لم تكن قد وصلت بعد فقد حرّم محمد لبس الحرير على الرجال حتى لا يحنق المعوزون إذا رأوا الأغنياء مثل عبد الرحمان بن عوف والعباس بن عبد المطلب وخالد بن الوليد يلبسونه ولهذا السبب عينه عندما أبصر وافد بني كِندة يلبسون جباب الحبرات مكففة بـ الحرير زَبَرهم (= زجرهم) زَبراً هيّناً فسارعوا بنزع الحرير من ثيابهم وشقوه وألقوه.

وهذا المثل ــ تحريم الحرير على الرجال في الإسلام نهديه للذين حتى الآن يناوئون مبدأ طالما نادينا به وهو ضرورة ربط (النصوص) بأحوال عصرها وظروف بيئتها وموجبات وقتها... فالآن تغدو مفارقة مذهلة أن يضع المسلم على معصمه ساعة ثمنها عشرات الألوف من الجنيهات (ليس شرطاً أن تكون من الذهب) فهذا حلال لا غبار عليه لأن وقت انبثاق النصوص لم يكن ذياك المجتمع يعرف الساعات إنما حرم عليه أن يرتدي قميصاً من الحرير يصل ثمنه خمسمائة أو سبعمائة وخمسين جنيهاً!؟

أليس هذا المثل وأضرابه يقمع المعارضين لمبدأ ضرورة النظر إلى النصوص من خلال المجتمع الذي أفرزها ــ ثم نعود إلى سياق القول: يشد الانتباه أن الكِنديين الملوك ذوي الهيئة الحسينة والملابس الفاخرة على الفور أقدموا على تنفيذ أمر محمد بتصفية أرديتهم من الحرير لأنه (= محمداً) غدا سيد الناس وديان العرب كما وصفه بحقٍ الأعشى.

ولم يقف أمر الكِنديين في التذلل والتزلف لمحمدٍ عند ذلك الحدّ بل نراهم يدَّعون قرابته بربط نسبه إلى أحد أجدادهم (آكل المِرار) وهذا يدلّ على اِرتفاع مقام محمد فهؤلاء الملوك يحاولون جاهدين الادعاء بالتقائهم وإياه في شجرة النسب عند جدٍ معين. ولكنه رفض هذه المقالة وأفهمهم أنه لا ينتفي من أرومته (= أصله) ومن الطريف أن العكس كان يحدث منذ وقت قريب فقد كان عمه العباس بن عبد المطلب يتمسح في بني كِندة ويتعزز بهم وينضوي إلى حماهم إبّان رحلتيّ الشتاء والصيف كان يدّعي ــ عندما يخترق بتجارته أحياء العرب أنه من كِندة (نحن بنو آكل المِرار) فما إن يسمع العُربان ذلك حتى يصيبهم الهلع ولا يمسونه بسوء خشية بطش بني كِندة الملوك بهم ــ وهذا يؤكد ما نقول إن أولئك العُربان لا يفهمون إلا لغة القوة فإن وجدوا مَنْ أمامهم ذا بأس شديد فرّوا من أمامه كالجرذان. أما إذا أَلفَوْه هشاً ضعيفاً لا حول له اِفترسوه دون مراعاة لدين ولا ذمة وهذا شأن الجبناء الرعاديد في كل زمان ومكان.

٦٠ ــ أبو رزين لقيط عامر العقيلي

«قال: خرجت أنا وصاحبي نُهيك بن عاصم حتى قدمنا على رسول الله ــ ص ــ فوافيناه حين اِنصرف صلاة الغداة فقام في الناس خطيباً... قلت: يا رسول الله إني سائلك عن حاجتي فلا تعجلني قال: سل عما شئت، قال ــ رضي ــ قلت: يا رسول الله علّمنا مما لا يعلم الناس فإنا من قبيل لا يصدقون تصديقنا أحداً، من مذحج التي تدنو إلينا وخثعم التي توالينا وعشيرتنا التي نحن منها. قال ــ ص ــ: ثم لا تلبثون ما لبثتم، يتوفى بينكم ثم تُبعث الصائحة فلعمر إلهك ما تدع ظهرها من شيء إلا مات ثم ذكروا أمور الآخرة ولذات الجنة...

قال لقيط ــ رضي ــ قلت: يا رسول الله علام أبايعك؟ قال: فبسط رسول الله ــ ص ــ يده وقال: على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وزيال الشرك فلا تشرك بالله إلهاً غيره... فانصرفنا عنه فقال: ها إن ذين ها إنّ ذين مرتين من اتقى الناس في الأولى والآخرة فقال له كعب بن الخدارية من هم يا رسول الله؟ قال: بنو المنتفق أهل ذلك منهم فانصرفنا وأقبلت عليه فقلت: يا رسول الله، هلا لأحد ممن مضى من خير في جاهليتهم؟ فقال رجل من عرض قريش: والله إن أباك المنتفق لفي النار... فقلت يا رسول الله وأهلك قال: وأهلي لعمر الله حيث أتيت على قبر عامري أو قرشي أو دوسي قل أرسلني إليك محمد فأبشر بما يسؤك تُجرَّ على وجهك وبطنك في النار، قلت يا رسول الله وما فعل بهم ذلك؟ قال ــ ص ــ: ذلك بأن الله تعالى بعث في آخر كل سبع أمم نبياً فمن عصى نبيه كان من الضالين ومن أطاع نبيه كان

من المهتدين. قال ابن القيم: هذا حديث كبير جليل خرج من مشكاة النبوة».

هذا من أحاديث الفتن والملاحم ولعل هذا سر إعجاب اِبن قيم الجوزية به حتى إنه وصفه بأنه كبير جليل خرج من مشكاة النبوة ــ إذن محمد عندما حدّث به كانت سمة النبوة هي المهيمنة (لا القيادة العسكرية ولا رئاسة الدولة القرشية). وهذا ما يفسر لنا تركيز الحديث على الشئون (البَعْدِيّة) التي ستحدث فمثلاً بعد وفاته هو ستجيء الصائحة التي تنهي الحياة: الإنسانية والحيوانية والنباتية على وجه الأرض وواضح أن محمداً لم يحدد وقتها بعيد وفاته: مئة سنة ــ ألف ــ ألفان ــ ثلاثة... الخ.

إذ رغم مضي ألف وأربعمائة سنة منذ انتقاله إلى الرفيق الأعلى فإنها لم تقع ولا شك أن عدم توقيتها يشهد لمحمد بالحصافة وشمول الرؤية. ويستطرد فيقرر أن من مات في الجاهلية فهو في النار سواء من بني المنتفق أو من بني قريش ــ وهذا مُشكل لأن أولئك الجاهليين هم من أهل الفترة ولم يكن بين ظهرانيهم نبي/ رسول ومحمد تلا قبل ذلك آية ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ (سورة الإسراء، الآية ١٥) كما أن هنا الحديث نفسه يؤكده (.. فمن عصى نبيه كان من الضالين ومن أطاع نبيه كان من المهتدين) فكيف يُعذّبون؟ هذا مبعث الإشكال في الحديث.

وفي عبارة (الله تعالى بعث في آخر كل سبع أمم نبياً) نجد الرقم (سبع) يؤكد ما لفتنا إليه النظر أكثر من مرة عن قداسته في الديانات السامية الثلاث.

٦١ ــ وفد بني محارب

«قدم وفد محارب سنة عشر في حجة الوداع وهم عشرة نفر منهم سواء بن الحارث وابنه خزيمة فأنزلوا دار رملة بنت الحرث (الحارث) وكان بلال يأتيهم بغداء وعشاء إلى أن جلسوا مع رسول الله ــ ص ــ يوماً من الظهر إلى العصر فأسلموا وقالوا: نحن على من وراءنا ولم يكن أحد في تلك المواسم التي كان رسول الله ــ ص ــ يعرض نفسه فيها على القبائل يدعوهم إلى الله ولينصروه أفظ وأغلظ عليه منهم ــ وكان في الوفد رجل منهم فعرفه ــ ص ــ فأمده النظر فلما رآه المحاربي يديم النظر إليه قال: يا رسول الله كأنك توهمني قال: لقد رأيتك قال المحاربي: أي والله ولقد رأيتني وكلمتني كلمتك بأقبح الكلام والرد في عكاظ فقال ــ ص ــ نعم فقال المحاربي: أحمد الله الذي أبقاني حتى صدقت بك. فقال ــ ص ــ: إن الإسلام يجبّ ما كان قبله من الكفر ــ ومسح ــ ص ــ وجه خزيمة بن سواء فكانت له غُرّة بيضاء وأجازهم كما يجيز الوفد وانصرفوا إلى أهليتهم».

هؤلاء وفدوا في حجة الوداع أي تباطأوا حتى تمت الغلبة لمحمد فأتوه مذعنين خائفين بعد أن قابلوه بفظاظة نادرة المثال وغلظة منقطعة النظير.

الخبر يرفع الستر عن خُلُق بني يَعْرُب فعندما يخيّل إليهم ــ ولا يشترط أن يكون ذلك حقيقة ــ أنهم في مركز القوة يغدون في نهاية الرذالة والسفالة وسوء الأدب والجلافة وعندما تنقلب الحال ويتحولون إلى موقف الضعف والحاجة يُبْدُون أحط مظاهر الضعة

وأردأ أنواع المهانة وأسوأ أصناف التذلل ــ ففي بدّي الأمر عندما كان يدعو منفرداً لا تبع ولا نصير (سوى الله تعالى) اِلتقاه بنو محارب بوجه بشع كالح وأسمعوه كلمات قوارص وعبارات نابية وألفاظاً قبيحة وجملاً سافلة وردّوه أقبح ردّ وأجابوه أبشع إجابة فلما نصره الله وارتفع إلى قمة العزة وذروة سنام المجد وذؤابة السؤدد هرولوا إليه خاشعين خاضعين راكعين وبذلك قدّم المحاربون لنا نموذج خُلُق اليعربي القُحّ وسلوكه الأمثل.

وضمّ الوفد محاربيّاً بالغ السفول، سيء الأدب، سليط اللسان، خبيث النفس، عفن الطَويّة، بذيئاً فاحشاً متفحشاً كان قد أسمع محمداً (أقبح الكلام) فيما مضى ولا شك أنه أمعن في الخِسّة وأكثر من النذالة حتى إن محمداً من عمق ما عاناه من حماقاته لم تبرح صورته ذهنه ولذا فما إن رآه حتى طفق (يديم النظر إليه) فأدرك المحاربيّ أنه قد تعرّف إليه وتذكر أفاعيله وأقاويله... وإذ أنه لا يدري خُلُق محمدٍ العظيم ظنّ أنه سينتقم منه فركبه الرعب وهيمن عليه الهلع وضربه الذعر وشمله الخوف فانقلب إلى حملٍ وديع وطائر داجِن أليف وأخذ يتخشّع ويتخضّع ومما قاله:

(أحمد الله الذي أبقاني حتى صدقت بك) وكسنّة محمدٍ مع أمثاله فقد عفا عنه وأخبره أنه إذ قد جاء وأسلم فإن كل الفواحش التي اِرتكبها قبل ذلك قد سقطت فالإسلام يفتح صفحة جديدة.

هذا المحاربي الجافي الجهول نموذج لأبناء يعْرُب فعندما يملك أحدهم ويقدر فإنه يحكم ويتحكم ويتجاوز كل الحدود ولا يأبه لأي شخص أو قيمة أو مبدأ ــ أما حين يقع فإنه يركع على قدميه ويزحف على ركبتيه يطلب المغفرة والصفح والعفو ولا يأبه إن كان ذلك يحطّ من قدره أو ينال من مكانته أو يمس كرامته.

وليس صحيحاً أن العربة لا يقبلون الضيمم، فهذا وهم ورغم شيوعه فهو وهم، إذ لا يحفظ لنا التاريخ جنساً صبر على صنوف الذل التي صبها عليه حكامه المغاوير بداية بـ معاوية بن هند ومروراً بالحجاج ونهاية بسلاطين آل عثمان مثل جنس العرب. إنّ أنفة العربي وحرصه على كبريائه... الخ كلها (حديث خرافة) وكم في التاريخ العربي الإسلامي من خرافات تحوّلت إلى حقائق بفضل لوكها وترديدها لمدة أربعة عشر قرناً وقد ساعد على ترويجها حُكْم الأعاريب قروناً طويلة للمنطقة فرسّخوا تلك الأوهام وقلبوها إلى حقائق مع أن قراءة موسوعات التاريخ العربي الإسلامي بعيون يقظة وعقول مفتوحة تؤكد أنها مجرد أوهام وخرافات.

مجموع وفد محارب عشرة أشخاص (فأسلموا وقالوا نحن على من وراءنا) أليست هذه بيعة سياسية بحت ــ هل يصح في ميزان الشرع (النقل) أو العقل أن عشرة يُسْلِمون عن مئات وهل تجوز الإنابة في الإيمان ــ إنها قد تصح في أمور العبادة مثل أن يحج ابن عن أمه أو أبيه أو أن يصوم أو يزكي عنهما لأن (دَيْن الله أحق بالأداء) أما في العقيدة: فهل يُقبل أن يُسلم الابن عن أبيه أو عن أمه؟

أُنزل المحاربيون دار رملة بنت الحارث ما يدل على أنهم من غمار الناس أو على الأقل من القبائل العادية. ورغم سفالتهم وبذاءتهم فإن محمداً أجازهم كباقي من وفد عليه وهذا يدلّ من جانب على سماحته وسمو نفسه. ومن جانب آخر وهو المهم فإنه يقطع بحنكته السياسية فما داموا جاءوا مطيعين منقادين رافعين لراية التسليم البيضاء فليس من الحكمة ولا بُعد النظر محاسبتهم على ما بدر منهم فيما مضى وعفا الله عما سلف. ولقد طرحت

تلك السياسية البارعة ثمارها الناضجة الشهية إذ سُرعان ما انضوت تلك القبائل تحت جناح دولة قريش وانخرطت في جيوشها التي وطئت بلاداً ذوات حضارات باذخة فغلبتها ودوّختها وفعلت فيها الأفاعيل.

وختام الخبر تلك المعجزة التي تمت على يد محمد ــ وهو هنا يباشر مسؤوليته كـ نبي/ رسول إذ مسح وجه خزيمة بن سواء فتشكّلت في جبينه غُرَّة.

٦٢ ــ وفد بني مرة

«قدم وفد بني مرة على رسول الله ــ ص ــ حين رجع من تبوك سنة تسع وهم ثلاثة عشر رجلاً رأسهم الحارث بن عوف فقالوا يا رسول الله إنا قومك وعشيرتك ونحن قوم من بني لؤي بن غالب فتبسم ــ ص ــ ثم قال: أين تركت أهلك؟ قال: بسلاح وما والاها، قال: وكيف البلاد؟ قال: والله إنهم لمسنتون فادع الله لنا فقال ــ ص ــ: «اللهم اِسقهم الغيث» فأقاموا أياماً ثم جاءوه مودعين له فأمر بلالاً أن يجيزهم فأجازهم بعشر أواقٍ فضة وفضّل الحارث بن عوف فأعطاه اثنتي عشرة أوقية ورجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد أُمطرت، فسألوهم: متى مطرتم فإذا هو ذلك اليوم الذي دعا فيه رسول الله ــ ص ــ وقدم عليه وهو يتجهّز لحجة الوداع قادم منهم فقال: يا رسول الله رجعنا إلى بلادنا فوجدناها مصبوبة مطراً في ذلك اليوم الذي دعوت لنا فيه فقال ــ ص ــ: الحمد لله الذي هو صنع ذلك».

وفد بني مرة جاء متأخراً سنة تسع هجرية مَقْفَل محمد من غزوة تبوك آخر غزوة له والتي هي إشارة لخلفائه للخروج من الجزيرة ومناجزة دولتيّ الروم والفرس اللتين علم محمد بسوء أحوالهما. وقد حاولوا كغيرهم من قبل ادعاء قرابتهم له وقد تبسّم عندما سمع ذلك منهم ولعل سؤالاً دار في ذهنه: أين كنتم عندما كنت في أمسّ حاجة للنصراء والأعوان وهذا يؤكد البرجماتية المركوزة في نفوس هؤلاء العَرَبَة.

وكما قلنا فيما سبق أن النبوة ارتبطت في ذهنهم بالمعجزات لذا

طلب بنو مُرّة من محمد أن يدعو الله لهم ليغيثهم بالحيا والمطر واستجاب ــ لهذا الملتمس وكالعادة تفضلت السماء فأنزلت الغيث وعندما عادوا لمضاربهم تيقنوا أن الأمطار هطلت في اليوم ذاته الذي دعا فيه محمد. وفي هذا الخبر عقلانية إذ أن التثبت جاء بعد رجوعهم وعندما اَطْلَع قادمهم محمداً على ذلك حمد الله ونسبه إلى الله تعالى لا إلى نفسه ليؤكد لتبعه وأصحابه أنه مجرد نبي/ رسول حتى لا يجنحوا إلى تأليهه كما فعل المسيحيون مع ابن مريم. وهذا يؤكد مصداقية محمد الذي لا توجد في سيرته العطرة شبهة واحدة تخدش ما ورد في القرآن أنه بشر يُوحى إليه أي أنه إنسان كامل بيد أنه في الوقت عينه نبي/ رسول يأتيه الوحي من السماء.

٦٣ ــ وفد بني مزينة

«عن النعمان بن مقرن ــ رضي ــ: قدمت على رسول الله ــ ص ــ في أربعمائة من مزينة وجهينة فأمرنا بأمره، فقال القوم يا رسول الله ما لنا طعام نتزوده، فقال ــ ص ــ رضي: زود القوم فقال: يا رسول الله ما عندي إلا فضلة من تمر وما أراها تغني عنهم شيئاً. قال: اِنطلق فزوّدهم، فانْطلق بنا إلى عِليّه فإذا مثل البكر الأورق فقال خذوا فأخذ القوم حاجتهم قال: وكنت في آخر القوم فالْتفت وما أفقد موضع تمرة من مكانها.

كان أول من وفد على رسول الله ــ ص ــ من مضر أربعمائة من مزينة وذلك في رجب سنة خمس، فجعل لهم رسول الله ــ ص ــ الهجرة في دارهم وقال: أنتم مهاجرون حيث كنتم فاْرجعوا إلى أموالكم فرجعوا إلى بلادهم.

قدم على رسول الله ــ ص ــ نفر من مزينة منهم خزاعي بن عبدنهم فبايعه على قومه مزينة وقدم معه عشرة منهم، ثم إن خزاعياً خرج إلى قومه كما ظن فأقام، فدعا رسول الله ــ ص ــ حسان بن ثابت ــ رضي ــ اِذكر خزاعياً ولا تهجه فقال أبياتاً. فقال خزاعي فقال: يا قوم قد خصّكم شاعر الرجل فأنشدكم الله قالوا: فإنا لا ننبو عليك، قال وأسلموا ووفدوا على النبي ــ ص ــ فدفع ــ ص ــ لواء مزينة يوم الفتح إلى خزاعي وكانوا يومئذٍ ألف رجل».

وفد المزنيون على محمدٍ ومعهم بنو جُهينة في السنة الخامسة الهجرية وهو وقت متقدم نسبياً ولو أن آيات انتصار محمد قد

بدت بشائرها ففي ذلك الحين رجعت الأحزاب تجرجر ذيول الخيبة والانكسار مع أنها (= تلك الغزوة) وتسمى أيضاً غزوة الخندق كانت من أشد الغزوات وقعاً على نفوس المسلمين وسجل القرآن ذلك وفيها (= الخامسة) حاصر بني قريظة لنقضهم العهد مع محمد لمحالفتهم قريشاً والأحزاب ضده فاستسلموا وحكم فيهم حليفهم سعد بن معاذ سيد الأوس (الفرع الآخر من بني قَيْلة أو الأنصار) فقضى بقتل كل من بلغ الحلم من الرجال وسبي نسائهم وذراريهم. وفي رواية أن عدة من قتل منهم سبعمائة رجل ــ إذن علامات ارتفاع راية دولة قريش غدت جَلِيّة لا تخفى على ذي عينين ويلفت النظر كثرة وافدهم حتى ولو كانوا من قبيلتين «مزينة وجهينة».

وقد حوى الخبر قصة معجزة حدثت ــ دون طلب ــ وهي أنهم عندما الْتمسوا من محمد أن يمنحهم زاداً لسفرهم دعا عمر بن الخطاب وأمره بذلك بيد أنه أخبره أن كل ما لديه من تمر فضلة لا تغني عنهم شيئاً ــ أي لا تكفي هؤلاء الأربعمائة فردّ عليه: اِنطلق فزودهم وبداهة لا يسع عمر إلا المطاوعة ولما توجه إلى العِلِّية التي بها التمر ــ ولدهشته والمزينيين والجهينيين ألفى التمر في حجم جمل فطلب منهم أن يأخذوا حاجتهم ففعلوا وظل التمر على حاله لم ينقص منه شيء ولا تمرة واحدة.

هذه المعجزة تذكرنا بمعجزات عيسى بن مريم في تكثير الطعام والشراب لأتباعه وحوارييه. وكانت أمثال هذه الخوارق من أهم أسباب إيمان اليهود بابن مريم وتحولهم من اليهودية إلى المسيحية.

خبر وفادة بني مزينة وبني جهينة ينفحنا بمُعطى على قدر وفير من الأهمية وهو وقتية الأحكام فقد كان من المعروف أن محمداً

كان يشترط هجرة من يُسلم إلى يثرب ولا يصح إيمان من يُسلم ما لم يُهاجر.

بيد أنه عندما تكاثر عدد المسلمين وأخذت دولة القريشيين كفايتها من المحاربين تبين أن هجرة من يدخل الإسلام إلى أثرب تشكّل معضلة حارقة فهؤلاء المئات أو الألوف يحتاجون إلى مساكن وأعمال يرتزقون منها وطعام يسد رمقهم... الخ. هنا نسخ محمد شرط هجرة المسلم إلى أثرب وهذا ما يؤكده خبر وافد مزينة وجهينة إذ أن محمداً جعلهم مهاجرين وهم في دورهم وقال لهم بصريح العبارة (أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم فرجعوا إلى بلادهم).

إذن عندما كان يأتي فرد أو حتى نفر (النفر من ثلاثة إلى عشرة) مسلماً أو مسلمين كانت الهجرة في حقهم ضرورية بل شرطاً لإسلامهم فلما تغيّرت الظروف فمن ناحية اِستكفت الدولة القرشية بما اْنضم إليها من مقاتلين لازمين للغزوات والسرايا والبعوث والمهمات الخاصة ــ ومن أخرى وهي الأوعر غدا من المستحيل أن تستوعب أثرب هذه الأعداد الوفيرة، تغيّر الحكم فنُسخ شرط الهجرة وأصبح من الجائز اعتبار الشخص مسلماً وهو مقيم في بلده وإذ أننا من المنادين بـ(وقتية الأحكام) فإننا نهدي هذا الخبر إلى المناوئين المشاكسين الذين يعارضونه ويرمون القائلين به بأبشع التهم، ونحن نرجوهم أن يقرأوا السيرة قراءة متأنية وأن يتدبروها لأنها (= السيرة) كما ذكرنا في (الشدو)[٨٥] هي ديوان الإسلام ــ وهي التطبيق العملي له.

(٨٥) **شدو الربابة في معرفة أحوال الصحابة**، خليل عبد الكريم، سلسلة من ٣ أجزاء، دار سينا، مصر ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت.

حكاية خزاعي بن عبدنهم الواردة بالخبر نستقطر منها دلالات أهمها:

أ ــ أن قدوم نفر من قبيلة أو رهط... الخ ومبايعتهم لمحمد عن قومهم لا يعني بطريق الحتم واللزوم إسلام قومهم فقد وفد نفر من مزينة يرأسهم خزاعي وبايعوا محمداً عن قبيلتهم بيد أن القبيلة لم تُسلم.

ب ــ اِستعمل محمد وسيلة الإعلام المعروفة في زمنه وهي الشعر فاْستدعى حسان بن ثابت وأمره بأن يذكر خزاعياً في شعره بشرط ألا يهجَوه ففعل وأثمرت الفكرة وتحرك خزاعي وناشد أفراد قبيلته ألا يخذلوه ويصغّروه وأن يُسلموا ففعلوا وهكذا يمنحنا محمد الدليل وراء الدليل على حنكته السياسية.

ج ــ أن استخدام الإعلام وسيلة في صالح الدين والدولة بدأ مبكراً في فجر الإسلام.

كرّم محمد خزاعياً إذ جعله قائد كتيبة بني مُزينة في فتح مكة (فتح الفتوح) وهو شرف باذخ ــ كما أن مُزينة من جانبها غدت عوناً صادقاً لمحمدٍ إذ بلغ مقاتلوها ألفاً وهو رقم كبير بالنسبة لتلك الأيام ــ ولا شك أن حُسن سياسة محمد بأن صبر على المزينيين قد أمثر هذه الثمرة الطيبة.

أما لماذا لم يأمر محمد خزاعياً بقتال قومه كما كانت تقضي به النصوص التي ألمعنا إليها؟

الجواب نستقيه من الخبر ذاته ف خزاعي جاء في نفر والنفر كما ذكرنا من ثلاثة لعشرة فهل من المنطق في شيء أن يأمر هؤلاء بقتال قبيلة بكاملها.

٦٤ ــ معاوية بن حيدة

«عنه: أتيت رسول الله ــ ص ــ فلما دفعت إليه قال: أما إني سألت الله عز وجل أن يعينني عليكم بالسنة فتخيفكم وبالرعب أن يجعله في قلوبكم فقال لمعاوية: أما إني خُلِقت هكذا أو هكذا أي لا أؤمن بك ولا أتبعك، فما زالت السنة تخيفني والرعب يرعب قلبي حتى وقعت بين يديك فبالله الذي أرسلك بماذا بعثك الله عز وجل به؟ قال: بعثني بالإسلام ــ قال: ما الإسلام فأخذ ــ ص ــ يعلّمه... تحشرون ههنا ــ ثلاثاً ــ يعني الشام رُكباناً ومشاةً على وجوهكم موفون يوم القيامة سبعين أمة ــ أنتم آخر الأمم وأكرمها على الله تعالى وعلى أفواهكم الفِدام(٨٦) وأول ما يُعْرب عن أحدكم فخذه».

معاوية هذا من ولد ربيعة بن عامر بن صعصعة القشيري ويبدو أن قبيلته استعصت على محمد فسأل ربه أن يعينه عليهم بالجدب والفزع وقد اعترف معاوية بهما وأنه في بدّي الأمر عقد العزم على ألاّ يؤمن بمحمد وبالتالي لا يتبعه بيد أن السماء وكانت قد اِستجابت لمحمد وهذا ما أوضحه الشطر الأخير من إقرار معاوية (فما زالت السنة أي الجدب تخيفني والرعب يرعب قلبي حتى وقعت بين يديك... الخ) وحتم أن نذكّر هنا بالحديث الذي يؤكد فيه محمد أن الرعب هو أحد أسلحة انتصاره. وقد فسّرنا الرعب

(٨٦) **الفدام:** ما يشد على الإبريق الكوز من خرقة لتصفية الشراب الذي فيه والمعنى أنهم يمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم.

فيما سبق بأنه ارتفاع رايات جيوش دولة قريش التي مسحت أنحاء الجزيرة. أما السنة والجدب فهو أحد الظواهر الطبيعية التي تسود جزيرة العرب بدا ذلك من شكاية عدد من الوفود من القحط وامتناع نزول الغيث.

ولقد عبّر معاوية تعبيراً بليغاً عما أنتابه من رعب ولما أصابه من الجدب بـ (حتى وقعت بين يديك) أي أنهما حاصراه حتى ألقياه بين يدي محمد يؤمن بدعوته ويذعن لدولته ـــ وهو قد فهم السنة أو الجدب لا على أنها ظاهرة طبيعية تتكرر كثيراً إنما هي نقمة من السماء حاقت به لرفضه دعوة محمد والرعب بِحُسبانه دليل غضب السماء عليه أيضاً لا على أنه الحالة النفسية التي هيمنت عليه وعلى قومه من أثر تواتر هجمات وغزوات جيوش دولة قريش التي تنتهي حتماً إما بالتسليم أو قتل الرجال وسبي النسوان والذرية وهو فهم يتناسب مع مدارك معاوية ومستواه الثقافي والمعرفي.

٦٥ ــ وفد بني علماء نجران

«كتب رسول الله ــ ص ــ إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه ــ ص ــ ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يعني (سورة النمل، الآية ٣٠):

«بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من محمد النبي رسول الله إلى أُسقف نجران وأهل نجران إنْ أسلمتم فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من العباد وأدعوكم إلى ولاية العباد فإنْ أبيتم فالجزية، فإنْ أبيتم فقد آذنتكم بحرب ــ والسلام».

فلما أتى الأسقف الكتاب وقرأه قُطع به وذعر ذعراً شديداً، فبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة وكان من همدان.

ولم يكن أحد يُدعى إذا نزلت معضلة إلا الأيهم وهو السيد والعاقب، فدفع الأسقف كتاب رسول الله ــ ص ــ إلى شرحبيل وقرأه فقال الأسقف: يا أبا مريم ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة فما تؤمن أن يكون هذا هو ذاك الرجل، ليس في النبوة رأي، ولو كان أمراً من أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأي وجهدت لك. فقال الأسقف تنحّ فاْجلس ناحية.

بعث الأسقف إلى عبد الله بن شرحبيل (من أهل نجران ــ من ذي أصبح من حميّر) فأقرأه الكتاب وسأله الرأي؟ فقال نحواً من قول شرحبيل فقال له: تنحّ.

ثم بعث إلى جبار بن قيس من بني الحارث بن كعب فقال مثل قوله

سابقيه ثم تنحى فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقال أمر الأسقف بالناقوس فضُرب به ورُفعت النيران والسرج في الصوامع وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا نهاراً فإن فزعوا بالليل ضربوا بالناقوس ورفعوا النيران في الصوامع فاجتمع أهل الوادي أعلاه وأسفله وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع وفيه ثلاث وسبعون قرية ومائة ألف مقاتل فقرأ عليهم (= الأسقف) كتاب رسول الله ــ ص ــ وسألهم عن الرأي فيه فاْجتمع رأي أهل الرأي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني وعبد الله وجبـــار بن فيض الحارثي فيأتوهم بخبر رسول الله ــ ص.

قدم على رسول الله ــ ص ــ وفد نصارى نجران ستون راكباً فيهم أربعة عشرة رجلاً من أشرافهم. منهم العاقب وهو عبد المسيح والسيد وهو الأيهم وآخرون منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه واْسمه عبد المسيح والسيد ثُمالهم، وصاحبَ رَحْلهم ومجتمعهم واْسمه الأيهم.

وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل وأسقفهم وحَبْرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرّفوه وموّلوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم.

فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم ولبسوا حللاً لهم يجرّونها من حبرة وتختموا بالذهب وفي لفظ: دخلوا على رسول الله ــ ص ــ مسجده في المدينة حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات، جبب وأردية في جمال رجال بني الحارث بن كعب.

فقال بعض من رآهم يومئذٍ من الصحابة: ما رأينا وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجده ــ ص ــ يصلون نحو المشرق فقال: دعوهم، ثم أتوه فسلموا عليه فلم يرد عليهم السلام وتصدوا لكلامه

نهاراً طويلاً فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل والخواتم الذهب فانْطلقوا يتبعون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ــ رضي ــ وكانوا يعرفونهما فقالوا لهما: إن نبيكما كتب إلينا كتاباً وأقبلنا مجيبين له فأتينا فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا وتصدينا لكلامه نهاراً طويلاً فأعيانا أن يكلمنا فما الرأي منكما أنعود إليه أم نرجع إلى بلادنا. فقالا لعليّ بن أبي طالب ــ رضي ــ: ما الرأي في هؤلاء القوم يا أبا الحسن؟ فقال لهما: أرى أن تضعوا حللكم هذه وخواتيمكم وتلبسوا ثياب سفركم ثم تعودوا ففعل وفد نجران ذلك ووضعوا حللهم ونزعوا خواتيمهم ولبسوا ثياب سفرهم ورجعوا إلى رسول الله ــ ص ــ فسلموا عليه فرد عليهم سلامهم ثم قال: والذي بعثني بالحق أتوني المرة الأولى وإن إبليس لمعهم.

ثم دعاهم إلى الإسلام فقال العاقب السيد عبد المسيح وأبو حارثة بن علقمة: قد أسلمنا يا محمد فقال: إنكما لم تسلما، قالا: بلى قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام ثلاث فيكما: عبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير وزعمكما أن لله ولداً ــ ثم سألهم وسألوه فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له: ما تقول في عيسى بن مريم فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى يسرنا إنْ كنت نبياً أن نعلم قولك فيه فقال لهم ــ ما عندي فيه شيء يومي هذا فأقيموا لكي أخبركم بما يقول الله في عيسى.

عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي ــ رضي ــ قال رسول الله ــ ص ــ ثبّت بيني وبين أهل نجران صحاب فلا أراهم ولا يروني ــ من شدة ما كانوا يمارونه ــ ص ــ قال نصارى نجران: يا محمد فيم تشتم صاحبنا؟ قال: من صاحبكم؟ قالوا عيسى تزعم أنه عبد. قال: أجل إنه عبد الله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فغضبوا وقالوا: لا ولكنه هو الله نزل من ملكه فدخل في جوف مريم ثم خرج منها وأرانا قدرته وأمره، فهل رأيت قط إنساناً خلق من غير أب؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ (سورة

المائدة، الآية ١٧) وأنزل الله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ (سورة آل عمران، الآية ٥٩) ولما نزلت هذه الآيات دعا وفد نجران إلى المباهلة فقال:

إن الله أمرني إنْ لم تقبلوا هذا أن أباهلكم، فقالوا: يا أبا القاسم بل نرجع في أمرنا أخرنا ثلاثة أيام، فخلا بعضهم إلى بعض وتصادقوا، فقال السيد العاقب والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل ولئن لاعنتموه فيخسفن بأحد إنه للإستئصال لكم وما لاعن قوم قط نبياً فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك، قالوا: فما الرأي يا أبا مريم؟ فقال: رأيي أن أُحكّمه فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً، فقال السيد: فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم.

فلما انقضت المدة أقبل رسول الله ــ ص ــ مشتملاً على الحسن والحسين في خميلة له وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة وله يومئذٍ عدة نسوة فقال ص ــ: إن أنا دعوت فآمنوا أنتم ولما نزلت آية المباهلة دعا رسول الله ــ ص ــ عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فتلقى شرحبيل رسول الله ــ ص ــ فقال: إني قد رأيت خيراً من ملاعنتك فقال: وما هو؟ قال حُكمك اليوم إلى الليل وليلك إلى الصباح فما حكمت فينا جائز وأبوا أن يلاعنوه. عن ابن عباس ــ رضي ــ قال: لو باهل أهل نجران رسول الله ــ ص ــ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً. وعن الشعبي مرسلاً أن رسول الله ــ ص ــ قال: لقد أراني البشير بهلكة أهل نجران حتى الطير على الشجر لو أتموا الملاعنة. وعن قتادة مرسلاً قال رسول الله ــ ص ــ: إن كان العذاب قد نزل على أهل نجران أن لو فعلوا لاستؤصلوا من الأرض. رجع رسول الله ــ ص ــ فلم يلاعنهم وكتب لهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لأهل نجران إذا كان عليهم حكمه (فصّل أنواع

الجزية التي يدفعونها)... ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وصلواتهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير وألا يغيروا مما كانوا عليه بغير حق من حقوقهم ولا ملتهم، ولا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب من رهبانيته، ليس عليهم دية ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين، على ألا يأكلوا الربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبي محمد رسول الله حتى يأتي الله بأمره وانصحوا وأصلحوا ما عليهم غير مثقلين بظلم».

شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف النصري والأقراع بن حابس الحنظلي والمغيرة بن شعبة.

وفي اليعقوبي ج/ ٢ أن الذي كتب هذه الوثيقة علي بن أبي طالب ــ وبعث معهم أبا عبيدة السيد العاقب وأبو الحارث بن علقمة أتيا رسول الله ــ ص ــ فقالا: يا أبا القاسم رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع إلى ديننا ولكن أبعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً فقال النبي ــ ص ــ فلأبعثن أمين هذه الأمة.

اجتمعت نصارى نجران وأحبار اليهود عند رسول الله ــ ص ــ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانياً فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تحاجون في إبراهيم﴾ إلى آخر الآيات من سورة آل عمران من ٦٥ إلى ٦٨ فقال رجل من الأحبار: أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى؟ وقال رجل من النصارى: أوَذلك تريد يا محمد وإليه تدعونا؟ فقال رسول الله ــ ص ــ: معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره ما بذلك بعثني ولا أمرني، فأنزل الله عز وجل في ذلك

﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً من دون الله﴾ إلى آخر الآيات ٧٩ إلى ٨٠ من سورة آل عمران. ثم لما قبضوا (وفد نجران) كتابهم انصرفوا إلى نجران ومع الأسقف أخ له من أمه وهو ابن عمه من النسب، يقال له بشر بن معاوية وكنيته أبو علقمة فدفع الوفد كتاب رسول الله ــ ص ــ إلى الأسقف فبينا هو يقرأه وأبو علقمة معه وهما يسيران إذ كَبت ببشر ناقته فَتعِسَ بشر غير أنه لا يكنى عن رسول الله ــ ص ــ فقال له الأسقف غير ذلك: قد والله تعست نبياً مرسلاً، فقال له بشر: لا جرم والله لا أحلّ عقداً حتى أتى رسول الله ــ ص ــ فصرف ناقته نحو المدينة وثنى الأسقف عليه ناقته، فقال له أفهم عني إنما قلت ذلك ليبلغ عني العرب مخافة أن يقولوا إنا أخذنا حقه أو أرضينا بصوته أو نجعنا بما لم تنجع به العرب ونحن أعزهم وأجمعهم داراً ــ فقال له بشر: لا والله لا أقبل ما خرج من رأسك أبداً فضرب بشر ناقته هو مولى ظهره الأسقف حتى أتى رسول الله ــ ص ــ فأسلم ولم يزل معه حتى قتل بعد ذلك.

ودخل الوفد نجران فأتى الراهب ليث بن أبي شمر الزبيدي وهو في رأس صومعة فقال له: إن نبياً بعث بِتهامة فذكر ما كان من وفد نجران إلى رسول الله ــ ص ــ وأنه عرض عليهم الملاعنة فأبوا وأن بشر بن معاوية دفع إليه فأسلم فقال الراهب: اِنزلوني وإلا ألقيت نفسي من هذه الصومعة، فأنزلوه فانطلق الراهب بهديه إلى رسول الله ــ ص ــ منها هذا البُرد الذي يلبسه الخلفاء والقَعْب والعصا، فأقام الراهب مدة بعد ذلك يسمع الوحي والسنن والفرائض والحدود ثم رجع إلى قومه ولم يقدر له الإسلام ووعد أنه سيعود فلم يعد حتى قُبض رسول الله ــ ص ــ».

اِستنزف هذا الخبر مساحة وسيعة، إذن فلا غرو أن يطرح لنا حصيلة وافرة من المعطيات البالغة الخطر والتي تضيء جوانب معتمة وتفسر كثيراً من الأمور الغبشاء واستقصاؤها بدوره سوف

يشغل حيزاً عريضاً وهذا وذاك سيبعثان على الملال ويؤديان إلى الضيق ويصيبان بالكلال ثم ينتهيان بـ الإعراض ومن ثم ينتصب حرصنا على الاقتصار على أهمها.

في البدء افتتح محمد كتابه إلى أسقف نجران باسم إله ابراهيم واسحق ويعقوب، وليس صحيحاً أن ذلك قبل ورود (بسم الله الرحمن الرحيم) في سورة النمل إذ أنها مكية وكان محمد في تلك المرحلة في حالة استضعاف لم يرسل كتباً لأسقف نجران ولا لغيره من رؤساء شؤون التقديس ولا من الملوك ولم يكن في ظرف يهدد بالحرب (.. فقد آذنتم بحرب) بل كان يبحث عن النصير والمجير ــ والوفود قدمت عليه في المدينة (أثرب) أي بعد سورة النور ــ إذن هذه التسمية مقصودة وهي استمالة نصارى نجران بإعلامهم بأن الإسلام ودينهم (المسيحية) فرعان من دوحة واحدة هي الإبراهيمية ــ وأن الإسلام يبجّل الأنبياء/ الرسل الجدود أو الجذور أو الأصول والأروم: إبراهيم وإسحق ويعقوب.

هدد محمد النصارى ــ نصارى نجران ــ إذا لم يقبلوا دعوته فقد أذنهم بالحرب وهو هنا يطبق النصوص التي ألمعنا إليها وما إن وصل الأسقف مكتوب محمد حتى ركبه الذعر الشديد وأصابه الهلع الوفير وضربه الخوف العنيف رغم أنه كما قرأنا كان تحت يديه مائة ألف مقاتل وهذا الرعب هو الذي أكد محمد أنه أحد أسلحته في النصر على عداه... بيد أن مرده في مذهبنا إلى أن جيوش دولة قريش طفقت تسوط أنحاء الجزيرة رافعة شعار (أسلموا تسلموا، الإسلام أو السيف) وكيف لا يغدو الأسقف تِرْعابة(٨٧) وقد رأى بعينيه وسمع بأذنيه ولمس بيديه ما حاق بالقبائل التي عصلجت من

(٨٧) **تِرْعابة:** شديد الخوف والفزع.

قتل الرجال وسبّى النسوان والذراري ونَهَكَة الأموال؛ وهم (= النصارى) وفي وضع أوعر لأنهم أصحاب ديانة سابقة على الإسلام فإذا سهل على المشرك أو الكافر التخلي عن عقيدته فإن المسيحي (النصراني) قد يستحيل أو يتعسر عليه ذلك ومن ثم فاحتمال إنزال أحكام آية السيف عليهم وارد، إذا لم يرضوا بالجزية وإذ أنهم كانوا أعاريب فقد كانوا يرون فيها ضرباً من الصغار ونوعاً من الإذلال.

الشورى تقليد مستقر في جزيرة العربان وسبق الإسلام بقرون متطاولة واْستعاره الإسلام من بين النظم التي استعارها من الفترة السابقة عليه(٨٨) أي أنها (= الشورى) ليست إبداعاً إسلامياً والخبر يؤيد ما قلنا به منذ عدة ساعات ـــ ففي البداية شاور الأسقف وجوههم أو ملاهم أو ذوي الرأي فيهم وبداهة أن يكونوا من أصحاب السابقة في الديانة والراسخين في العلم بها ـــ إنما أمرهم شورى بينهم. وهكذا تؤدي مثل هذه الحفريات إلى الوصول إلى جذور العديد من (النصوص) الأمر الذي يؤدي إلى فهمها على الوجه الصحيح.

نجران جزء من اليمن الذي كان يتمتع بمستوى حضاري راقٍ ولذا فعندما قدم وافدهم على محمد في صورة حسينة وهيئة جميلة يلبسون الغالي من الثياب ويحلون أطرافهم بخواتيم الذهب، ولما كان محمد يحرص أكبر الحرص على ألا تهتز روح صحابته المعنوية ولو قيد شعرة ولهذا كره هذه المظاهرة الذهبية الباذخة وما

---

(٨٨) انظر كتابنا **الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية**، الفصل الثاني (الشورى) من الباب الخامس (الشعائر السياسية)، الطبعة الأولى ١٩٩٠، دار سينا ـــ الطبعة الثانية ١٩٩٧، دار سينا، مصر ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت.

قد تجره من متاعب إذ يقارن أصحابه أنفسهم بهؤلاء الرافلين في الحرير والمتجملين بالذهب فيهزل إيمانهم ويضعف يقينهم ويرقّ إسلامهم وهذا يتمثل في قول بعض الصحبة (ما رأينا وفداً مثلهم) ولا علاج لهذه البلية إلا بمقابلتهم بمنتهى التجاهل وغاية الإعراض وبذلك يعطي صحبه وتبعه أجمعين درساً عملياً في احتقار الدنيا واعتبارها جيفة وأهلها كلاب، وأن ما عند الله خير وأبقى وأن الصحب وإن كانوا في حالة رثّة فإن ساق أحدهم أثقل في الميزان من جبل أحد وأن ثوبه الخلق الهلهال أغلى عند الله من الحبرة المكففة بالحرير.

ولكي يزداد الصحابة نفوراً من هذا الوفد المتبيهس المتبختر ذكر محمد لهم أن إبليس ــ زعيم الشياطين أو الشيطان الأكبر كان برفقتهم أي أن الأبلسة أو الشيطنة قرين الزَيَفَان والبرقشة والتزيين والتجمل (للرجال) وليفسّر لتبعه سبب صدوده عن نصارى نجران وهم في ملبسهم الأنيق. فهو بذلك ضرب عصفورين بحجر واحد:

أ ــ قطع أي شعور بالإعجاب والتمني من نفوس أتباعه إذ كيف يتمنى مسلم أو يعجب بملابس أناس يصاحبهم رأس الكفر والشر والضلال؟

ب ــ تبرير تجافيه لهم إذ ربما يحوك في صدر بعض المحيطين به هاجس: لماذا يُعرض محمد عن قوم أتوا إليه مذعنين، وما ذنبهم إن كانوا أغنياء مياسير. أما رفقة الشيطان لهم فهي مبرر كاف لأن يعاملهم تلك المعاملة التي يستحقونها.

ولقد أدرك أبو الحسنين وفطن لما غاب عن كل من عثمان بن عفان وعبد الرحمان بن عوف فأرشد النجرانيين إلى علة صدود محمد عنهم وقد صدقت فراسته فما إن تخلوا عن هيئتهم

الإبليسية ولبسوا ثياب سفرهم رضي عنه محمد فوراً ورد سلامهم وحادثهم. ولو أنهم منذ المفتتح قدموا عليهم ثياب سفرهم لما حدث لهم شيء لأنها تبدو أقرب إلى ملابس الصحب ومن ثم لا تثير أي إحساس بالفارق في المستوى المالي والاجتماعي والحضاري.

تظهر سماحة محمد في موافقته لوفد نصارى نجران على أن يؤدوا شعائر صلاتهم في مسجده، ورغم إدعاء مسلمي اليوم عمق تأسيهم بمحمد واقتدائهم به في الصغيرة والكبيرة من شؤون الدين على وجه الخصوص، فلو أن مسيحياً أو ثلة من المسيحيين اِستأذنوا في أداء صلاتهم في أحد مساجدهم لكان جزاؤهم: الموت الزؤام ــ وهكذا يستبين أن القيم العالية التي بشّر بها محمد يتضاءل تمسك أتباعه بها وتخفت رويداً رويداً ــ ولا يبقون إلا على الشكليات والرسوم.

أورد لنا الخبر طرفاً يسيراً ــ مما دار بين رؤوس وقد نصارى نجران وبين محمد وتضمن أمرين:

أ ــ أن الإسلام هو جوهر الديانات الإبراهيمية الثلاث والمقصود به عقيدة التوحيد ولكنها تختلف في الشرائع والطقوس والعبادات ولذا عندما جابههم محمد بعدم إسلامهم لم يأت ردهم عليه: ما لنا وللإسلام نحن نصارى (مسيحيون) إنما أقروا بإسلامهم بل زادوا بأنهم سبقوا محمداً في الإسلام ــ وهذا مصداق لما ورد في القرآن ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٩) ثم قدم لهم محمد أدلّة الثبوت على عدم إسلامهم فهم يعبدون الصليب ويدّعون أن المسيح هو ابن

الله فهذان أمران لا يخدشان عقيدة التوحيد فحسب بل يهدمانها من أسها.

ب ــ الحوار الذي دار حول المسيح فقد اعتبر علماء نجران أن محمداً عندما يقول عن ابن مريم أنه عبد الله فقد شتمه فهو ــ في نظرهم إله وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً فحاول محمد أن يفهمهم أن هذا ليس شتماً أو إهانة لأن المسيح رسول مثله لا يتصور أن يتطاول عليه وأنه (= المسيح) فعلاً عبد الله روحه وكلمته ألقاها إلى مريم البتول ــ فردوا عليه رداً مضحكاً: الله نزل من ملكه ودخل في جوف مريم ثم خرج منها ثم أوضحوا العلّة وهي إثبات قدرته. ولا أدري كيف يؤمن إنسان عاقل أن الله جل جلاله يدخل في رحم امرأة حتى ولو كانت سيدة نساء العالمين؟ وهل لم يجد رب العزة طريقاً لإثبات قدرته سوى هذه المهزلة.

ولما سألوه إن كان طول عمره رأى إنساناً من غير أب؟

وهنا تلا عليهم محمد آية ألقمتهم حجراً موجزها أن آدم لم يخلق من أب ولا حتى من أم بل من تراب... الخ.

بخلاف الأمرين السابقين فإن كتب السيرة لم تحمل لنا بقية المناقشات التي دارت بين علماء وفد نجران وبين النبي محمد ولا شك أنها إستمرت طوال إقامة الوفد بأثرب/ المدينة.

ولندع الحدس والتخمين جانباً ففي الخبر ما يؤكد أن حواراً أو حواراتٍ طويلةٍ إستمرت بين الفريقين وعبارات تفصح عن ذلك بما لا يدع مجالاً لظنٍ أو شكٍ. فعلى سبيل المثال لا الحصر (... ثم سألهم وسألوه فلم تزل به وبهم المسألة) فهذه الجملة تثبت أن

حواراً ممضاً تبادله وقد عبّر عنها الخبر بـ (المسألة) لم تزل به وبهم أي أنهم تبادلوها أي المناقشة أو المجادلة وقتاً مديداً. (وقال رسول الله ــ ص ــ ثبّت بيني وبين أهل نجران صحاباً فلا أراهم ولا يروني ــ من شدة ما كانوا يمارونه) فقرة تصبح عباراتها بأن جدل النجرانيين بلغ حد المماراة الشديدة والمرهقة حتى أن محمداً كره رؤيتهم... إذن ما أثبت كبت السيرة من حوارات دارت بين الطرفين هين وضئيل وكنا نود لو أنها فعلت العكس أي دوّنت تلك المناقشات بالكامل ولم تُغفل منه شيئاً أو على الأقل روت جُلّها ولم تغادر إلا النزر اليسير.

وهذا نفسه حدث في حوارات محمد مع علماء بني إسرائيل وقد ذكرنا ذلك في (الشدو)[٨٩] فإن كتب السير والتواريخ أغفلت رصدها رغم أنها دارت بين محمد وعدد وفير منهم ومن المفارقات أن تلك الكتب أوردت أسماءهم ولكنها أمسكت عن تدوين الحوارات. وسواء أكان إسقاط حوارات محمد مع علماء بني إسرائيل وعلماء نصارى نجران تم عمداً أو سهواً فالذي لا يشك فيه أحد أن ثروة غزيرة من الفكر الديني قد اِندثرت ولو أنها سُجّلت لكشفت كثيراً من النقاط المضببة، وأضاءت العديد من النواحي المعتمة منها على سبيل المثال:

أولاً: بالنسبة لليهود

أ ــ نقاط الاختلاف والائتلاف بين اليهودية والإسلام.

ب ــ ما الذي أحفظ قلب محمد على اليهود حتى تلقوا على يديه ذلك المصير المفجع...

(٨٩) **شدو الربابة في معرفة أحوال الصحابة**، خليل عبد الكريم، دار سينا للنشر، مصر ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت.

ولأن الأسباب التي أوردتها الكتب التراثية تنتصب كأدلّة ثبوت كافية لاستحقاق اليهود تلك النهاية المأساوية ــ ولما كان محمد هو العدل كله إذن لا بد أن هناك أسباباً أخرى جعلته يقتنع بأن الجزاء الذي وقّعه عليهم هو كِفاء وزيادة... وتلك الأسباب كنا سنعثر عليها بين ثنايا المناقشات والحوارات المذكورة، التي قفزت عليها كتب السير والتواريخ.

ج ــ أن تلك الحوارات كانت ستكشف لنا رأي اليهود في محمد والدين الذي يبشر به والدولة التي أقامها في يثرب.

د ــ علاقات اليهود بـ (بني قيلة) وخاصة البطون أو الأفخاذ السمينة (من الأنصار) وأنواع الأحلاف التي تربطهم والعلاقات كافة.

ثانياً: بالنسبة للنصارى

أ ــ توصيف تلك الفرقة التي هي فرقة من فرق النصارى وما هي عقائدها هي على وجه الدقة.

ب ــ ما كان يأخذه عليهم محمد بخلاف ما ذكرناه فيما قبل.

ج ــ رأي أولئك العلماء في محمد والدين الذي يدعو إليه والدولة التي أسسها.

د ــ صلة أسقفية نجران بباقي الأسقفيات سواء في داخل الجزيرة أو خارجها...

وهل كان علماء نجران يعربون عن وجهة نظرهم الخاصة أم يتحدثون بلسان آخرين ومن هم؟

ثالثاً: بالنسبة لعلماء الديانتين

الحوار الديني البحت الذي جرى بين محمد وبين علماء الديانتين والذي لا شك أنه على قدر وفير من الثمانة والذي يُعدّ ضياعه خسارة لا تعوض.

وهكذا فوتت كتب السيّر والتواريخ فرصة نادرة وفي رأينا أن الإعراض عن تسجيل هذه الحوارات تمّ عمداً وفي القرون اللاحقة.

لما طال مراء علماء نجران أمرت السماء محمداً أن يباهلهم. ولكن ما هي المباهلة[٩٠]؟

يخرج الفريقان إلى الخلاء ويدعوان الله أن ينزل لعنته وغضبه وسخطه على الظالم المفتري والبادي أنها طقس شائع وقديم لمعرفة النجرانيين بها ولقولهم (ما لاعن قوم نبياً إلا...) والراجح أنها الشكل المطوّر (من التطوير) أو المعدّل أو المحسّن من القربان الآدمي ذلك أن الضحية الآدمية كان مصيرها الغالب هو الحرق وبعكس القربان الحيواني الذي كان يحرق في المحرقة أو على المذبح إنما دائماً داخل نطاق حرم الإله، كان القربان الإنساني يُحرق خارج المدينة والمباهلة كما ذكرنا تقع في الخلاء ــ والتطوير أو التعديل أو التحسين الذي حدث بها من إثر ارتقاء العقل البشري أن السماء هي التي تتولى حرق الظالم بدل أن كان الكهنة هم الذين كانوا ينوبون على الإله في تحريق القربان وإذا تفرّست في العبارات التي وردت على لسان كل من العلماء (علماء نجران) أو محمد تجدها متشابهة وإن لم تكن متطابقة.

---

(٩٠) **باهل** بعضهم بعضاً: اجتمعوا فتداعوا فاستنزلوا لعنة الله على الظالم. المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية وهي لا تخرج عن هذا المدلول في سائر قواميس اللغة، إذن المباهلة هي الملاعنة.

فالأولون قالوا: إنه الاستئصال (ما) بقي كبيرهم ولا ينبت صغيرهم ولا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر... وقال محمد:... لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً... هلكة أهل نجران حتى الطير على الشجر... لاستؤصلوا من الأرض...

نؤوب إلى جواب الشرط: إذا تفرّست في هذه العبارات لوجدت أنها تصف آثاراً حارقة تصيب المفتري الظالم أي أن السماء قامت بوظيفة الكاهن في حرق القربان الإنساني أو البشري الذي هو الظالم المفتري.

ومن هنا نرجّح أنها (المباهلة أو الملاعنة) طقس من طقوس الديانات السامية العتيقة توارثتها الأديان السامية الكتابية مع شيء من التحوير.

استعد محمد للمباهلة وخرج مع خلاصة أهل بيته عليّ وفاطمة والحسن والحسين بل إنه قصر أهلية البيت عليهم لا أزواجه ولا أحد من بني هاشم أو من قريش وأعلنها للكافة (اللهم هؤلاء هم أهل بيتي)...

وإذا كان اْعتبار فاطمة والحسن والحسين هم أهل بيته مفهوم لأنهم ذريّته المباشرة أما عن عليّ فهو المشكل؟

بيد أن حَلّه يتوزع في العديد من القنوات أولاها أنه ربيبه أي تربى في حجره وأول من آمن به من الرجال وهو زوج أحب بناته إليه وأكثرهن شبهاً به في هيئتها ومشيتها وهو أخلص أعوانه ولطالما ساعدت شجاعته وسيفه في نشر الدين وترسيخ قواعد دولة قريش وتوسيع رقعتها ــ ويصفه إخوتنا الشيعة بأنه وصيّ محمد ــ ويستشهدون على ذلك بالحديث المعروف بـ (حديث الغدير أو حديث غدير خُمّ) الذي ورد في بعض دواوين السنة المحترمة لدينا

نحن أهل السنة والجماعة. اِنخنس النجرانيون وتراجعوا ولم يباهلوا محمداً ـــ ورضوا بحكمه لأنهم يعرفونه عادلاً منصفاً لا يجور... وكتب لهم كتاباً مطولاً والذي يشد الانتباه مفتتحه: بسم الله الرحمان الرحيم فهو لم يسطر فيه باسم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب كما فعل في رسالته الأولى وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن البسملة التي حملتها تلك الرسالة كانت تستهدف طيّهم وضمهم إلى صفه وإعلامهم أن ديانته وديانتهم تتفرعان من جذع واحد فلما لم تأت هذه الخطة بثمرتها المرجوة عاد إلى البسملة الأولى.

وهذا أيضاً ينقض ما اْنتهى إليه كاتب السيرة تعليلاً لكتابة البسملة المستحدثة (بسم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب) من أن سورة النمل لم يكن محمد قد قرأها على الصحاب مع أن هذه السورة مكية نزلت في مكة أي قبل وفادة أهل نجران بسنوات.

تذكّرنا هذه الصحيفة بأخرى سابقة عليها أصدرها محمد عقب وصوله أثرب كتبها ليهودها يحدد لهم فيها حقوقهم والتزاماتهم هذه الصحيفة تسميها فرقة التبجيليين (دستور المدينة) بل وتستمر في المبالغة الفجة ولا تبالي بذلك بل إنها تستخف بالعقول وتستهين بالعملية وتتجرأ على الموضوعية فتصفها بأنها أول دستور في العالم أجمع ورددنا عليهم بأنها ليست دستوراً ولا معاهدة إنما هي قرار أصدره محمد يحدد فيه التزامات بني إسرائيل وحقوقهم وقد فعل ذلك بعد أن غدا حاكم يثرب وأمر آخر يشد الانتباه في صحيفته لأهل نجران هو التسامح الديني الذي أبداه محمد نحوهم ـــ فإذا وضعنا في الاعتبار أن هذه الوثيقة حُررت في بداية العصور الوسيطة التي اتسمت بالتعصيب المقيت لتكشّف لنا الفرق المذهل بين محمد وغيره.

وفي عجز الخبر أو على مقربة من عجزه يقصّ لنا العركة التي دارت بين أبناء الديانات الإبراهيمية الثلاث فاليهود يدّعون أن إبراهيم كان يهودياً وانتسب النصارى إليه وأقسموا أغلظ الإيمان على نصرانيته فجاء محمد وتلا آيات تؤكد أنه ما كان يهودياً ولا نصرانياً ولكنه كان حنيفاً ويفسّر لنا هذه الكلمة ما ورد في كتاب المصاحف لـ السجستاني أنه جاء في مصحف عبد الله بن مسعود (إن الدين عند الله الحنيفية) ومعلوم أنها في المصحف الرسمي العثماني ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٩) إذن الحنيفية والإسلام صنوان وترتيباً على ذلك يمكن أن يقال إن إبراهيم كان مسلماً وهكذا:

اليهود يدّعون أن إبراهيم كان يهودياً والمسيحيون يذهبون إلى أنه كان مسيحياً أما المسلمون فيؤكدون أنه حنيفياً مسلماً ــ ولا غرابة في أن تقوم هذه الشمطة[٩١] بين أبناء الديانات الثلاث فضم أصل الأصول إلى واحد منهم شرف لا يدانيه شرف آخر ودليل لا يقبل النقض على صحة الديانة وصدق من بشر بها وطمأنة لتبعه أنهم على الجادة المستقيمة التي ليلها كنهارها أما الآخرون فهم الهُلاّك الزائفون.

(٩١) في المعجم الوسيط شمط الكلام: اختلط وصار ألواناً.

٦٦ ــ وفد بني النخع

«بعثت النخع رجلين منهم إلى النبي ــ ص ــ وافدين بإسلامهم: أرطأة بن شراحيل والجمش واسمه الأرقم، فخرجا حتى قدما عليه ــ ص ــ فعرض عليهما الإسلام فقبلاه وبايعاه على قومهما، فأعجب ــ ص ــ شأنهما وحسن هيئتهما فقال: هل خلفتما وراءكما قومكما مثلكما؟ فقالا: يا رسول الله قد خلفنا وراءنا مِن قومنا سبعين رجلاً كلهم أفضل منا وكلهم يقطع الأمر وينفذ الأشياء ما يشاركوننا في الأمر إذا كان، فدعا لهما ــ ص ــ ولقومهما بخير وقال: اللهم بارك في النخع، وعقد الأرطأة لواءً على قومه فكان في يده يوم الفتح وشهد به القادسية فقُتل يومئذٍ فأخذه فقُتل ــ رحم ــ فأخذه سيف بن الحارث من بني جذيمة فدخل به الكوفة.

وعن عبد الله بن مسعود ــ رضي ــ: سمعت رسول الله ــ ص ــ يدعو لهذا الحي من النخع أو يثني عليهم تمنيت أني رجل منهم.

كان آخر من قدم من الوفد على رسول الله ــ ص ــ وقد النخع ــ من اليمن للنصف من المحرم سنة إحدى عشرة وهم مائتا رجل فنزلوا دار رملة بنت الحرث (الحارث) ثم جاءوا رسول الله ــ ص ــ مقرّين بالإسلام وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل باليمن فكان فيهم زُرارة بن عمرو، وكان نصرانياً.

وفد رجل من النخع يقال له زُرارة بن عمرو على رسول الله ــ ص ــ فقال: يا رسول الله إني رأيت في سفري رؤيا هالتني رأيت عجباً، قال وما رأيت؟ قال: رأيت أتاناً تركتها في الحي كأنها ولدت جدياً أسفع

أحوى، فقال ــ ص ــ: هل لك من أمة تركتها مُصرّة حملاً؟ قال: نعم تركت أمة لي أظنها قد حملت قال: فإنها قد ولدت غلاماً ما هو ابنك فقال: يا رسول الله ما باله أسفع أحوى قال: اُدن مني فدنا منه فقال: هل بك برص تكتمه؟ قال: والذي بعثك بالحق نبياً ما علم به أحد ولا أطلع عليه غيرك قال: فهو كذلك.

قال: يا رسول الله ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان ودُمُلجان وَمَسْكتان[٩٢]، قال: ذلك ملك العرب عاد إلى أحسن زيه وبهجته.

قال: ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بيني وبين اِبن لي ورأيتها تقول: لظى لظى، بصير أعمى أطعموني آكلكم آكلكم أهلككم زمانكم فقال النبي ــ ص ــ: تلك فتنة آخر الزمان قال: وما الفتنة يا رسول الله؟ قال: يُقتل إمامهم ثم يشتجرون أطباق الرأس وخالف رسول الله ــ ص ــ بين أصابعه يحسب المُسيء أنه مُحسن ودم المؤمن عنده أحلى من شرب الماء إن مات ابنك أدركت الفتنة وإن متّ أنت أدركها اْبنك.

فقال: يا رسول الله ــ اْدع الله لي ألاّ أدركها فقال له رسول الله ــ ص ــ اللهم لا يدركها فمات وبقي اْبنه وكان ممن خلع عثمان ــ رضي ــ».

النخع من القبائل المعروفة وبعد الفتح الميمون ودعك البلاد المجاورة اِشْتُهر بعض أبنائها في العلم والفقه كذلك لعدد من نسائها وقفة مشهورة في إحدى وقائع الغزو الاستيطاني ولذلك ــ لثقل وزنها ــ تراخت كثيراً في الإذعان والتسليم والانقياد والدخول في الدين...

جاءت في الحرم سنة إحدى عشر هجرية ومحمد اِنتقل إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول (من

(٩٢) **المَسْكة:** السوار والخلاخيل من الذبل وهي قرون الأدغال.

السنة ذاتها) ويوافق الثامن من يونيو/ حزيران ٦٣٣م ــ أي أقل من شهرين من وفاته.

ومن هنا وصفها كاتب السيرة بأنها آخر الوفود.

بيد أنه فيما يبدو أن أفراداً من النخع جاءوا قبل ذلك بدليل ما ورد: أن محمداً عقد لواء لِ أرطأة على قومه فكان في يده يوم الفتح ومعلوم أن فتح مكة كان في السنة التاسعة الهجرية.

وهؤلاء الذين أرسلتهم النَخْع لم يكونوا يشكّلون وفدها الرسمي إنما جاءوا لمعرفة الأحوال وتحسس الأخبار لتقدير الأمر واتخاذ القرار الصائب ولما كان محمد شديد الفطانة فقد أدرك ذلك بثاقب نظر فأحسن استقبال المندوبين ودعا للقبيلة كلها وأعطى أحدهم لواءً وأشركه في فتح الفتوح وهذا تشريف ما بعده تشريف وتيقن أرطأة نفاسة اللواء الذي عقده له محمد وظل محتفظاً به ورفعه يوم القادسية المعركة المشهورة التي فعل فيها أولئك العُربان الأفاعيل وعندما اْستولت عليه قبيلة أخرى (بنو جذيمة) اِسترده منها النخعيون.

حكى الوفدان لمحمد أحوال القبيلة وذكرا أنهما خلفا وراءهما من قومهما سبعين رجلاً ينفردون بالقطع في الأمور وتنفيذها لا يشاركهم فيها غيرهم وهم الملأ أو القبيل أو مجلس شورى القبيلة الذين يشيرون على شيخ القبيلة بالرأي عندما يستشيرهم، وهذا المجلس حلّ بعده فيما بعد أهل الحل والعقد في الفقه الإسلامي ولو أن خلفاء المسلمين على طول التاريخ لن يشكّلوا هيئة استشارية (أهل الحل والعقد) بل كانوا ينفردون بإصدار القرار وهو الأمر الذي صبغ الحكم الإسلامي بصبغة دكتاتورية وهو ما جعل الفرنجة يتحدثون عن (الاستبداد الشرقي) ــ ولإلف المسلمين استبداد

حكامهم بهم وتعوّدهم عليه لم يرَ الشيخ محمد عبده بأساً من أن يتولى الحكم (مستبد عادل) وقبل أن نغادر خبر الملأ أو مجلس شورى القبيلة نلفت الانتباه على أن عددهم سبعون الأمر الذي يدعونا إلى القول بأن تقديس الرقم سبعة جاء إلى الديانات الإبراهيمية بالميراث عن الديانات السامية العتيقة، لأن كثرة الرقم سبعة لدى عرب ما قبل الإسلام يقطع بأنهم كانوا هم أيضاً كانوا يقدّسونه وأن ذلك جاءهم من تلك الديانات التي كانت منتشرة في تلك المنطقة ــ ومما هو معلوم أن عرب ما قبل الإسلام كانوا يؤدون شعيرة الحج بكل تفاصيلها ما عدا التلبية التي كانت تحتوي على شرك... ويلحق بتلك الشعيرة الطواف حول الكعبة سبعة أشواط والسعي بين الصفا والمروة سبع مرات الخ. وهذا يكشف عن تقديس الرقم سبعة والاعتقاد بأسراره وآثاره الغيبية ووجود صلة غامضة بينه وبين السماء. ومن هذا المنطلق كان عدد الوافد ــ في عدد من الحالات يتكون من سبعة أشخاص أو مضاعفات السبعة ليشملهم هذا العدد بخفاياه ورموزه المباركة أو عساه يكون الشفرة التي تفك رموزها القوى الماورائية فتمنح العون والتأييد.. الخ.

وأخيراً حضر الوفد الرسمي في مائتي رجل وقد قرأنا في رأس الخبر أن بني النخع اِمتازا بحُسن الهيئة وكان من البديهي أن ينزلوا ــ لكثرة عددهم ــ دار رملة بنت الحارث (الدار الرسمية للضيافة) وهذا العدد الوافر يدل على أنها كانت وسيعة رحبة الجنبات. وضم الوفد نَخْعياً نصرانياً وهذا يثبت ما قلناه إن الوفادة في الأصل سياسية تهدف إلى الإعلام بالتخشّع والتخضّع والانقياد لدولة قريش، ونذكّر بما قلناه في كتابنا قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية عن الدين أنه اِسْتُخْدم كـ مدماكٍ يشد أزر الدولة. ولم تكن قريش بدعاً في ذلك بل كثيراً ما حدث وأن حلّت الأيديولوجيا ــ

حالياً محل الدين. وكما تقبّل محمد مندوبي النَخْع خير استقبال ودعا لـ قبيلتهم ـــ رحّب بـ (الوفد الرسمي) وأثنى عليهم ثناءً مُستطاباً وأكثر من ذلك وأطنب في الدعاء لهم وأمعن في التبريك حتى إن صحابياً من السابقين الأولين عندما سمع ذلك من محمد تمنى أن يكون نَخْعيّاً. تضمن الخبر معجزة سريعة عندما أخبر تمنى أن يكون نَخْعيّاً. تضمن الخبر معجزة سريعة عندما أخبر محمد زُرارة النخعي عن برص في جسمه كان يكتمه عن أقرب الناس إليه وهذه المعجزة تذكّرنا بما كان يحدث على يد عيسى بن مريم من إنباء قومه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

تنبأ محمد بنبوءتين:

أولاهما: عودة ملك العرب على أحسن ما يكون زياً وبهجة وهنا تختلط (= النبوءة) بـ الأمينة أو بالحلم، حُلم الآباء والجدود بدولة قريش التي تهيمن على الجزيرة ثم حُلم أو أمنية الحفيد بالسيطرة على أراضي دولة الجوار.

وأخراهما: الفتنة الكبرى التي بدأت بـ (يوم الدار) ومقتل عثمان بن عفان وما تلاه من لواحق اِنتهت بشقّ صف المسلمين سُنّة وشيِعة وما زالت آثار هذه الفتنة مستمرة حتى يومنا هذا. وفي كلتا النبوءتين كان محمد كالعهد به هو الصادق المصدوق.

٦٧ ــ وفد بني هلال بن عامر

«وفد زياد بن عبد الله بن مالك على النبي ــ ص ــ فلما دخل المدينة توجه إلى منزل ميمونة بنت الحارث زوج النبي ــ ص ــ وكانت خالة زياد، أمه عزة بنت الحارث وهو يومئذٍ شاب فلما رآه رسول الله ــ ص ــ غضب فرجع فقالت: يا رسول الله هذا ابن أختي فدخل إليها ثم خرج حتى أتى المسجد ومعه زياد فصلى الظهر ثم أدنى زياداً فدعا له ووضع يده على رأسه ثم حدّرها على طرف أنفه فكانت بنو هلال تقول ما زلنا نعرف البركة في وجه زياد.

قال الشاعر لعليّ بن زياد:

يا ابن الذي مسح النبي برأسه ... ودعا له بالخير عند المسجد
ما زال ذاك النور في عرنيـــنه ... حتى تبـــوأ بيـــته في الملحد

قدم على رسول الله ــ ص ــ نفر من بني هلال فيهم عبد بن عوف بن أحرم فسأله عن اِسمه فأخبره فقال: أنت عبد الله فأسلم.

ومنهم قبيصة بن المخارق، قال: يا رسول الله إني حملت عن قومي حمالة فأعني فيها قال: هي لك في الصدقة إذا جاءت».

عندما رأى شاباً في حجرة زوجه ميمونة بنت الحارث كان من الطبيعي ان يغضب ويعدل عن دخولها ويعود أدراجه هذا شعور طبيعي لدى كل رجل ــ بيد أنها أفهمته أن هذا الشاب هو ابن

أختها عزة بنت الحارث فانفثأ غضبه وسكن سخطه وهدأت ثائرته وأخذه معه إلى مسجده وصليا الظهر ثم دعا له ووضع يده على رأسه ثم مسح وجهه ومن تلك اللحظة لازمت البركة زياداً وغدا ميمون الوجه. وكانت إحدى المكرمات التي تدفع الشعراء إلى ذكرها عند امتداحه...

وكان من بين بني هلال وافد يسمى عبد بن عوف والعبودية في الإسلام لا تكون إلا لله وحده لذا بادر محمد بتغيير اِسمه إلى عبد الله وذلك على عادته في تغيير الأسامي وقد تناولنا ذلك فيما سبق.

٦٨ ــ وفد همدان

«قدم وفــد همدان على رسول الله ــ ص ــ وعليهم مُقطّعات الحبرات مُكففة بالديباج وفيهم حمزة بن مالك من ذي مشعار فقال ــ ص ــ: نعم الحي همدان ما أسرعها إلى النصر وأصبرها على الجهد ومنهم أبدال وأوتاد الإسلام فأسلموا وكتب لهم كتاباً مِخْلاف خارف ويام وشاكر وأهل الهضب وحقاف الرمل لمن أسلم منهم ــ قدم عليه وفد همدان منهم مالك بن النمط، ومالك بن أيفع وهمام بن مالك وعمرو بن مالك فلقوا رسول الله ــ ص ــ عند منصرفه من تبوك الرواحل المهرية الأرحبية ومالك ابن النمط يرتجز بين يدي رسول الله ــ ص ــ ويقول:

إليك جَاوُرن ســواد الريف   في هبــوات الصيف والخريف

مخطّمــات بحبــال الليــف

وذكروا له كلاماً حسناً فصيحاً، فكتب لهم كتاباً أقطعهم فيه ما سألوه وأمّر عليهم مالك بن النمط واستعمله على من أسلم من قومه وأمره بقتال ثقيف فكان لا يخرج لهم سرح إلا أغاروا عليه.

عن البراء: أن النبي ــ ص ــ بعث خالد بن الوليد ــ رضي ــ إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، فكنت فيمن خرج مع خالد فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، ثم إنه ــ ص ــ بعث علياً وأمره أن يعقب خالد إلا ممن كان من خالد أحب أن يعقب مع عليّ ــ

رضي ــ فليعقب معه فكنت فيمن عقب مع عليّ، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا فصلى بنا عليّ ثم صفّنا صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله ــ ص ــ فأسلمت همدان جميعها، فكتب عليّ إلى رسول الله ــ ص ــ بإسلامهم فلما قرأه ــ ص ــ خرّ ساجداً ثم رفع رأسه فقال: السلام على همدان ــ مرتين ــ ولم تكن همدان أن تقاتل ثقيفاً ولا تغير على سرحهم فإن همدان باليمن وثقيفاً بالطائف. فقام مالك بن نمط بين يديه فقال: يا رسول اله نصيّة (رؤوس وأشراف القوم) من همدان من كل حاضر وبادٍ أتوك على قُلُص نواح متصلة بحبائل الإسلام لا يأخذهم في الله لومة لائم من مخلاف ويام وشاكر أهل السواد والقود (الخيل) أجابوا دعوة الرسول وفارقوا الآلهات والأنصاب عهدهم لا ينقض عن سنة ماحل ولا سوداء عنققير (داهية شديدة) ما أقام لعلع وما جرى اليعفور بصليع.

فكتب لهم رسول الله ــ ص ــ كتاباً فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله ــ ص ــ لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحقاف الرمل مع وافد هذي المشعار مالك بن نمط، ومن أسلم من قومه أن لهم فراعها (ما ارتفع من الأرض) ووهاطها وعزازها (ما صلب من الأرض) ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة يأكلون ظلافها (علافها: ما تأكله الدواب من نبات الأرض) ويرعون عفاءها (العافي ما ليس لأحد فيه ملك) لنا في ذمتهم (نتاج الإبل)، (الثائب: الذي هرم وتكسرت أسنانه من ذكور الإبل)، والتاب (المسنه من إناثها) والفصيل والفارض والدواجن والكبيس الحوري (منسوب إلى الحور وهي جلود تتخذ من جلود الضأن) وغليم الصالغ (من البقر والغنم ما كل وانتهى) والقارح لكم بذلك عهد الله وذمام رسوله وشاهدكم المهاجرون والأنصار».

فقال مالك بن نمط في ذلك شعراً.

همدان قبيلة عريقة من أكبر قبائل اليمن لذا تأخر إسلامها (عند منصرف محمد من غزاة تبوك أي في تاسع أعوام الهجرة) وقد حاول محمد قتالها مرتين الأولى على يد خالد بن الوليد والأخرى على يد عليّ بن أبي طالب وفيها أسلمت (= همدان) بعد أن رأت العزم والتصميم في وجه وفعال أبي الحسنين فلما بشّر محمداً بطاعتهم وإذعانهم خرّ ساجداً وحيا همدان من على بعد وهو في مُصلاّه (السلام على همدان... السلام على همدان) ولكن لماذا فعل ذلك ولم يعمله من قبل عند سماعه إسلام قبيلة أو قوم أو رهط أو فخذ... الخ؟

لأن همدان قبيلة كبيرة عريقة فإسلامها مكسب له من جميع النواحي: انتصار لدينه الذي كان يدعو إليه ومدّ لرقعة دولة قريش التي أقامها في المدينة/ يثرب فضلاً عن أنها ستغدو مثلاً تحتذيه الأخرى التي لم تكن قد دانت لسلطة دولة أثرب ولا آمنت بالديانة التي يدعو إليها وقد تمثّل حبور محمد في مقطع آخر هو ترحيبه العميق بوافدهم وإغداقه الصفات الباذخة والنعوت الشامخة على قبيلتهم فهم (نعم الحي... الأسرع إلى النصر والأصبر على الجهد... أبدال الإسلام... أوتاد الإسلام...) ونظراً لتحضّرهم النسبي فقد كانت هيئتهم حسنة وأرديتهم جميلة (مُقطّعات الحبرات: المكففة بـ الديباج).

كانت في همدان طلاقة لسان ونصاعة بيان وفصاحة قول ولذلك ردوا على محمد رداً مُعجباً وكان ذلك يروقه ويطربه لأنه سيد البلغاء، ونحن وقد أوشكنا على أن نصل إلى نهاية الشوط في سرد أخبار الوفود لم نجد إلا قلّة منهم حازت هذه الملكة الفاذّة وكان العربان يستدلّون بفصاحة اللسان على الذكاء والفطانة

وبالعَيّ على الأَفَن والغباوة وهم في ذلك محقون لدرجة كبيرة فقلّ أن تجد فَدْماً لبيباً أو فصيحاً غبياً.

طلب وفد همدان من محمد أن يُقطعهم بعض الإقطاعات فسارع بإجابة ملتمسهم وهذا يؤكد أن سلطة محمد كحاكم اِمتدت إلى اليمن حتى أن أهلها يطلبون منه أن يُقطعهم أرضين فيها فيفعل ويصير الصكّ الذي يحمل خاتمه وتوقيعات صحابته كَشهود حجة على الكافة بملكية تلك الإقطاعات فلا يستطيع شخص أن يشكّك فيها أو يعترض عليها وهذا جانب من سيرة محمد غفل عن ذكره كُتّابها القدماء والمُحدثون مع أنه أمر ذو بال وخطير ثم أوضح لهم بعض الشرائع التي لا يسع مسلم أن يجهلها وخاصة في الأموال ــ ونستميح القارئ عذراً في أن نذكّره برأي سبق أن عرضناه وهو أن مثل هذه الكتب تؤكد أن سُنّة محمد كانت تدوّن منذ وقت باكر وإبّان حياته وهذا ردّ على الذين يدّعون أن كتابة السُنّة لم تبدأ إلا بعد مضي قرنين أو قرن ونصف منذ وفاة محمد، وكتابه إلى الهمدانيين خير مثل على ذلك وسبق أن رأينا غيره كثير.

٦٩ ــ وائل بن حجر

«عن وائل بن حجر ــ رضي ــ قال: بلغنا ظهور رسول الله ــ ص ــ وأنا في بلدٍ عظيم ورفاعة عظيمة فرفضت ذلك، ورغبت إلى الله عز وجل وإلى رسوله ــ ص ــ فلما قدمت عليه أخبرني أصحابه أنه بشّر بمقدمي عليهم قبل أن أقدم بثلاث ليالٍ فلما قدمت عليه ــ ص ــ سلّمت عليه فردّ علي وبسط لي رداءه وأجلسني عليه ثم صعد منبره وأقعدني معه ورفع يديه وحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على النبي ــ ص ــ واجتمع الناس إليه فقال لهم:

يا أيها الناس، هذا وائل بن حجر قد أتاكم من أرض بعيدة من حضرموت طائعاً غير مكره راغباً في الله وفي رسوله وعن دين بيته بقية أبناء الملوك ــ فقلت يا رسول الله ما هو إلا أن بلغنا ظهورك ونحن في ملك عظم وطاعة وأتيتك راغباً في دين الله فقال: صدقت.

عن وائل: جئت رسول الله ــ ص ــ فقال: هذا وائل بن حجر جاء حُباً لله ولرسول وبسط يده وأجلسه وضمّه إليه وأصعده المنبر وخطب الناس فقال: ارفقوا به فإنه حديث عهد بالمُلك، إن أهلي غلبوني على الذي لي فقال: أنا أعطيكه وأعطيك ضعفه قال أبو عمر: هو وائل بن حجر بن ربيعة بن وائل الحضرمي يكنى أنا هُنيدة الحضرمي وكان قيلاً من أقيال حضرموت وكان أبوه من ملوكهم، وفد على رسول الله ــ ص ــ ويقال إنه بشّر به أصحابه قبل قدومه فقال: يأتيكم وائل بن حجر من أرض بعيدة من حضرموت طائعاً راغباً في الله عز وجلّ وفي رسوله وهو بقية أبناء الملوك، فلما دخل عليه رحب به وأدناه من نفسه على مقعده.

رسول الله ــ ص ــ أصعده إليه على المنبر ودعا له ومسح رأسه وقال: اللهم بارك في وائل وولده وولد ولده ــ ونؤدي الصلاة جامعة ليجتمع الناس سروراً بقدوم وائل إليه ــ ص ــ وأمر معاوية بن أبي سفيان أن ينزله منزلاً بالحرّة فمشى معه ووائل راكب فقال له معاوية: أردفني خلفك وشكا إليه حر الرمضاء، قال: لست من أردف الملوك، قال: فالقِ نعليك إليّ، قال: لا إني لم أكن لألبسهما، وقد لبستهما قال: إن الرمضاء قد أحرقت قدمي، قال: اِمش في ظل ناقتي كفاك به شرفاً فلما أراد الشخوص إلى بلاده كتب له ــ ص ــ كتاباً».

هذا وافد فاذّ ولكنه ليس فرداً عادياً إنه سليل الملوك ولذلك قابله محمد عند قدومه عليه فاحتفالية شميمة (مرتفعة) تليق به ففي المتبدى بشّر بوصوله قبل ثلاثة أيام وهذه نبوءة أو فراسة أو أن عيونه المبثوثة في كل مكان، متيقظة متنبهة لا تغفل هي التي أخبرته بذلك خاصة وأن تحرك واحد في وزن وائل حدث لا يتم في السر وخطوات الملوك وأشباههم مرصودة من عدة جهات.

وأياً كان الأمر فما إن أقبل وائل حتى رحب به محمد ترحيباً مضاعفاً فخلع رداءه وهو الجزء الأعلى من ثيابه التي تتكون من جزئين والأسفل هو الإزار وبسطه له أي جعل له بساطاً وسواه له وأقعده عليه معه ثم رفع يديه فحمد الله تعالى وأثنى عليه إذ اُعتبر محمد قدوم حجر عليه نعمة تستحق الشكر كيف لا ووائل ابن الملوك الغطارفة ومدلول ذلك ببساطة أن سادة جزيرة العرب كلها غدوا تبعه وانضووا تحت جناحه وطوتهم هيمنته، وكان من البديهي أن يجتمع الناس ليتفرجوا على الملك ابن الملوك وربما لم ترَ أثرب منذ زمن طويل ملكاً وأخذ محمد ــ بعبقريته التي لم تر العرَبة لها مثيلاً يحدّثهم بأن بقية أبناء الملوك جاء (طائعاً) ولما كان محمد لا ينطق عن الهوى فإن وصفه لابن حجر أنه جاء طائعاً لم يبدر

منه اعتباطاً فهو لم يأت زائراً أو معاهداً أو مفاوضاً لا إنه جاء ليُقدّم فروض الطاعة لمحمدٍ النبي/ الرسول ولمحمدٍ سيد الناس وديّان العرب.

ليس ذلك فحسب بل إن محمداً أمر بأن يُنادى في الناس (الصلاة جامعة) وهذا لا يحدث إلا في ملمة كبيرة أو نازلة باقعة وكان من البديهي أن يجتمع الناس وصعد محمد المنبر وأصعده معه على المنبر وعلى كثرة ما قرأنا في سيرة محمد لم نره يفعل ذلك لا مع الوفدة ولا مع غيرهم وهذا يضيف دليلاً آخر على سرور محمد وحبوره بقدوم وائل طائعاً ــ وخطب فيهم ومن على المنبر كرر ما ذكره عن حضور ابن حجر راغباً في الله ورسوله ودينه وطائعاً (لدولة قريش)... ولما كان محمد خبيراً لا يُشق له غبار في معرفة النفوس وكان يدرك أن عُربان أثرب تملؤهم الجفاوة وتعلوهم البداوة وتحيطهم من كل أقطارهم الجلافة وتشملهم الغلظة وتصاحبهم الفظاظة مثل باقي أعاريب الجزيرة المبروكة فقد طلب منهم في حزم: (إرفقوا به فإن حديث عهد بـ المُلك).

وحتى ندرك الفارق المذهل بين محمد وصحبه في الحنكة وسعة الأفق وبعد النظر والبصر بالأمور وقراءة العواقب نذكر أن أحد ملوك العرب أتى هذه المرة من الشمال في عهد ابن الخطاب الذي لم يطبق عليه القاعدة التي وضعها محمد لمعاملة أمثاله وهي الرفق به لأنه حديث عهد بـ المُلك وكانت النتيجة المحتومة أن الرجل بعد أن أسلم اِرتد وهرب إلى دولة الروم وهو جبلة بن الأيهم...

وما زال بعض الكتبة من جوق التبجيل والتفخيم من يصف معاملة الخليفة الثاني لابن الأيهم بالعدل المطلق والتسوية بين الناس

ولو رجع ببصره لأقل من خمسة عشر عاماً لتبين أن هذا الصنيع لا يتفق مع المنهج الذي رسمه محمد ولا مع السُنّة التي سنّها لمعاملة بقايا الملوك ـــ بيد أن الهوى الجامح والميل الشاط والشاطح نحو التفخيم والتعظيم والتبجيل هو الذي يَؤُزّهم أزّاً نحو التجافي لأبسط قواعد الموضوعية ومن ثم فإن هذا المدح الفج والتفخيم الفطير والتعظيم النيء لا يقابل إلا بالإعراض إذ أن كل من يقرأه يدرك على الفور لا على التراخي أنه من غير أساس.

ولكن ماذا عن وائل؟

أول ما قاله لمحمد أنه ما إن بلغه ظهوره حتى أتاه راغباً في دين الله مع أنه كان في مُلك عظيم وفي أرض بعيدة ـــ والجملة الأخيرة تعني أن جيوش دولة قريش لا تستطيع أن تصل إلى بلدهم حضرموت لبعدها الشاسع عن حاضرة الدولة: يثرب. وهذا غير صحيح لأن جيوش قريش وصلت إلى اليمن وحضرموت مِخْلاف من مخاليف اليمن (شرحنا كلمة مخلاف قبل ذلك) إذ رأينا في خبر همدان أن كلاً من علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد كانا على قيادة سرايا وصلت أرض همدان وأن أبا الحسن صفّ جنوده واستعد للقتال بيد أن همدان سارعت إلى الإذعان والتسليم ـــ هذه واحدة أما الأخرى فإن وائلاً اِدّعى أنه أتى راغباً في رسوله رغم أنه كان في بلد عظيم ورفاعة عظيمة الخ. بيد أنه ما لبث إلا ملياً حتى يفصح عن خبيئة نفسه ومكنون قلبه ويرفع الستر عن العلة الحقيقية التي وَزَأَته للقدوم وهي (أن أهلي غلبوني على الذي لي) هذا هو الدافع القوي والباعث الصحيح والحافز الحثيث: للاستعانة بمحمدٍ وقد سطع نجمه وعلا قدره وسما شأنه واْرتفعت رايات جيوشه تغطي الجزيرة من أدناها إلى أقصاها للاستعانة به لاسترداد ملكه الذي سلبه إياه أهله واْستضعفوه وغلبوه عليه.

والذي لا مشاحة فيه أن محمداً بِلَماحيته وشدة ذكائه اِستوعب ذلك ولكنه مع ذلك صدّق على كلامه عندما ذكر له أنه جاء راغباً في الله وفيه وفي الإسلام ثم لما عالنه بمقصده الحقيقي وَعَده وهو الصادق المصدوق بأنه سيعطيه إياه وضِعْفَه معه.

إنما لماذا سلك محمد هذا المسلك الذي قد يستعصي فقهه على الشخص العادي؟

لما كان محمد شديد الحنكة، عميق الدربة، قرّاء لعواقب الأمور فقد تغاضى عن الادعاء الظاهر بل وصدّقه فيه لأن وائلاً من أبناء الملوك وإعلام الورى بأنه جاء طائعاً مذعناً منيباً كسب لا يعادله كسْب للإسلام ولدولة قريش. أما انتصافه لوائل وردّ حقوقه إليه من آله الذين اْغتصبوها منه وإعطاؤه ضعف ما أُخذ منه لا يقلّ حِنْكة عن الأول (= تصديق وائل) لأنه بذلك يثبت لمن قامت في قلبه ذرة شك أنه غدا من القوة حتى إنه يردّ على الملوك مُلكهم السليب وأنه بلغ من المنعة وعزة الجوار أن أبناء الملوك وبقاياهم يلوذون ببابه ويجتمعون بحماه ويلتجئون إلى جنابه... وأنه يحميهم ويجيرهم ويغيثهم بل يعيد إليهم ما فقدوه نتيجة للظلم والتعدي والطغيان من قبل الأقارب الأدنيين ليس هذا فحسب بل إنه ينفحهم ضعفه ــ أليس هذا منتهى الغاية في بعد النظر وحسن السياسة والبصر بـ الأمور... وهذا الصنيع وأمثاله من محمد هو الذي وطّد دولة قريش ورسّخ أسسها حتى أنها استمرت تحكم وتهيمن لقرون متطاولة ولقد ذكرنا في خاتمة كتابنا (قريش) أنه قلّما أن وجدت في التاريخ قديمه ووسيطه وحديثه قبيلة أو أسرة حكمت طوال المدة التي حكمتها قريش والفضل في ذلك يؤوب أولاً وأخيراً إلى محمد.

فاطمة بنت قيس الفِهْرِيّة القرشية كانت تحت أبو حفص بن المغيرة ففارقها فأمرها رسول الله ــ ص ــ أن تَعْتدّ في بيت ابن أم مكتوم (الأعمى الذي جاء ذكره في سورة عبس وتولى) ولما أنقضت عدّتها خطبها معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم بن حذيفة فاستشارت رسول الله ــ ص ــ فيهما فقال النبي ــ ص ــ: أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو حذيفة فلا يضع عصاه عن عاتقه وتفسيرها أنه لا يكف عن ضرب زوجه وأمرها بأسامة بن زيد فتزوجته(٩٣). رغم أن أسامة أسود أفطس ومولى ابن مولى وأصغر منها في السن وهي عربية حرّة بل قرشية وبداهة لم يسعْها إلا الانصياع لأمر محمد النبي/ الرسول وسيد الجزيرة ورأس دولة القبيلة التي تنتسب إليها. وهكذا حتى في مسألة الكفاءة في النسب التي يتشدد فيها العَرَبة فإن أمر محمد فيها نافذ مطاع ــ بيد أن الذي يهمنا في الخبر هو وصف محمد لمعاوية بأنه صعلوك لا مال له.

هل لنظرة محمد لمعاوية باعتباره صعلوكاً دخل في اْختياره له أن يوصّل وائلاً إلى دار الضيافة التي اْختارها له بالحرّة والتي لا بد أنها تليق بمقامه الرفيع. والحوار الذي دار بين بقية الملوك وائل بن حجر وبين معاوية يؤكد صعلوكيته التي رسمه بها محمد ــ فهو يمشي في ركاب ابن حجر، ليست له ركوبة يمتطيها وأكثر من ذلك أنه كان يمشي حافياً وإن المرء ليعجب من بؤس ذلك المجتمع وتخلّفه فإذا كان معاوية وهو من بني أمية الفرع المصلّي (التالي) لبني هاشم في الشرف والسؤدد في قريش والسابق له في الثروة

---

(٩٣) **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، عز الدين بن الأثير الجزري، المجلد السابع، كتاب النساء، حرف الفاء، دون تاريخ، طبعة دار الشعب، مصر.

يسير حافياً فما بالك بعامة المهاجرين وفقرائهم وكذا فقراء بني قَيْلة.

ويدور الفلك الدوار ويغدو هذا الصعلوك الحافي إمبراطوراً يتربع على عرش الإمبراطورية الإسلامية ويهب مصر أم الدنيا أراضيها وأهلها إلى عمرو بن العاص مكافأة له على وقوفه بجانبه ضد صاحب الحق الشرعي ــ في الخلافة أبي الحسن والحسين. أليست هذه مفارقة مُعجبة من مفارقات التاريخ؟

ونتفرس أو نتمعن في الجدل الذي دار بين وائل ومعاوية فنراه يؤكد لنا عنجهية الأول وخنزاونته وتكبره وذلّة الثاني ومسكنته أو صعلكته حسب تعبير محمد، معاوية يترجى وائلاً أن يردفه خلفه فينظر إليه بازدراء واستخفاف ويجبهه بأنه ليس أهلاً لذلك ولا شك أنه كان يعلم أنه من قريش ومن بني أمية... ثم يستعطفه أن يلقي إليه بنعليه ليتقي بهما حرارة الأرض ــ وإذ كان معاوية حافياً فمدلوله أن ذلك المجتمع كان حافياً أو على الأقل كان يضربه الحفاء ولا يعرف الانتقال فيه إلا نسبة ضئيلة، ومن أعجب مفارقات التاريخ أن هذا المجتمع الحافي الأمي المتخلف اِستطاع أن يهزم شعوباً ذات حضارات شامخة مثل الفرس والشاميين والمصريين وغيرهم، ونعود إلى سياقة الخبر: يرد وائل على اِبن سفيان رداً ملؤه الغطرسة: لو ألقيتهما لك ولبستهما أنت لما يحق لي بعد ذلك أن ألبسهما إذ كيف يلبس ملك نعلين لبسهما صعلوك حافي القدمين.

كل ما سمح به ابن حجر لمعاوية أن يسير في ظل ناقته وأن ذلك شرف تتقطع له أعناق الكثيرين وأنه يكفيه بل سيظل طوال حياته يفتخر به ويورّثه أولاده وأحفاده.

هذا الحوار يطلعنا على المعاناة الشديدة التي كابدها محمد وهو يتعامل مع هذه النوعيات من البشر: بعضه: شديد الجلافة والبداوة والجفاوة. والآخر: عميق الخبث، غائر الدهاء، سيء الطويّة، غويط الدغيلة، فاسد الدخلة. والثالث: متكبر، متغطرس، متألّه.

بيد أنه اْستطاع بمهارة فائقة يعزّ نظيرها أن يسوسها ويروّضها ويذلّلها ويشكمها ويلزمها حدها ما يقطع بحنكته ودُربته وقوة شخصيته التي جعلت كل من قابله هابه. وإذا كان ابن حجر وهو يختار هذا القدر الوفير من الكبرياء جاء ذليلاً خاشعاً طائعاً فكم كانت هيبة محمد بالإضافة إلى قدرته وسلطته على الجزيرة الميمونة.

٧٠ ـــ واثلة بن الأسقع

«عن واثلة: خرجت من أهلي أريد الإسلام فقدمت على رسول الله ـــ ص ـــ وهو في الصلاة فوقفت في آخر الصفوف وصليت بصلاتهم، فلما فرغ ـــ ص ـــ من الصلاة اِنتهى إليّ وأنا في آخر الصلاة فقال: ما حاجتك؟ قلت الإسلام قال: هو خير لك ثم قال: وتهاجر؟ قلت: نعم. قال هجرة البادي أو هجرة الباني؟ قلت: أيهما خير؟ قال: هجرة الباني أن يثبت مع النبي ـــ وهجرة البادي أن يرجع إلى باديته. وقال: عليك بالطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك قلت نعم، فقدم يده وقدمت يدي، فلما رآني لا أستثني لنفسي شيئاً قال فما استطعت قلت: فيما استطعت فضرب على يدي.

وكان رسول الله ـــ ص ـــ يتجهز إلى تبوك ولم يكن لواثلة ما يحمله فأخذ ينادي من يحملني وله سهمي؟ فدعاه كعب بن عجرة وقال أنا أحملك عقبة بالليل ويدك أسوة يدي ولي سهمك.

هذا وافد فرد بيد أنه عكس وائل من عامة العُربان لا يملك حمولة يشترك بها في الغزو.

وفي الخبر ما يؤكد أن النصوص متحركة مرنة وليست جامدة خَشْباء ففي بدّي الأمر كانت الهجرة لازمة وضرورية ويمكن أن نسميها فريضة لا يكمل إسلام من يعتنق الديانة إلا بها... فلما أخذت دولة قريش كفايتها من الرجال وشربت عَلَلا بعد نَهَلٍ بل تضلعت حتى أوشكت معدتها أن تتفزر من كثرة الشُرب ولم تَعُدْ

بها حاجة إلى جنود تحوّلت الهجرة إلى الاختيار وغدت نوعين: هجرة الباني وهجرة البادي...

والأول من يقيم بـ أثرب والآخر يؤوب إلى مضارب قبيلته وبداهة اِختارت الأغلبية العظمى النوع الأخير أي تعود إلى أهلها وأموالها (مواشيها).. الخ ولا يختار هجرة البناء إلا المليط[٩٤]. لأنه سيجد في أثرب كل ما يفتقر إليه: المأوى والطعام واللباس... الخ بالإضافة إلى المُتعة بجوار محمد والجلوس إليه ومصاحبته وتحول الهجرة من الفرض إلى الإباحة ومن الإلزام إلى الاختيار وشقّها إلى فرْعين يوثّق ما نادينا به حتى بُحّ صوتنا من ضرورة ربط النصوص بظروف انبثاقها والبُعد التاريخي التي نبتت فيه وإلا وقع المُخَاطَبُون بها (= بـ النصوص) في تناقضات معقدة وحرجات لا منفذ إليها ولا مخرج منها...

والخبر يحمل إلينا واقعة طريفة تكشف عن النفسية النفعية لبني يَعْرُب أحفاد يَشْجُب ذلك أن واثلة أدرك محمداً وهو يتجهز لـِ غزوة تبوك والمؤكد أنه توجه إلى محمد مُبدياً اِستعداده للاشتراك في الغَزَاة وأنه ردّ عليه: لا أجد ما أحملك عليه. وهنا حدث أمر عجيب (فـ جعل ينادي من يحملني وله سهمي) أي له حصتي في الغنيمة فوافق على هذا العرض كعب بن عجرة. لم يقل له عجرة ولا أي واحد ممن سمع نداءه أنا أحملك حِسْبَة لله تعالى إنما وافق مقابل الحصول على سهم واثلة في المغانم. ونحن نطلب قراءة هذا المقطع قراءة متأنية من الذين يمارون في أن الغنائم كانت الدافع وراء الكثيرين للخروج في الغزوات والسرايا والبعوث ولا وجه

(٩٤) المعجم الوسيط، **المليط**؛ الذي لا شعر له ونحن نُكني بها كل من لا يملك شروى نقير.

للعجب بذلك فإن العربي كان شديد الاقتناع بأن رزقه في ظلال رماحه وأسيافه.

وبخبر هذا الوفد نصل إلى ختام الفصل الأول (البصائر الرأسية) لنلج الفصل الثاني (البصائر الأفقية).

الباب الثاني

البصائر الأفقية

تمهيد

بعد الفتح الأكبر فتح مكة واندحار صناديد قريش واستسلام شطر منهم وسعيهم لمحمد يظهرون إسلامهم وخضوعهم وفرار الجزء الآخر يلتمس النجاة في فجاج الأرض وقبوع الفريق الثالث (الأغلبية) في منازلهم بعد أن نادى منادي الفاتح المنتصر (من أغلق عليه بابه فهو آمن) وأعقب ذلك إعلانه إياهم بالسماح والعفو عن الجرائم المتعددة التي ارتكبوها في حقه وأصحابه وتابعيه حتى اغتصاب دورهم ورباعهم وتملكها أو بيعها لآخرين فقد أبقاها في أيديهم رغم أن عدداً من صحبه طلب استردادها بيد أنه رفض لأن الله أبدله خيراً منها في الفردوس. واستثنى أربعة رجال وقيل ستة وقينتين كانتا تتغنيان بأهاجيه وأمر بقتلهم حتى ولو وُجدوا متعلقين بأستار الكعبة. ونفح محمد أهل مكة في ذياك الوقت لقب (الطلقاء) وهو سُبّة ظلت تلاحق مستحقيها حتى آخر لحظة من حياتهم فإذا أراد أحد أن يغيظ شخصاً منهم قال له: لا تنسَ يا هذا أنك طليق.

نقول بعد ذلك كله غدا محمد سيد الجزيرة بلا منازع وحقق

حُلم أجداده قصيّ وهاشم وعبد المطلب وبعد أن كان يقال إن عرب الجزيرة لقاح لم يدينوا للملوك ولم يُملّكوا غدوا في قبضة يد محمد وصولجانه بعد أن دوّختهم جيوش دولته (دولة قريش) التي أقامها في أثرب بعد أن رفض سادتها أن يؤسسها في قرية القداسة مكة.

وزعماء القبائل الذين كانوا يأنفون من أي سلطة تعلوهم أسرعوا إلى محمد في حاضرة دولته يبايعونه ويقبّلون قدميه قبل يديه وتوالت وفودهم على المدينة (يثرب) تباعاً ترفع الراية البيضاء وتعلن طاعتها المطلقة وإذ حدث ذلك في العام التاسع بعد الفتح (الذي تم في العام الثامن) فقد سُمّي ذلك العام بـ عام الوفود.

وعام الوفود علامة فارقة في مسيرة الديانة الإسلامية ودولة قريش معاً... بعده تغيرت الأمور تغيراً جذرياً على كل الأصعدة وفي كل المجالات.

القرآن

القرآن يضم سبعة أحرف والبعض يسميها سبع لغات وقد جاء ذلك في حديث صحيح لمحمد هو:

«حديث نزول القرآن على سبعة أحرف رُوي عن جمع كبير من الصحابة منهم: عمر، عثمان، ابن مسعود، ابن عباس، أبو هريرة، أبو بكر وعَدّ صاحب المناهل واحداً وعشرين ما منهم إلا رواه. وهو حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم ومسند أحمد وفي تفسير الطبري ونزل القرآن على سبعة أحرف أي سبع لغات اختلاف القبائل ــ فيما مضى كل كان يدور على اللهجات في كثير من الحالات»[1].

ويشرح لنا ابن الجوزي أو يوضح لنا السبعة أحرف فيؤكد أنها لغات القبائل السبع الكبيرة المشهورة آنذاك:

«أنزل القرآن على سبع لغات.

أقوام قالوا: هي سبع لغات متفرقة لجميع العرب في القرآن الكريم، كل حرف منها لقبيلة مشهورة.

---

(١) **فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن**، الحافظ أبو الفرج عبد الرحمان بن علي ابن الجوزي، دراسة وتحقيق محمد إبراهيم سليم، ص ٤٣، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، مكتبة ابن سينا، مصر الجديدة.

وآخرون قالوا: أربع لغات لهوازن وثلاث لقريش.

وقوم قالوا: لغة لقريش ولغة لليمن، ولغة لتميم ولغة لجُرهم ولغة لِهَوازن ولغة لقُضاعَة ولغة لطَيِء»[٢].

وابن الجوزي إمام له باع طويل في العلوم الإسلامية كافة وأستاذ لا يُشقّ له غبار في علوم القرآن فله عدة كتب في التفسير نكتفي بذكر مقدمها (المغني في التفسير) واحد وثمانون جزءاً، وفي القراءات اقتصر على التنويه بكتابه (الإشارة إلى القراءة المختارة). إذن ما ننقله عن أبي الفرج ابن الجوزي ينتصب حجة على ما نذهب إليه حتى لا يقال إن مستندنا مؤلِّف مجهول أو كتاباته مستورة أو غير معلومة خاصة وأننا لسنا بصدد دراسة لحديث الأحرف السبعة. إنما الهدف من التوسعة في القراءات أن تقبل البطون والعشائر والقبائل والعمائر في الجزيرة على قراءة القرآن ومن ثم الدخول في الإسلام وبالموازاة الانخراط في جيوش دولة قريش لفرض هيمنتها وتوطيد سيادتها ومد سلطانها على الجزيرة العربية لأن القرآن لو اقتصر على حرف أو لغة قريش لشكّل ذلك عقبة كأداء في سبيل اعتناقهم للديانة التي بشر بها محمد الهاشمي القرشي ولَما أُتيحت لهم الفرصة في الانضمام لعسكر دولتها لأنه الشرط الرئيسي إذ أن محمداً كان حاسماً كالسيف الحديد أنه لا يستعين بمشرك أي لا يسمح بتجنيد غير المسلم في قواه المسلحة وقد طبق ذلك بصرامة شديدة حتى في أشد الأوقات حروجة. وهذا الذي نذهب إليه أكده السيوطي:

«قال الطحاوي: وإنما كان ذلك رخصة أن يقرأ الناس القرآن على سبع لغات لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة على لغة قريش»[٣].

---

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٥.

(٣) **التحبير في علم التفسير**، الإمام جلال الدين السيوطي، تحقيق د. فتحي عبد القادر فريد، ص ١٢٣، الطبعة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، دار المنار، القاهرة.

والسيوطي أشهر من أن نُعرِّف به أو بتبحره في شتى العلوم الإسلامية حتى إنه يصح وصفه بأنه بحر العلوم وللتدليل على ذلك وخاصة في علوم القرآن نومئ إلى كتابه (الإتقان في علوم القرآن).

إذن كما قلنا ومثلما تؤكده الكتب التراثية رفيعة الدرجة أن العِلّة في انضواء القرآن على أحرف سبعة أو لغات سبع ألا تجد قبائل العرب صعوبة في قراءته لو أنه اقتصر على لغة قريش قبيلة محمد.

بيد أن الوضع بعد عام الوفود تغيّر تغيراً جذرياً وتبدّل بالكلية وتحوّل تحولاً شاملاً إذ اقتصرت القراءة على لغة القبيلة التي أقامت دولتها في أثرب والتي دوَّخت جيوشها سائر القبائل فأقبل زعماؤها وشيوخها وصناديدها يقبّلون أيادي سيدها وأرجله الذي غدا ديّان العرب بلا منازع، في وقت ورود حديث الأحرف السبعة كانت قريش في أشد الحاجة إلى رجال مختلف القبائل لتطحن بهم معانديها وتدعك أراضي خصومها وتطأ مضارب أعدائها ومن ثمّ جاءت الرخصة للقراءة بلغات قبائل غير قريش أو إن شئت كان ذلك إغراءً لهم على قراءة القرآن وبالتالي الدخول في الدين والإلتحاق بعسكر دولة قريش، أما بعد فتح الفتوح فما الحاجة إلى لغات القبائل الست الأخرى وكيف تشارك قريشاً الغازية المنتصرة في ذلك الشرف الباذخ؟

ويعلل السيوطي الاقتصار على لغة قريش التعليل ذاته ويسميه زوال العذر[٤]. وكما كان السيوطي خِرّيتاً فطناً عندما أضاف إثنين من أكابر العلماء هما ابن عبد البر والقاضي الباقلاني لتأييد رأيه وتدعيم وجهة نظره.

(٤) **زوال العذر**، ص ١٢٤، المصدر نفسه.

ولما كان كثير ــ ولا نقول كل ــ من الفقهاء: يلجأ إلى التبرير والتسويغ تحاشياً للعلة الحقيقية التي لا يجرؤ على الجهر أو البوح بها فقد ذكر لنا اِبن الجوزي أنه:

«وقد كان بعض مشايخنا يقول:

كله بلغة قريش وهي تشمل على أصول من القبائل هم من أرباب الفصاحة وما يخرج عن لغة قريش في الأصل لم يخرج عن لغتها في الاختيار»[٥].

وهو تسويغ فطير وتبرير ساذج إذ لو كان الأمر كذلك لما كانت بمحمد حاجة إلى أن يدلي بحديث الأحرف السبعة وهو حديث صحيح رواه واحد وعشرون من كبار الصحاب ــ ولعل ما يدعّم ما ذهبنا إليه أن عمر بن الخطاب عندما بلغه أن أبا هريرة يصرّ على قراءة القرآن بلغة دَوْس (قبيلته) نَهَره وأمره بأن يقرأ بالحرف القريشي، كذلك عندما شكّل عثمان اللجنة التي أشرنا إليها وكلّفها بتدوين المصحف وجميع أعضائها من قريش وضمّ إليهم زيد بن ثابت الأنصاري أمرهم بحسم أنه إذا حدث خلاف بينكم وبينه (زيد) فاْكتبوا بلغة قريش مع أن زيداً كان أعلم من أولئك الفتية الأحداث بما لا يقاس ولا يقارن.

موقف عمر ومن بعده عثمان جاءا امتداداً طبيعياً وأثراً مباشراً ونتيجة لازمة لعام الوفود؛ هذا ما تم في نطاق القرآن مواكباً لذلك العام ــ بيد أنه لم يكن الأمر الفاذّ وهذا متوقع إذ من طبائع الشئون بل من بدائه الأمور أن تتولد عنه (عام الوفود) نتائج ذات قدر خطير.

(٥) **فنون الأفنان**، ص ٥٦، مصدر سابق.

الترتيب الزمني

من أصعب الأمور التي صادفت البُحّاث في علوم القرآن معرفة تواريخ قراءة محمد لسور القرآن وآياته لأول مرة إلا إذا كانت مواكبة لحادث تاريخي معلوم مثل آيات الغنائم التي أعقبت غزوة بدر الكبرى أو تلك التي تناولت هزيمة المسلمين في معركة أُحد أو التي وصفت بدقة الموقف الحربي في غزوة الخندق أو التي تكلمت عن حديث الإفك... وهكذا[٦].

ومهما كان عدد هذه السور والآيات فهذا قليل بالنسبة لجميع سوره وآياته، وأشهر الأقوال إن عدد سوره مائة وأربع عشرة سورة أما عدد الآيات فهو ستة آلاف ومائتا وسبع عشرة آية وهذه رواية عبد الله بن مسعود وكان معدوداً من علماء الصحبة وهو رأس مدرسة العراق في الفقه التي أنجبت المذهب الحنفي ــ بيد أن كبار علماء القرآن استطاعوا معرفة تواريخ بعض سوره وآياته وأفردوا لذلك باباً مستقلاً وقد وضع له السيوطي عنواناً هو (ما عرف تاريخ نزوله عاماً وشهراً ويوماً وساعة) وهو النوع الرابع عشر من كتابه (التحبير) السابق الإلماع إليه، وفيه أورد سوراً وآيات جزم بأنها نزلت بعد فتح مكة الذي واكب عام الوفود ــ ولنتأمل تلك فسوف نرى أنها ذات علائق متينة ووشائج قوية وصلات وثيقة بـ عام الوفود ودلالاته والذي هو الرفيق الأمين لفتح قرية القداسة مكة.

---

(٦) ذهب د. عبد الرحمان بدوي إلى فشل أي محاولة للترتيب الزماني لسور القرآن وآياته سواء من علماء المسلمين أو من المستشرقين، د. عبد الرحمان بدوي، **دفاع عن القرآن ضد منتقديه**، ترجمة د. كمال جاد الله، ص ١١٣، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، الناشر دار الجليل، مصر.

وقد قلنا مراراً وتكراراً إن الديانة الإسلامية ودولة قريش التي تمركزت في أثرب توأم وقرينان وفرعان لجذر واحد لذلك كان من المحتم اللازم أنّ سور الفتح الأكبر وآياته وما تلاه تتناولهما معاً فتشيع فيهما لهجة المنتصر المتمكن الغالب المسيطر الذي اِكتمل عوده واشتد صلبه واستقام قده واستوت رجلاه على أرض أصلب من رخام الجرانيت فلقد ولّت إلى غير رجعة وإلى أبد الآبدين ودهر الداهرين أيام الاستضعاف وأزمان الخوف وساعات بلوغ القلوب الحناجر وأوقات الظن بالله شتى الظنون وغدا الإسلام هو الدين المسيطر والمهيمن والقاهر ولم تعد هناك حوجة إلى ملاينة الديانتين الآخريين.

إن الفتح والوفود يشكّلان فاصلاً حاسماً شطر بين حقبتين وصدع فترتين وشق عهدين.

«روى الحاكم عن عبد الله بن عمرو وعثمان في حديثه المشهور: براءة من آخر القرآن»[٧].

وسورة التوبة فيها إعلان من رب محمد ومحمد بالبراءة من المشركين. والصوت على آية السيف ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾ (الآية ٥). وجاءت بمبدأ في غاية الخطورة: ﴿إنما المشركون نجس﴾ (الآية ٢٨) أي أن مجرد إباء أي شخص من عرب الجزيرة الدخول في الدين الذي بشّر به محمد يحوّله على الفور لا على التراخي من إنسان إلى شيء نجس أسوأ حالاً من الخنزير. وذلك بعد أن أبيح دمه واُستُحل قتله في مستهل السورة ذاتها. في حين أنه قبل ذلك رُفع شعار لا إكراه في الدين ولكل إنسان الحرية فمن شاء آمن ومن

(٧) **التحبير**، ص ٩٦، مصدر سابق.

شاء ظل على عقيدته (الكفر والشرك).

إنه تحوّل خطير وهو لا شك من ثمرات الفتح الأعظم أو فتح الفتوح وضريبة عام الوفود. ثم تناولت السورة عقائد اليهود والنصارى (المسيحيين ولو أن هناك فرقاً بين الإثنتين ا. ه) تُبيّن ما فيهما من زيف وانحراف بينما فيما مضى حملت آيات معينة وصف (علماء) لرجال دين بني إسرائيل وهو لقب ورتبة لم يحظ بهما رجال الدين في الديانتين الأخريين: المسيحية والإسلام.

وأيضاً لعهد قريب كان النصارى أقرب إلى المسلمين مودة وكان رهبانهم وقسيسوهم من ذوي القلوب الرقيقة الذين تفيض أعينهم وتذرف دمعاً سخياً لِما عرفوا من الحق (والمقصود ما جاءت به ديانة الإسلام).

كذا لم تعد بعد الفتح الأعظم هناك ضرورة لمجاملة الأعراب الذين يشكلون في كثير من الأحيان ولسنوات طويلة مدداً لعسكر دولة قريش أما الآن فهم أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله!

ويؤكد صاحب (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) أنه قد:

«نزلت هذه السورة سنة تسع وكان قد أمّر فيها أبا بكر على الموسم، فلما نزلت السورة أتبعها عليّاً راكب العَضْباء ليقرأها على الموسم، فقيل له لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال: لا يؤدي عني إلا رجل مني»[٨].

والعام التاسع الذي ذكره النيسابوري القمّي هو قمة عام الوفود

(٨) **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمّي النيسابوري، تحقيق حمزة النشرتي وآخرين، ص ٣٩١، عند تفسيره لـ سورة براءة ــ التوبة، المجلد الخامس دون تاريخ نشر وبلا دار نشر.

ــ والسورة مليئة بالدلالات والإيحاءات والمضامين بخلاف التي ذكرناها والتي هي حصيلة من (عام الوفود) الأخ الشقيق لفتح مكة بيد أننا اِكتفينا بما أوردناه منعاً للإطالة والهدف هو ضرب الأمثلة لا الاستقصاء.

* * *

روى الحاكم في المستدرك عن أبي كعب:

«آخر آية نزلت: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ إلى آخرهما ــ التوبة ١٢٨/ ١٢٩ وذكره الواحدي في (أسباب النزول)»[٩].

هذه الآية من سورة التوبة أو براءة التي أوردنا دليليّ ثبوت على تاريخها في العام التاسع ذروة سنام عام الوفود وفيه اِنشغل محمد باستقبالهم فَحَجّ أبو بكر بالمسلمين وذهب إلى أهل الموسم أبو الحسنين ليبلّغهم ويقرأ عليهم السورة ويُعدّ هذا من الأدلة التي تُطْرح على مكانة عليّ لدى محمد وأنه كان يسعى لتأهيله ليغدو خليفته ولكنّ كبار الصحاب من فروع قريش المهزولة نَفَسُوا عليه ذلك وتواطأوا وحرموه حقه قرابة قرن من الزمان.

ولنعد إلى سياقه البحث:

هناك قراءة رُويت عن محمد ذاته بشأن كلمة أَنْفَسِكُم (بفتح الألف وسكون النون وفتح الفاء وجرّ السين من النَفَاسة أي علوّ المكانة) وهو من قريش إذن هي أَنْفَس القبائل وأعظمها شأناً وبالتالي فلا تطاولها في المكانة ولا تساميها في المرتبة ولا تساويها في الدرجة قبيلة أخرى. والذي ينطق به القرآن يتلقاه كل مسلم بالإذعان ويقابله بالطاعة ويقدم له التسليم المطلق.

(٩) **التحبير**، ص ٩٥، مصدر سابق.

إذن هذه الآية هي دليل لا يقبل الشك وحجة لا ريب فيها أن قريشاً غدت أعظم قبيلة في الجزيرة العربية من أقصاها إلى أدناها ومعلوم أن من يجحد ولو حرفاً من القرآن فإنه كافر يحلّ دمه وماله وتُسترقّ زوجاته وإماؤه وبناته ويُسبى أولاده.

وهكذا حازت قريش بنص قرآني على شرف الرياسة على كل القبائل لا في وقت ظهور تلك الآية بل حتى يرث الله الأرض ومن عليها...

ولكن ما هو الدليل على أن هناك قراءة موثّقة من محمد بالهيئة التي شرحناها؟ هذا هو:

«أخرج من طريق عبد الله بن طاووس عن أبيه عن اِبن عباس أن النبي ــ ص ــ قرأ (لقد جاءكم رسول من أَنْفَسِكم) يعني قدراً»[١٠].

ومن نافلة القول أن نردد أن الفتح الأكبر ونديده عام الوفود من المنطق أن نعزو إليهما تفعيل اِحتياز قريش هذا النيشان الرفيع القدر وهذه القلادة ذات الرتبة الباذخة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ نزلت يوم عرفة يوم الجمعة والنبي ــ ص ــ واقف بها[١١].

آية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ هي الثالثة من سورة المائدة ــ وتاريخها في الخبر يوم عرفة (يوم الحج الأكبر) في حجة الوداع في السنة العاشرة. وقد رُويَ أنه لما نزلت الآية على النبي ــ ص ــ فرح الصحابة وأظهروا السرور[١٢].

---

(١٠) **التحبير**، ص ١٤٩، مصدر سابق.
(١١) المصدر نفسه، ص ١٠٣.
(١٢) **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، القميّ النيسابوري، المجلد الرابع، ص ١٨٩، عند تفسير سورة المائدة، مصدر سابق.

وكيف لا يفرحون ولا يُظهرون السرور وقد أكدت كمال الديانة التي بشّر بها محمد أما إتمام النعمة فيعني أنهم غدوا سادة جزيرة العرب وحكامها وهو ما فطن إليه ـــ القمّي النيسابوري (وأجيب بأنه كقول المَلِك إذا استولى على عدوه اليوم كُمِلَ مُلْكُنا). ويؤكد القمّي (أنها نزلت يوم الجمعة وكان يوم جمعة عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر والنبي ـــ ص ـــ واقف على ناقته العَضْبَاء)[١٣].

ولقد فطن أحد علماء بني إسرائيل وسبق أن ذكرنا أن الوحيدين من بين رجال الدين الذين وصفهم القرآن بـ (العلماء) هم رجال الدين اليهودي ـــ فطن إلى المدلول العميق والمغزى البعيد اللذين أومأت إليهما الآية سواء بالنسبة إلى الدين (الإكمال) أو تجاه دولة قريش (إتمام النعمة) فخاطب اليهودي العالم أحد أعيان الصحبة القرشيين وهو من يصفونه بـ (حَبْر الأمة وتُرجمان القرآن) عبد الله بن العباس عبد المطلب: لو أُنزلت علينا نحن معشر اليهود لاتْخذنا من يوم نزولها عيداً، كيف لا وهي آية البشرى بالتمكين في الحالين: الدين والدنيا.

«وعن ابن عباس أنه قرأ الآية ومعه يهودي فقال اليهودي: لو نزلت علينا في يوم لاْتخذنا عيداً فقال ابن عباس إنها نزلت في عيدين إتفقا في يوم واحد: في يوم جمعة وفي يوم عرفة»[١٤].

ومعلوم أن حَبْر الأمة الإسلامية لم يكن يجالس يهوداً سُكَّاكاً[١٥] بل علماء بني إسرائيل ومن ثم لم يكن غريباً أن يصنفه

---

(١٣) المصدر نفس ص ١٨٨. **والعضباء** هي الناقة التي أعارها محمد لأبي الحسن ليبلغ أهل الموسم سورة براءة/ التوبة.

(١٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(١٥) في المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية، **السُكّ**: البئر الضيقة الحفر أو الطريق المنسد أو

بعض كتاب الإسلاميين ضمن من قادوا حركة نقل الإسرائيليات إلى علوم القرآن مثل عبد الله بن سلام وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص.

«ابن عباس مذكور في مقدمة الآخرين عن أبي هريرة عاشق الإسرائيليات وعلوم التوراة... وكذلك فإنه قد تتلمذ على كعب الأحبار مُعلِّم الإسرائيليات الأول في الإسلام ولازمه وكان يستفتيه في تفسير القرآن وقصص الأنبياء»[١٦].

إذن أدرك ذلك اليهودي العالِم أو العالِم اليهودي مرمى الآية أو الهدف الذي تغيّته وأنها لخطورة المعطيات التي حملتها تستحق أن يُتخذ يوم نزولها عيداً بيد أن ابن عباس رغم ذكائه المشهود له به لم يتفهم أبعاد قَالة ذلك اليهودي إذ هناك فرق شاسع بين اعتبار يوم نزولها يوم عيد أو حتى عيدين وبين اتخاذ يوم نزولها عيداً يحتفل به كل عام ــ فالأمر الأول قد يأتي مصادفة أو عن تدبير إنما في كلتا الحالتين لا دخل للبشر فيه أما الأمر الثاني أو الآخر فإن المخاطَبِيْن بالنص هم الذين يتولونه يقومون به (= الاحتفاء باليوم وعدّه عيداً لهم).

ومما يدعو إلى الدهشة أن بعض علماء التفسير لم يتفرّس في الآية ولم يُمعن النظر فيها ولم يتغلغل في باطنها وإنما توقف عند الظاهر واكتفى بالسطح.

«﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ سئل ههنا أنه يلزم منه أن الدين كان ناقصاً قبل ذلك وكيف يجوز أن يكون النبي ــ ص ــ مواظباً على

حجر العقرب أو العنكبوت والعامة في مصر تقول فلا سَكّة بفتح السين والكاف مع تشديد الأخير أو «أي كلام» أي ضعيف الرأي أو ضيق الأفق... الخ.

(١٦) **المواجهة بين القرآن والإسرائيليات**، تأليف حسني يوسف الأطيرس، ص ٥٧، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، مكتبة الزهراء، القاهرة.

الدين الناقص أكثر عمره»[١٧]؟

ذلك أن الآية نفحت مضموناً أعمق مما يشي به ظاهرها، إنها تأكيد على أن الإسلام قد ترسَّخت أركانه وغدا الدين الخاتم المهيمن على الديانتين اللتين سبقتاه (في التاريخ لا الرتبة) = اليهودية والمسيحية وأن دولة قريش التي واكبته ترسّخ سلطانها وتمكنت هيمنتها وتوثقت هيبتها مثلما أن القبيلة التي أسستها أضحت أنفس القبائل وأشمخها قامة وأعلاها كعباً وأسماها مقاماً... الخ.

هكذا أخذ الفتح الأعظم ولِزامُه عام الوفود يطرحان ثمارهما الشهية التي طفق يحصدها الدين الإسلامي والدولة القرشية معاً وبالسوية.

﴿والمحصنات من النساء﴾[١٨]. روى مسلم عن أبي سعيد (الخُدْريّ) أن أصحاب رسول الله ــ ص ــ أصابوا يوم أوطاس سبايا لهن أزواج فكرهوا غشيانهن فنزلت هذه الآية، وأوطاس هي غزوة حنين وكانت سنة ثمان بعد الفتح بقليل، ورواه الترمذي في السنن وأورده الواحدي في أسباب النزول بروايات متعددة[١٩].

هذا الخبر رواه مسلم في صحيحه (وهو المصلّي أي التالي بعد صحيح البخاري) والترمذي في سننه والواحديّ في «أسباب النزول» وبذلك فلا مطعن عليه وهو يوثّق أن تاريخها بعد فتح الفتوح بقليل إذ معلوم من كتب السيرة أن غزاة حنين وقعت عُقيبه. وقد أورده أيضاً القمّي النيسابوري في (الغرائب) عن أبي سعيد الخُدريّ بيد أنه أكمله فسألنا النبي ــ ص ــ فنزلت ﴿والمُحصنات من

(١٧) **غرائب القرآن**، القمّي النيسابوري، المجلد الرابع، ص ١٨٨، مصدر سابق.
(١٨) **القرآن الكريم**، سورة النساء، الآية ٢٤.
(١٩) **التحبير**، ص ١٠٢، مصدر سابق.

النساء إلا ما ملكت أيمانهم﴾ فاستحللناهن[٢٠].

وهكذا بعد أن قرأ محمد على الصحاب هذه الآية أصبح من حقهم وطء سبايا أوطاس حتى ذوات الأزواج وصار ذلك مبدأ مستقراً وقاعدة فقهية ثابتة (... أن اللاتي سُبِيْن ولهن أزواج في دار الكفر فهن حلال لغزاة المسلمين)[٢١].

لقد أثمر الفتح المقدمة الطبيعية لعام الوفود أُكُله الشهيّ إذ أعقبتهما السور والآيات اللائي عمقن دعائم الديانة التي أعلنها محمد ووطدن الدولة ـــ الحُلم القديم ـــ التي أسسها في أثرب.

سورة النصر نزلت في أوسط أيام التشريق عام حجة الوداع[٢٢].

معلوم أن حجة الوداع كانت في العام العاشر أي بعد قمة الوفود بسنة. والسورة كاملة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾ ويفسّر لنا القمّي النيسابوري الفرق بين النصر والفتح:

«... وقيل النصر كمال الدين والفتح الإقبال الدنيوي له (أي محمد) ولأمته كقوله: أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي»[٢٣].

هذا توثيق آخر من هذه السورة لكمال ديانة الإسلام وللإقبال الدنيوي لمحمد ولأمته ما يعني ضمناً ترسيخ أقدام الدولة القرشية في يثرب.

---

(٢٠) **رغائب القرآن**، القمّي النيسابوري في تفسيره لسورة النساء، المجلد الثالث، ص ٥٥٦، مصدر سبق لنا ذكره.
(٢١) المصدر نفسه، ص ٥٥٥.
(٢٢) رواه البزار والبيهقي، **التحبير**، ص ١٠٦، وهو مصدر سبق أن ذكرناه.
(٢٣) **رغائب القرآن**، القمّي النيسابوري، الجزء الحادي عشر، ص ٥٤٥، مصدر سابق.

وإذ أن بني هاشم هم رهط محمد ويأتي على رأسهم من بعده عليّ بن أبي طالب باب مدينة العلم فإنه ذريته بالتالي اِستمدت علومها منه وهو بدوره اِستقاها من محمد مدينة العلم.

«عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنا مدينة العلم وعليّ بابها فمن أراد العلم فليأت به»(٢٤).

«سئل الحسن بن عليّ فقال: نحن الناس وأشياعنا أشباه الناس وأعداؤنا النسناس، فقبّله عليّ بين عينيه وقال: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ ــ وهي الآية الرابعة والعشرون بعد المائة من سورة الأنعام»(٢٥).

هذا هو تصنيف خلق الله من بني آدم كما انتصب على لسان الابن البكر لباب مدينة العلم:

بنو هاشم ومن بعدهم القرشيون هم الناس. وأنصارهم وأشياعهم ومؤازروهم ومؤيدوهم... الخ هم أشباه الناس فحسب.

أما أعداؤهم وخصومهم ومناوئوهم وشانئوهم فهم القردة النسانيس... الخ.

وقد حظي هذا الفرز بتصديق من أبيه فمنحه قبلة بين عينيه ولم يكتفِ بذلك بل قرأ عليه آية تؤكد أن قالته قبس من مشكاة الرسالة وشعاع من مصباح النبوة. ويجيء إثر ذلك مختالاً قول يغدو نافلة إن ذلك كله نتاج ثمين للفتح الأعظم وقرينه عام الوفود.

وإذ أننا لسنا بصدد إحصاء للسور والآيات القرآنية التي يُؤرَخ

---

(٢٤) أورده الإمام الحافظ شيخ الإسلام النسائي في كتابه خصائص في أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ــ رضي ــ ص ١٧، تحقيق حمزة النشرتي وآخرين، د. ت. ن المكتبة القيمة، القاهرة.

(٢٥) **رغائب القرآن** القمّي النيسابوري، المجلد الحادي عشر، ص ٥٤٧، مصدر سابق.

لها بالفتح وبعام الوفود أو بعدهما فإننا نقنع بما قدمناه لأنها مجرد أمثلة لعلها فَلَجت كأدلة ثبوت على الرأي الذي طرحناه وهو أن عام الوفود شكّل منعطفاً خطيراً في طريقيّ الديانة الإسلامية ودولة قريش وأن ثمة تحولاً جذرياً حدث في سائر النطاقات ـــ ونكتفي بهذا القدر عن القرآن لكي نلج مضماراً آخر.

تصفية جيوب المقاومة

مثل أي ثورة ظافرة ما إن تنتصر وتُخْضِع الحواضر والمواقع الكبيرة حتى تلتفت إلى الجيوب التي ما زالت ترفع أعلام المقاومة وذلك لكي تضمن استسلام القطر جميعه وحتى لا تشكّل هذه الجيوب أو أحدها نقطة تجمع للثورة المضادة تهدد الثورة أو قد تقضي عليها.

مثلما حدث عندما غزا المسلمون أسبانيا فقد تركوا بعض أعشاش المناوأة المسلحة دون أن يقضوا عليها وكانت نتيجة ذلك أن كونت ما سُمّي في كتب التاريخ (حركة الاستعادة) صحيح أنها اِستغرقت وقتاً طويلاً لكنها في نهاية المطاف نجحت فيما استهدفته واستردت شبه الجزيرة إيبريا من الغزاة العُربان والبربر.

بيد أنّ محمداً كان لا يشق له غبار، حصيفاً، ماهراً، وسيع الأفق ــ ومن أسف أنّ تَبَعه لم يقرأوا سيرته العطرة قراءة متأنية ولم ينسجوا على منواله ويسيروا على خطاه ويقتفوا أثره... الخ. بعد أن فرغ محمد من فتح قرية القداسة مكة والذي كان الشيفرة التي فهمها زعماء القبائل المترددة والمتلكئة والمتأخرة حتى سارعوا

بإرسال الوفود تُقبّل قدميه ويديه وتعلن خضوعها لدولته وإسلامها... طفق يوجه السرايا إلى نقاط المقاومة القابعة في جوف الصحارى ظانة أن عسكر محمد لن يطولها ولا سبيل لديه للوصول إليها في مواقعها السحيقة:

أ ـــ أرسل عيينة بن حصن الفزاري في محرم سنة ٩هـ إلى بني تميم لأنهم لم يكتفوا بالامتناع عن دفع الجزية بل أغروا من يجاورهم من القبائل على ذلك. فما إن سمعوا بمقدم جيش دولة قريش حتى ولّوا مدبرين فأسر عيينة منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً ـــ وكان أسر النسوان لدى اليعاربة سُبّة الدهر وعار الأبد فأقبل بنو تميم مذعنين، مقهورين طائعين.

ب ـــ وفي صفر سنة ٩هـ بعث قطبة بن عامر إلى حَيّ من خَثْعَم جهة تَبَالة وكانوا أشجع من التميميين فلم يتركوا نسوانهم يُؤْسرن (لعل مرجعه أن نساءهن من بين جميع نسوة العَرَبة تميزن بالوضاءة الفائقة والحسن البالغ والوسامة التامة والجمال البديع والقسامة الكاملة ا. هـ) وقاتلوا قطبة وصحبه قتالاً شديداً حتى كثر الجرحى في الفريقين بل إن قائد السرية قطبة قُتِل بيد أن ما تبقى من السرية ساق الغنم والشاة ومن اِستأسر من النسوان.

ج ـــ وعلى رأس سرية توجه الضحاك بن سفيان الكلابي إلى رهط من قومه بني كلاب في ربيع الأول من السنة التاسعة فاقتتلوا وكانت الغلبة من نصيب عسكر قريش.

د ـــ وتجمعت بؤرة عصيان قريباً من ساحل جدة ظهر من بين قوامها أحباش وتخصص هؤلاء في أعمال القرصنة

فهددوا التجارة عصب النشاط الاقتصادي خاصة بالنسبة لـ (المكاكوة) فضلاً عن أن ذلك خَدَش سمعة دولة قريش وأظهرها بمظهر الضعيف العاجز عن حماية رعاياها[٢٦]. فندب لهم محمد في ربيع الآخر سنة ٩هـ ابن مجزر المَدْلَجيّ ومعه ثلثمائة من الصحابة... فأراحوا دولة القرشيين من تلك البؤرة العاصية.

هـ ــ في كتب السيرة أن لبني طيء صنماً يسمى (القلس) وأن محمداً أمّر أبا الحسنين على سرية في ربيع الأول سنة ٩هـ لهدمه وكان قوامها خمسين ومائة صحابي وخمسين فرساً ورايتهم سوداء ولواؤهم أبيض فأغاروا عليهم فهدموا صنمهم وعادوا وأياديهم مليئة بالنَعَم والشاء والنسوان. ونحن نرجّح أن ذلك لم يكن صنماً إنما كان كنيسة وذلك لسببين:

أولهما: أن طيء من القبائل التي كانت المسيحية فيها فاشية وقد سطرنا ذلك عندما تناولنا البصائر الأفقية وفادة عديّ بن حاتم الطائي.

آخرهما: أن القلس الذي ورد أنه صنم طيء وإنما هي كنيستهم لأنه في اللغات اللاتينية تسمى الكنيسة: إقليس.

تلك هي أوكار المناوأة المسلحة التي دعكتها جيوش دولة قريش فقضت عليها ولو تُركت وشأنها لاستفحل شأنها بعد أن كانت فصائل مهزولة وهذا كله يطرح أمامنا الحُجّة القوية على حِنكة

(٢٦) هؤلاء الأعاريب يسمون المواطنين، **الرعية** وفي قواميس اللغة/ الرعية هي الماشية فانظر إلى تقييمهم لمحكوميهم أ. هـ.

قائد الثورة محمد ودربته وعمق بصره بالأمور ــ وقبل أن نغادر هذه النقطة لنتناول التالية والمكملة لها في مضمار ترسيخ القوائم في الداخل نلفت انتباه القارئ إلى أن السرايا التي انطلقت لم تكتف بسحق المقاومين بل درجت على أن تعود وذراعاها يضمّان القدر الوفير من النعم والشاء والسبايا لأن عسكرها حفظ الدرس الذي موجزه أن لهم نصيباً مفروضاً في الغنائم مما يقطع بأنها كانت هدفاً رئيساً يتغياه أولئك الصحاب ويضعونه في مركز دائرة اهتمامهم وهنا ينبري من يدافع: وهل ثمة ما يمنع أن يجمعوا بين خيريّ الدنيا والآخرة فيحوزوا الغنائم ويفوزوا بثواب الجهاد[٢٧]!!!

تحصيل الحقوق المالية

من أبرز مظاهر انتصار الثورة وتسيّد الدولة التي تنشئها وهيمنتها تحصيل الضرائب والمستحقات المالية كافة لتأمين مواردها الضرورية واللازمة لها...

وهذا ما حدث مع الثورة المظفرة التي قادها محمد ومع الدولة التي أسسها والتي كانت شارتا فلاحها (الفتح والوفود) أضحتا ظاهرتين لكل ذي عينين، فما إن عاد (= محمد) من أم القرى ظافراً مرفوع الرايات وتتابعت الوفود (= كانت قبل ذلك ومنذ العام الخامس كما أسلفنا تأتي أرسالاً ا. هـ) حتى أخذ محمد يبعث برجاله إلى القبائل يحصدون الصدقة أو الزكاة وسموا بـ(المُصَدِّقِيْن) وقارب عددهم العشرين وانتشروا بين القبائل كافة وخاصة الكبيرة العدد والوفيرة الغِنَى وغطّوا أنحاء الجزيرة، وليس من قبيل المصادفة أن تكون بداية بعث أولئك العمال (المُصَدِّقِيْن)

---

(٢٧) في هذه الفاصلة رجعنا إلى كتاب **الرحيق المختوم**، الشيخ صفي الدين المبارك فوري، ص ٤٠٧/ ٤١١ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، مكتبة السنة، القاهرة.

في العام التاسع الهجري لأنه قمة هرم الوفادة والتي هي بدورها ذروة سنام الخضوع والإذعان والطـــاعة والاستسلام والخنـــوع وبَوْس الأرجل والأيدي[٢٨] من جانب القبـــائل التي كانت تشمخ بـ مَعَاطسها وتقول: نحن لِقَاح لا ندين لملك... بيد أنها ذلّت لمحمدٍ لأنه عرف كيف يعالجها وأتقن اللغة التي تفهمها[٢٩].

وهذا ثَبْت بأسماء عمال الصدقات والقبائل والجهات التي أمّرها:

١ ــ عُيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم، ويبدو أن عيينة تخصص في التميميين إذ رأيناه على رأسه السريّة التي هرستهم هرساً مكّيناً وسبَت نسوانهم.

٢ ــ يزيد بن الحصين إلى أسلم وغفار.

٣ ــ عبّاد بن بشر الأشهلي إلى سُلَيْم ومُزينة.

٤ ــ رافع بن مكيث إلى جُهينة.

٥ ــ عمرو بن العاص إلى بني فزارة.

٦ ــ الضحاك بن سفيان إلى بني كعب.

٧ ــ ابن اللُّتبيّة الإزدي إلى بني ذبيان.

وبشأن ابن اللُّتبيّة هذا يوجد حديث مشهور إذ أنه بعد أن عاد بالصدقات قال لمحمد: هذه هي الصدقات وهذا ما

---

(٢٨) في المعجم الوسيط، **باسه** بوساً: قبّله، فارسي مُعرّب.

(٢٩) لمزيد من التعرف على نفسية هؤلاء اليعاريب أبناء عدنان وقحطان وأحسن المسالك لمراودتهم وترويضهم فضلاً: نرجو الرجوع إلى كتابنا **العرب والمرأة، حفرية في الاسطير المخيّم**، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، دار سينا، مصر ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت.

أُهدي إليّ. فغضب محمد وأمره بأن يضع جميع ما أحضره في الصدقات ووجه إليه سؤالاً هل لو جلست في بيتك أكان أحد سيهدي إليك شيئاً؟ وهذا الحديث المتميز الذي وضع قاعدة حاسمة في حُرمة المال العام تحت أي مسمى: هدية، إكرامية، تحفة ــ عمولة... أتعاب.. الخ. للأسف لم يعمل به حكام المسلمين وولاتهم بل عبّوا من المال العام عبّاً وتضلعوا منه بل إنّ كثيراً منهم ما هو بَيْن المال العام ومالهم الخاص وقد بدأ ذلك مُبَكراً بعد أقل من خمسة عشر عاماً من وفاة محمد وانتقاله إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً منذ خلافة عثمان فهو الذي سنّ هذه السُنّة المدمرة ضارباً بـ النصوص عُرض الحائط[٣٠].

٨ ــ المهاجر بن أمية إلى صنعاء اليمن.

٩ ــ زياد بن لبيد إلى حضرموت (اليمن).

١٠ ــ عديّ بن حاتم إلى طيء وبني أسد.

١١ ــ مالك بن نويرة إلى بني حنظلة.

١٢ ــ الزبرقان بن بدر إلى شطر من بني سعد.

١٣ ــ قيس بن عاصم إلى الشطر الآخر من بني سعد، الأمر الذي يدلّ على اتساع رقعة مضاربهم وكثرة أموالهم.

١٤ ــ العلاء بن الحضرمي إلى البحرين.

١٥ ــ عليّ بن أبي طالب إلى نجران.

(٣٠) تناولنا هذه النقطة بتوسيع في كتابنا شدو الربابة أ. هـ.

«وإذ أن نجران مركز للمسيحية (يسمونها النصرانية) فقد أُضيف إلى أبي الحسنين مهمة قبض الجزية بجانب الصدقة»[٣١].

وهكذا بسحق بؤر المقاومة المسلحة، وإلزام القبائل الكبيرة والبقاع كافة ومنها الأطراف بتقديم الواجبات المالية تأكد فلج ثورة محمد ودولته والدين يدعو إليه وكل هذه الأمور من تداعيات الفتح الأكبر ونديده عام الوفود الذي هو بالذات شكّل خاتم التصديق وبالتالي فلا توجد أدنى مبالغة أو أقل مغالاة في القول بأن هذا العام هو أخطر أعوام السيرة المحمدية فهو دليل الثبوت القاطع على أن الدعوة المحمدية اجتازت بنجاح ساحق يعز قرينه أو مثيله طَوْر الدعوة الخاصة (النصرانية أو المسيحية) إلى مرحلة الدولة الداعية (داوود وسليمان في اليهودية).

وبعد السيطرة على جميع مُقدرات الجزيرة الداخلية فقد آن الأوان إلى التطلع إلى خارجها وهذا ما سنطرحه في الفصلة القادمة.

---

(٣١) ارتكزنا في هذه الخصوصية إلى ما جاء في كتاب **الرحيق المختوم**، المبارك فوري، ص ٤٠٦، مرجع سابق.

الإنسياح إلى الخارج

يبين من دراسة البصائر الرأسية أن وفادات القبائل على محمد قد بدأت منذ العام الخامس (الهجري) واستمرت حتى العام العاشر إنما بلغت ذروتها في العام التاسع ومن هنا جاءت تسميته بعام الوفود.

في العام الخامس حدثت غزوة الأحزاب أو الخندق وهي من أشد الغزوات على محمد والدين الإسلامي ودولة قريش التي أقامها في أثرب. فقد اِستطاع صناديد قريش أن يجمعوا ما يقارب عشرة آلاف مقاتل من قبائل سليم فزارة وأسد وأشجع وغطفان وهي من أعتى القبائل ــ بخلاف ما يتيسر لأبي سفيان تجنيده من قريش ذاتها وما إن وصل هذا الجيش اللُجُب إلى مشارف يثرب حتى تجددت الأحقاد في صدور بني النضير الذين أجلاهم محمد عقب غزاة أحد فسعى زعيمهم حيي بن أخطب لدى يهود بني قريظة لنقض عهدهم مع محمد ومهاجمته لكي يتم تطويق المسلمين من جميع الجهات وهو ما يسمى في العلوم العسكرية بـ (الكماشة)[٣٢].

(٣٢) في المعجم الوسيط، **كمش في سيره**، كماشة: أسرع وجدّ فيه ورجل كميش الإزار: مشمره، جاد في أمره.

وتحرك حيي سيد بني النضير يرجع إلى أنه يسعى لأخذ ثأره من محمد جرياً على العادة المستقرة في جزيرة العرب آنذاك بل حتى الآن ولإستعادة السيطرة على أثرب وخاصة الأنشطة الاقتصادية التي كانت في أيديهم فيما مضى قبل نزوح محمد إليها ــ والباعث الأخير هو الذي أغرى رؤساء بني قريظة بنقض العهد والانضمام للحلف المشؤوم رغم إدراكهم حُروجة موقفهم وفداحة الثمن الذي سيدفعونه في حالة إخفاق الأحزاب. وبذلك غدا محمد والمسلمين مطوقين بقريش والقبائل الأخرى من جانب ويهود بني قريظة من جانب آخر فضلاً عن وجود طابور خامس في قلب أثرب ذاتها ونعني به حزب المنافقين الذي أثبت أن له حضوراً واضحاً في (حديث الإفك) الذي أوشك أن يشقّ وحدة المسلمين التي تعب محمد في بنائها طوال أعوام خمسة وأن يقتتل فرعا بني قَيْلة: الأوس والخزرج لولا حكمة محمد وحنكته وشخصيته السيادية (الكارزمية).

وقد رسمت سورة الأحزاب لوحة رائعة لوضع المسلمين آنذاك ﴿إذا جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا﴾(٣٣). وقام محمد بأكثر من محاولة ليفكّ هذا الحلف الشرير بأن ينفح غطفان ثلث ثمار يثرب بيد أن زعيميّ بني قَيْلة: الأوس والخزرج رفضا العرض ــ وكان هدف محمد أن تنسحب هذه القبيلة الكبيرة لكي يوقع الوَهَن في صفوف القبائل فتحذو حذوها بيد أن سيديّ الأوس والخزرج فطنا إلى أن الأنصار وحدهم هم الذين سيدفعون الثمن دون النازحين (المهاجرين) الأمر الذي حدا بهما إلى عدم الموافقة.

(٣٣) **القرآن الكريم**، سورة الأحزاب، الآية ١٠.

ثم أشار سلمان الفارسي على محمد بحفر الخندق فأخذ بمشورته وأمر على الفور بتنفيذها وساهم بنفسه في العمل وأربك ذلك المُحاصِرين (بكسر الصاد) وقالوا إنّ هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها ولم تكن ثمرتها الحيلولة دونهم واقتحام المدينة (أثرب) فحسب بل الحرب النفسية التي أفرزتها إذ أيقنوا أن الحرب ممتدة ومريرة وهم لم يتعودوا على المعارك ذات النفس الطويل.

ثم لجأ محمد إلى مبادرة أخرى لشق عصا التحالف الحاقد الذي اِنعقدت آصرته بين اليهود وبين الأحزاب بأن أطلق العنان إلى نُعيم بن مسعود الأشجعي ليخذّل بعضهم بعضاً والحرب خدعة ونجح الأشجعي في مسعاه ثم ساءت الأحوال الجوية فهبّت ريح صرصار عاتية أطفأت نيرانهم وكفّأت قدورهم ونزعت أوتاد خيامهم وطَوّحت بها بعيداً وانتهز المسلمون الفرصة فأثخنوهم رشقاً بالسهام فملأ الرعب قلوبهم فانقلبوا خائبين وارتحلوا مدحورين ــ وانتصر المسلمون أو عُدّوا منتصرين وعادوا لقريتهم شاكرين حامدين مثنين على الله.

بيد أن السماء كان لها رأي آخر: كيف يضع محمد والمسلمون أسلحتهم ويذرون بني قريظة وجاء أمرها (= السماء) حاسماً إلى بني قريظة فحاصروها وبعد مراوضات انتهى الأمر إلى تحكيم رأس الفرع الآخر من بني قَيْلة: الأوس وهو سعد بن مُعاذ وكان على حلف معهم فحكم بجزر رقاب الرجال وتقسيم الأموال وسبي الذراري والنسوان وقال محمد إن السماء صدّقت على قضاء سعد.

(لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات)[٣٤].

(٣٤) أخرجه البخاري في **صحيحه** في كتاب الجهاد، ومسلم في **صحيحه**، في كتاب الجهاد أيضاً.

ولم تُقْتل إلا يهودية واحدة لجُرم إلقائها رحىً على خلاّد بن سُويد فقتلته وبذا أخذت حكم المُحاربة. لأن القاعدة الشرعية عدم قتل النساء إلا إذا اشتركن فعلاً في الحرب أي صرن محاربات.

ذُبح من الرجال والصبية البالغين(٣٥) في رواية تسعمائة وفي أخرى سبعمائة حتى جرت دماؤهم في دروب أثرب كالقنوات ـــ ثم قسّم محمد أموالهم ونسوتهم وولدانهم على تبعه من المسلمين ولم يكن ذلك بالشيء اليسير وكافأت السماء ابن معاذ على حكمه المروّع ذاك(٣٦). بأن أرسلت سبعين ألفاً من الملائكة يمشون في جنازته (لاحظ أن العدد هو سبعون ألفاً ا. هـ) وأدخلته الجنة ليتلذذ بنعيمها وحبته فيها بمناديل ليس لها نظير في النعومة والليونة. بيد أن قضاءه في يهود بني قريظة يثير التباساً وهو: إذا كان نحر رقاب قادتهم ومشاركيهم في الرأي والمحاربين مفهوماً ومشروعاً معاً فما بال المئات من الرجال بل حتى الصبية الصغار الذين احتلموا حديثاً من الذين لم يشتركوا في نقض العهد ولا وافقوا عليه ولا ساهموا في أي فعل عدائي؟ ولما كان المشكّل من النصوص (قرآن أو حديث أو سُنّة فعلية أو تقريرية) هو ما لا يسهل فهمه حتى ينتصب دليل ثبوت عليه من غيره كما يذهب إليه علماء الأصول فإن الرد يتلخص في أنه لو انتصر الأحزاب ومعهم بنو قريظة على محمد والمسلمين ودخلوا يثرب لما تركوا فيها أحداً من الرجال والغلمان ولفجروا بالنسوان وهتكوا عذرية الفتيات وقد حدث ذلك بعد عقود قليلة من السنين في وقعة الحرّة التي تمت في زمن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية المشهور بِ (يزيد

---

(٣٥) كانوا يكشفون عن العانة فإذا وجدوا عليها مجرد زغب خفيف قطعوا رأس الغلام.
(٣٦) في معاجم اللغة **المروّع**: الملهم وصادق الفراسة.

الخمّير السكّير ويزيد القرود والطنابير) ومن فعل تلك الأفاعيل التي لا تمت لأي دين أو خلق أو عرف كانوا ينتسبون إلى الإسلام، فما بالك لو كانوا خليطاً من المشركين الكفار البدو الجفاة الغلاظ المتبدّين الأميين ومن اليهود الحاقدين الموتورين الذين ملأ الغل والغيظ والقهر صدورهم. بعد هذه الاستطرادة التي لا بد منها عن أهم واقعتين حدثتا في العام الخامس من نزوح محمد وصحبته إلى قرية أثرب ونعني بهما: غزاة الأحزاب ومقتلة بني قريظة: نؤوب إلى سياقة المبحث وصلب الدراسة فنقول:

إن هاتين النازلتين كانتا من أهم البشائر وأوضح الشارات وأصح الآيات وأوثق العلامات على ارتفاع شأن محمد ورسوخ عواميد الديانة التي كان يفشوها والدولة التي أقامها في قرية بني قَيْلة والتي نسج الخطوط الأولى في ثوبها جده الخامس قصيّ بن كلاب.

وكم كان محمد شديد الحصافة صادق الفراسة بالغ الحنكة واسع الأفق مستقبليّ النظر عندما قال ــ بعدها (الآن نغزوهم ولا يغزوننا: نحن نسير إليهم)[٣٧].

لقد شكلّنا إعلاناً لعرب وعُربان وأعاريب الجزيرة أن أعلام دولة قريش لن تنكّس وأن الدين الذي يبشّر به محمد لن يُقهر وأن المسلمين قضوا على أعدائهم يهود بني قريظة قضاءً مبرماً وتخلصوا من أخطر جيب من جيوب بني إسرائيل ولم يعد لـ (أهل الكتاب) أهمية تذكر بالمقارنة بـ (أهل القرآن) وجاء نصارى نجران في العام العاشر وبصموا بأصابعهم العشرة (لكل واحدٍ منهم) على هذه القالة. بعد هاتين الواقعتين بدأت القبائل ترسل وفودها وتبعث برسلها وتُبْرِدِ (من البريد) بمندوبيها إلى قرية بني قيلة للمثول بين

(٣٧) رواه البخاري في **الصحيح**، في غزاة الخندق.

يديّ محمد المنتصر على الحلف الشِرْكيّ/ اليهودي أو الوثني/ الإسرائيلي تُقدّم له الطاعة والولاء.

ومن هنا يجوز لنا أن نقرر أن الوفود بدأت فعلاً في العام الخامس واستمرت حتى العاشر (وفد نصارى نجران) إنما الذروة والقمة السنام تركزت في العام التاسع ولذا فاز بلقب (عام الوفود) وهو شأن مألوف في لغة بني عدنان وبني قحطان (عليهم البركة) فيقولون: يوم الجمل ويوم صفّين ويوم القادسية ويوم جَلولاء معلوم أن أياً منها لم يستغرق يوماً واحداً وهكذا وبالقياس إذا قيل عام الوفود فلا يقصد به عام واحد وإنْ اشتُهر به العام التاسع الذي ضمّ بين شهوره أكبر عدد منها وأوفرها منزلة وأشدها خطراً.

بعد العام الخامس وبعد استرداد المسلمين لأنفاسهم والتبصّر في النتائج التي أعقبتها حوادثه كان من تباشير ثماره أن طفق محمد يفكر جدياً في مدّ دعوته ودولته معاً إلى الخارج بعد أن أوشكت الجزيرة بكاملها أن تسقط ثمرة ناضجة بين يديه بل إذا شئنا الدقة تحت قدميه فماذا فعل لتحقيق فكرة الإنسياح إلى الخارج أي مدّ سلطان الديانة والدولة لما وراء حدود الجزيرة القاحلة الجرداء القرعاء الماحلة؟

١ ـ بعث الرسائل إلى رؤساء الدول المجاورة:

تم ذلك في العام السابع من النزوح إلى أثرب فسمي بـ (عام مكاتبة الملوك) إذ فيه أقدم محمد على خطوة بالغة الجرأة، عظيمة الشجاعة تقطع بالثقة المكينة من النفس إذ أوفد مندوبين من صحبه بعد اتخاذه خاتماً يختم به الكتب أي الرسائل رؤساء الدول إلى حكام البلدان المجاورة:

بعث بـ دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل عظيم الروم[٣٨]. وأرسل محمد مكتوباً آخر إلى كسرى إمبراطور الفرس. وثالثاً إلى النجاشي أصحمة سيد الحبشة مع عمرو بن أمية الضمري ورابعاً إلى المنذر بن ساوي والي البحرين وخامساً مع عمرو بن العاص إلى ملك عُمان جيفرين الجلندي وكان يعاونه في الحكم أخوه عبد بن الجلندي وسادساً مع حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس رأس أقباط مصر ويسمى جريح بن متى وفي رواية أخرى بنيامين والسابع إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق حمله إليه شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة.

هؤلاء هم رؤساء الدول المحيطة الذين دعاهم محمد للدخول في الدين الذي كان يدعو إليه وبالتالي للإنضواء للدولة التي أسسها لأنهما قرينان. ومن أولئك من رفضها بصلف واستكبار ومنهم من تلقاها بلطف وكياسة ومنهم من قبلها وآمن بها بيد أن الذي فعل ذلك وهو ملك عُمان كان خفيض المكانة بالمقارنة بالرافضين أو الذين مأنوا في الأمر[٣٩]. وقريب المسافة من قرية بني قيلة حاضرة دولة قريش. والخلاصة في هذه النقطة أن بعث محمد لرؤساء الدول برسله وكتبه هو أول إرهاصات الانفتاح إلى الخارج

---

(٣٨) دِحْيّة من الشخصيات التي تستحق دراسة خاصة معمّقة إذ كان وضيئاً قسيماً وسيماً بل فائق الحسن ورائع الجمال حتى إنه كان يتلثم ــ كالنسوان ــ ليخفي وجهه الباهر لكي لا تفتتن به نساء يثرب وكان جبريل في بعض الأحيان يجيء إلى محمد على صورته وكان دِحْيّة على صلة وثيقة بالشام الواقعة ضمن أملاك الإمبراطورية البيزنطية ــ وهو صاحب القافلة التي أغرت المسلمين على ترك صلاة الجمعة مع محمد ــ إلا نفراً قليلاً ــ لأن القافلة كانت تصحبها جوقة من الطبّالين والزمّارين... الخ أ. هـ.

(٣٩) في المعجم الوسيط، **مَأَنَ** في الأمر تَمْئِئة: نظر وفكّر، والعامة في مصر المحروسة تقول: ماين أ. هـ.

وهو خطوة لها تباعة وثيقة بوفادة القبائل عليه منذ العام الخامس والتي تعني بذاتها ظهور مخايل هيمنة محمد بالدين والدولة معاً على مقدرات جزيرة العربان وضرورة الخروج إلى آفاق أرحب.

٢ ــ عركة مؤتة

السبب الظاهر لها والذي تذكره كتب السيرة هو أن محمداً بعث الحارث بن عمير الإزدي برسالة إلى عظيم بصرى أو ملكها يدعوه إلى الإسلام[٤٠]. وقبل وصوله تصدى له عامل (والي) البلقاء من أرض الشام ومن قبل قيصر فقتله، وقتل الرسل أو السفراء أو المندوبين يُعدّ من أبشع الجرائم، ويدل على الاستهانة بمن أوفدهم واحتقار لشأنه ويعتبره البعض بمثابة إعلان للحرب. إنما يستتر وراءه (= السبب الظاهر) رغبة محمد رأس دولة قريش في عَجْم عود قيصر الإمبراطورية البيزنطية ومعرفة رد فعله إزاء الخطة التي رسمها للإنسياح إلى الخارج بعد إحكام القبضة على مقدرات شبه الجزيرة العربية والذي قدّم عام الوفود بتعرجاته وامتداداته الحجة الساطعة والبرهان القاطع عليه. فاستثمر محمد ــ بما عُرف عنه من تدبير عميق في كل أمر وتفلية دقيقة لكل شأن وتبصر بالغ في كل حدث هذه النازلة ودلالاتها من تحدٍ واستفزاز وتحريض وتحريش... الخ. يتخذها تكأة لتغدو شرارة الإنطلاق لاقتحام البلاد المجاورة ولتكن البداية بالجزء الملاصق للجزيرة من أملاك دولة قيصر. فجهز جيشاً قوامه ثلاثة آلاف محارب ورغم أن عبقري المعارك العسكرية كان من بين أجناده إلا أن محمداً لم يكن قد اِستوثق بعد من عمق إيمان خالد بن الوليد فلم يولّه القيادة العامة وأسندها إلى آخرين من

(٤٠) اختلفت كتب السيرة، كعادتها في أغلب الوقائع في عدد الرسائل التي بعث بها محمد إلى ملوك ورؤساء البلدان المجاورة.

المقربين منه والمخلصين له ديانة ودولة بيد أنه لم يُعرف عنهم ــ زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة أي فقه في شئون الحرب باستثناء أولهم بنسبة متواضعة بل إن ثالثهم كان شاعراً ممن يهيمون في أودية الشطح والتخيّل والتهاويل، لقد تغلّب شعار (أهل الإخلاص مقدمون على أهل الخبرة). وكاد جيش المسلمين أن يهلك عن آخره لولا عبقرية ابن الوليد الذي اِختاره للقيادة الجنود أنفسهم.

ولقد أدرك الروم دلالة إرسال دولة قريش لهؤلاء العسكر فأعدّوا لهم عدداً وعدة كثيفين ورغم تراجع جيش المسلمين فإنهم خرجوا من الوقعة بدروس عديدة طبقوها عندما بدأوا الانفتاح العسكري على الخارج في خلافة التيميّ ابن أبي قحافة والعدويّ ابن الخطاب... وفي مقدمها اختيار القادة الأكفاء والأخذ بالأسباب الشهودية (منسوبة إلى عالم الشهادة) وعدم التعويل على الأسباب الغيبية (= نسبة لعالم الغيب)...

إذ كان من أهم علل ما حدث لجنود قريش في مؤتة أنه عندما هالهم منظر الجيش العرمرم الذي أعدته لهم بيزنطية استقر رأي عقلائهم على أن يستمدوا محمداً (أي يطلبوا منه مداداً) ولكن تصدى لهم عبد الله بن رواحة وهو كما قلنا شاعر فسفّه هذا الرأي وألمح إلى أن القائلين به هم من قليلي الإيمان الذين يشكّون في موعد الله بالجنة ولذائذها ونعيمها وأطايبها في حالة استشهادهم ولم يقف عند هذا الحد بل أخذ يحمّسهم بأبيات من الشعر العاطفي الملتهب فانجرفوا لتياره وانصرفوا عن السبب الشهودي (طلب عون من أثرب) وانحازوا إلى الغيبيات التي أطلقها بينهم ابن رواحة فكان ما كان.

خلاصة القول أن دولة قريش في الانسياح الثاني (= الآخر) أو الخليفيّ (الذي حدث في عهد الخلفاء) اتغظوا بنازلة مؤتة ويمموا شطر الأسباب الشهودية التي تحقق الفلج في كل أمر من نجاح التلميذ في الامتحان إلى ظفر القائد في ميدان القتال.

إنما كل ما حدث في مؤتة لم يُثْنِ عزيمة محمد أو دولة قريش عن المضيّ في الخط المرسوم ويعني به ضرورة الخروج من الجزيرة بعد فرض السيطرة والسلطان عليها.

٣ ــ غزاة تبوك

بعد عراك مؤتة تأكد قيصر الروم أن دولة قريش عقدت العزم على فَرْشَحة رقعتها وتوسيع حدودها فأخذ يعدّ العدة لذلك... وكان لمحمد كأي حاكم يقظ حذر عيون لدى الجوار فأخبروه بذلك فعزم أن تصير المبادأة في يده وأن يخرج لملاقاة بني الأصفر وبذلك يصيب عصفورين بحجر واحد:

الأول: أن يتلافى أية هزيمة أو اكتساح أو احتلال أو غزو أو استعمار لأنه كان يؤمن إيماناً راسخاً أنه ما غُزِي قوم في دارهم إلا هُزِموا وذَلّوا.

الآخر: أنه في حالة النصر سوف يغدو بداية الخير وبشارة الانفتاح وأول خطوة في سبيل الهيمنة على الدول المجاورة واللبنة البِكْر في بنيان إمبراطورية قريش التي لا تقل عراقة على الأرومات التي أنشأت امبراطوريات مثل: آل ساسان على يد آردشير.

ونظراً لأهمية الغزوة فقد قرر محمد أن يتموضع على رأس عسكر قريش واستنفر الناس وضحّى القرشيون بالذات بأموال نفيسة في سبيل تجهيز الجنود في حين تقاعس ثلاثة من مشاهير بني

قَيْلة وتردد الرابع لكنه لحق بهم في الطريق...

وكان محمد يُكنى بالجهة التي يبغي قصدها إنما في هذه المرة صرّح بها وبلغ عدد الجيش ثلاثين ألفاً وهو رقم مرتفع في تلك الأيام... وهال الروم هذه البلايا التي تحمل المنايا (= النوق التي تحمل الموت الزؤام)... فصالح بعض عمال الولايات (أيلة، جرباء، أذرح ودومة الجندل) محمداً وأعطوه الجزية.

ورأى قواد قيصر عدم الدخول مع عسكر قريش في قتال فمكث هؤلاء في تبوك شهراً ليعلنوا للجميع أن دولة بيزنطية هابت لقاءهم كما أنهم بذلك ثأروا لإخوانهم في مؤتة.

ومع أن ذلك جميعه لم يكن بالشيء اليسير فإنه قد كشف عن أن امبراطور بيزنطة أو قيصرها نمر من ورق وأن دولته مجرد مظهر خُلّب وأنها من الداخل متداعية متهاوية وأنها لو كانت على شيء لتصدت لأجناد دولة قريش.

وفضلاً عن أن تبوك كانت شارة بدء واضحة من محمد لخلفائه في حكم دولة قريش التي أقامها في قرية بني قَيْلة (الأنصار) وبأسيافهم بغية الخروج من شرنقة جزيرة الجدب والقفر والإمحال فإنها رسّخت في يقين خلفائه أن النصر على الروم أمر محتوم على غير ما كانوا يظنون وأن الطريق إلى إنشاء إمبراطورية قريش وإن لم يكن مفروشاً بالورد إلا أنه ليس مستحيلاً ولا وحتى وعراً...

وهكذا نأتي إلى آخر محاولة في مضمار الآثار الهامة لعام الوفود الذي كما قلنا كان العلامة الفارقة بين عهدين والشارة الباهرة على سيطرة محمد على جزيرة العرب.

٤ ــ بعث أسامة:

ظل محمد متمسكاً بخطة أو خطوة الإنفراج إلى الخارج حتى

آخر لحظة ففي السنة الحادية عشرة للهجرة وبعد قفوله من حجة الوداع وفي آخر صفر من ذلك العام أعدّ جيشاً كبيراً لغزو الروم ألحق به زعماء الصحبة وخاصة من المهاجرين وعلى رأسهم التميمي أبو بكر والعدويّ عمر وأمّر عليهم حبّه وابن حبّه أسامة بن زيد وكان في السابعة عشرة من عمره وتصفه كتب السيرة المحمدية بأنه أسود أفطس وتأمير هذا الغلام الذي هو بهذه الأوصاف على مشيخة الصحاب والمهاجرين القرشيين على وجه الخصوص من النقاط التي لم يتعرض لها أحد من البُحّاث إذ ما الذي دفع محمداً إليه؟ وماذا كان هدفه؟ وما هو مرماه لو أن ذلك حدث الآن ونحن في عصر الحداثة وما بعد الحداثة: فهل يقبل شيوخ عرب أن يترأسهم حدث يافع فضلاً عن أنه أسود أفطس؟ فكيف يرتضيه مشيخة قريش في القرن السابع الميلادي؟ ولماذا أغفل محمد الصحابة المشهود لهم بالمهارة والدُرْبة في قيادة الجيوش مثل سعد بن مالك (شهرته سعد بن أبي وقاص) وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهم كثير واختار ذلك الصبيّ صاحب الملامح الزنجية؟ أسئلة تنتظر من يقوم بعمل حفرية معرفية بشأنها.

ومن جانب آخر: فهل كان محمد وقد أحس بدنو أجله يبغي إبعاد صفوة الصحاب المهاجرين عن أثرب/ المدينة لكي لا يشكّلوا حجر عثرة في طريق بني هاشم وهم ينصّبون أبا الحسنين خليفة؟

وإذا كان بعث أسامة ضم متقدمي الصحابة من بني قَيْلة فقد كان محمد يعلم علم اليقين أنه لا خطر منهم في منافسة بني هاشم على الخلافة أو على خطرهم يسير.

بيد أن التميمي (أبا بكر) والعدويّ (ابن الخطاب) فقها الأمر فانسلخا من عسكر أسامة ولا يهمّ أنّ ذلك يرقى إلى درجة

العصيان لأمر محمد الصريح لأن المسألة لا صلة لها بالعلاقات الإنسانية أو العواطف الدينية بل هي مرتبطة بالمصالح. وأكملا مسعاهما وعاونهما فيه أبو عبيدة بن الجراح وفلج ثلاثتهم في حرمان علي بن أبي طالب من حقه في الخلافة وخطفها[٤١] أبو بكر ومن بعده عمر ولولا وفاة اِبن أبي الجراح لغدا الخليفة من بعد العدويّ! ثم نؤوب إلى سياقة الحديث:

لقد كان جيش أسامة المحاولة الرابعة التي قام بها القائد الثائر محمد مؤسس الدولة والمبشّر بالدين في الانعتاق من ربقة الجزيرة الجرداء ــ وبَنّد عن صلب موضوعنا تقييم ذلك البعث بيد أنه يُعدّ بمثابة توثيق وتأكيد منه لخلفائه وأصحابه أن الدولة التي ثار من أجل تأسيسها يتعين أن تمد رجليها إلى الخارج والدين الذي واكبها وزاملها أن يزاحم الديانتين الساميّتين الإبراهيميتين اللتين سبقتاه في الظهور بل ويهيمن عليهما في كل ركن من أركان الأرض بعد أن أدرك محمد المغزى العميق لـ (عام الوفود).

(٤١) في قواميس اللغة، **خطف** أي أخذ وجذب بسرعة.

المعجزات

حفل عام الوفود بالعديد من المعجزات التي أظهرها محمد لكثير من الوفود وجاءت متنوعة ولعل القارئ قد تنبه إلى أن بعضها تعلّق بأمور معاشية تتوقف حياة المتلقين عليها مثل المطر (السُقيا) والغذاء فمن آمن وصدق وشهد لمحمد بالرسولية والاتصال بالسماء وهو الذي جرت على يديه تلك المعجزات عاش آمناً على شرابه وطعامه خاصة في تلك البيئة ذات الموارد الشحيحة.

والمسيح بن مريم سبق لـــه أن قام بذات بالمعجزات ذاتها أو مثيلات لها منها هذه المعجزة.

> وأمر الجموع أن يجلسوا على العشب ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره إلى السماء وبارك وكسّر الأرغفة وأعطاها للتلاميذ فوزعوها على الجموع فأكل الجميع وشبعوا ثم رفع التلاميذ اثنتي عشر قفة ملأوها بما فضل من الكِسَر وكان عدد الآكلين نحو خمسة آلاف رجل عدا النساء والأولاد(٤٢).

---

(٤٢) **إنجيل يوحنا**، ١٦، ١٩/ ٢١.

خمسة آلاف رجل عدا النساء والأولاد(٤٣). يأكلون حتى الشبع من خمسة أرغفة وسمكتين ومع ذلك يفْضُل مهم ما يملأ اثنتي عشر قفة.

تلك الأفعال التي جرت على يد عيسى ثم يد محمد بنحو أو آخر إذ لا تُشترط المماثلة الكاملة تخرق العادة وتندّ عن النواميس الطبيعية وتخرج عن القوانين الكونية التي ألفها الناس، فلم يعتد الناس أن خمسة أرغفة وسمكتين تشبع خمسة آلاف رجل (دعك موقتاً من تجاهل تعداد النساء) وتفيض عن حاجتهم وليس من المعتاد أن فضلة من تمرٍ تكفي أربعمائة مسافر عبر الصحراء بل وبعد أن يستوفوا مرادهم منها تعود كما كانت لم تنقص تمرة واحدة.

تلك الأعمال التي لم يتعودها من حضرها تصدمهم عند مشاهدتهم إياها ولا تدع لهم مجالاً للتردد في اِتباع من أتى بها وتصديق كل ما يدعو إليه لأن من يفعل ذلك ليس شخصاً مثل باقي الخلائق بل هو مؤيد بقوى عُليا ساعدته على قلب الموازين وكسر العوائد وخرق النواميس.

تلك المعجزات المرموقة في الفصل الأول (البصائر الرأسية) وردت في أمهات كتب السيرة (التراثية) التي تلقتها الأمة بالقبول بل وبالتجلة التي تقارب تخوم التقديس والتي لم يطعن فيها أحد منذ تأليفها أو تصنيفها حتى الآن ــ وأسماؤها سوف ترد في ثبت المراجع في آخر الكتاب وهي (= المعجزات) متنوعة ومختلفة وتغطي مناحي متباينة ما بين إخبار بهزيمة قوم وقعت لهم في بلدهم الذي يبعد كثيراً عن يثرب/ المدينة أو التنبؤ بمجيء رهط بقيادة

---

(٤٣) لاحظ أن الاهتمام انصب على تعداد الرجال دون النساء لأن المجتمعات الساميّة التي انبثقت منها الأديان الثلاثة مجتمعات ذكورية يتمحور اهتمامها دائماً على الرجل.

شخص معين أو إضفاء البركة على رجل بالمسح على وجهه أو إهدائه بعض عنزات عفراوات فينجو وأسرته الخاصة (النووية) من أي جدب يصيب القبيلة أو قصعة صغيرة بها قليل من الطعام تشبع بضعة عشر رجلاً عدة أيام أو إخراج الشيطان خَنْزَب من صدر مسلم فلا ينسى بعد ذلك آية واحدة مما حفظه من القرآن، أو إزالة غُدَّة بيد رجل تمنعه من تناول خُطام راحلته أو رفع داء من لسان آخر فينطلق بالبيان والفصاحة أو إظهار نور ساطع في وجه ثالث ثم يتحول إلى رأس سوطه فيبدو للرائين كالقنديل المعلق.

أو المجّ في الماء فيثبت شاربوه على الإسلام ولا يرتدّون عنه في حين يفعل جيرانهم ذلك ويتبعون مسيلمة متنبئ بني حنيفة الذي سمّاه محمد بـ ــ مسيلمة الكذاب ــ وتكررت أكثر من مرة معجزة إنزال المطر بعد أن ضربت السَنَة البلاد وأضرت بها وبالناس والبهائم وذلك بمجرد مخاطبة السماء بالدعاء مع ممارسة طقوس معينة منها على سبيل المثال رفع اليدين عالياً حتى يظهر بياض الإبطين وتحويل الرداء أو قلبه من جهة إلى أخرى وأداء صلاة معينة ويُستحب أن تكون في الخلاء... الخ[٤٤].

وإذا زاد الغيث وانقلب إلى سيل يصيب بالأذى والضر البشر والزروع فيمكن بدعاءٍ آخر وقفه وترحيله إلى مكان آخر أو تفجّر الماء من الأصابع ــ عند قلته وشدة الحجة إليه ــ عيوناً يرتوي منها العشرات ويأخذون منها أيضاً ما يحتاجونه ماء لغير السقيا وهي أغراض عديدة، وإذا كانت البئر شحيحة ضنينة فإن إلقاء سبع ــ حصيات بعد الدعاء فيها ــ يحوّلها إلى بئر دفاقة بالماء، والمسح على

(٤٤) تسمى صلاة الاستسقاء وهي مما اقتبسه الإسلام من الفترة السابقة عليه وكان عبد المطلب جد محمد المباشر يؤم الناس في دعاء الاستسقاء.

وجه المعاند ووضع اليد ــ على صدره يقلبه إلى مؤمن يضيء وجهه بالإيمان حتى لو دخل بيتاً مظلماً لـ أضاءه وشفاء المجنون من جنونه وأربعمائة مسافر يأخذون زوادتهم التي تكفيهم في سفرهم من فضلة من تمر لا تُغني شيئاً لضآلتها وبعد أن يستوفوا حاجتهم منها تعود كما كانت دون أن تنقص تمرة واحدة. أو أخبار رجل بأن جاريته التي تركها حاملاً قد وضعت مولوداً وذكراً بالتحديد وأن لونه أسفع أحوى لأن أباه به بَرَص في جسمهُ يخفيه عن أعين الناس ولا يعلم به أي مخلوق.

ولكن مع وجود هذا العدد الكثير من المعجزات ومع تنوعها ورغم ثبوتها في مصادر تراثية لا يرقى إليها الشك فإن غالبية الباحثين المُحْدَثِيْن تغضّ الطرف عنها ولا تعيرها التفاتاً[٤٥]. وهذه العبارة للمحقق الأستاذ/ السيد أحمد صقر وهو من الباحثين المُحدثين بيد أنه يستدرك قائلاً (أوردوا فيها أخباراً كثيرة لم يميزوا صحيحها من سقيمها).

والطعن في صحة الأحاديث والأخبار لتوهين حجة الخصم حيلة معروفة ذلك أنه ليس من الصعب التشكيك في حديث أو خبر ولذلك طرق عديدة منها القدح في أحد رواة الحديث بأي طريق كالقول بأنه من الذين اشتغلوا بالفقه وحفظ الآراء وأغضوا عن حفظ السنن ومعانيها أو أنه ليس من فرسان هذا العلم أو أنه اختلط بآخره (أي طال عمره حتى ضعفت ذاكرته) ومنهم من غلب عليه الصلاح والتقوى ولكنه غفل عن الحفظ والتمييز ومنهم

(٤٥) **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، أبو أحمد بن الحسين البيهقي، بتحقيق السيد أحمد حنفي صقر، الجزء الأول، ص ٤٨٢، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م.

من كتب الحديث ورحل فيه إلا أن كتبه قد ذهبت فلما احتاج إليه أخذ يحدّث دون حفظ ومنهم المبتدع الذي يدعو الناس إلى بدعته.. الخ[٤٦].

وقد أورد ابن حبّان البستيّ في كتاب (المجروحين من المُحْدِّثين والضعفاء والمتروكين) أسماء المئات من رواة الأحاديث منهم من يُعد من الأئمة الأعلام مثل مقاتل بن سليمان البلخي وهو من أئمة المفسرين حتى إن الشافعي قال في حقه: الناس عيال في التفسير على مقاتل وقال عنه مقاتل بن حيان: ما وجدت علم مقاتل ابن سليمان إلا كالبحر ومع ذلك يرى البُسْتيّ أنه فاسق فاجر ويضيف أن الكلبي كان يُحلّ دمه.

ومثل النعمان بن ثابت (أبي حنيفة) رأس المذهب الفقهي المشهور الذي قلّدته ويقلده ملايين المسلمين في مختلف البقاع يجرّحه البُسْتيّ تجريحاً عنيفاً ويصفه بأنه داعية لبدعة الإرجاء وأنه كفر ولكنه استتيب من الكفر مرتين ومثل محمد بن الحسن الشيباني وهو من أنبغ تلاميذ أبي حنيفة والذي لولا مؤلفاته لما كان لمذهب الأحناف هذا الحضور الباهر ولو أنه ما خلّف غير (كتاب السيّر الكبير) وحده لكفاه، هذا الفقيه العلم يرى أن ابن حبّان البُسْتيّ أنه غير ثقة ولا مأمون بل إنه كذاب.

أما ابن حجر العسقلاني صاحب كتاب (فتح الباري في شرح صحيح البخاري) قد ألّف رسالة صغيرة بعنوان (طبقات المدلّسين) أورد فيها أسماء الموصوفين بالتدليس، يتولاك العجب إذ تقرأ من بينهم عدداً كبيراً من الأئمة الأعلام منهم: الحافظ أبو نُعيم صاحب

(٤٦) محمد حبّان البُسْتيّ: **كتاب المجروحين من المُحَدِثين والضعفاء والمتروكين**، تحقيق محمود إبراهيم زايد، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ، دار الوعي، حلب.

حلْية الأولياء، أيوب السختياني الذي روى أحاديث أخرجها عنه الدارقطني والحاكم النيسابوري/ شياك الضبّي من مشاهير أهل ـــ الكوفة ـــ وصاحب إبراهيم النخعي وطاووس بن كيسان التابعي المشهور وعمرو بن دينار المكيّ التابعي الثقة المشهور، مالك بن أُنس رأس مذهب المالكية، الإمام البخاري صاحب الصحيح الذي يوصف بأنه أصح كتاب بعد القرآن، مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح التالي في المرتبة لصحيح البخاري، موسى بن عقبة المدني من التابعين الصِغار وهشام بن عروة بن الزبير بن العوام حفيد الصحابي الزبير بن العوام أحد العشرة المُبشّرين بالجنة وعروة من التابعين الصغار، وإبراهيم بن زيد النخعي من التابعين ومن أشهر فقهاء الكوفة وأستاذ أبي حنيفة رأس مذهب الأحناف والحسين البصري من سادات التابعين وإمام طبقّت شهرته الآفاق وحماد بن أبي سليمان الكوفي الفقيه المشهور وسفيان بن سعيد الثوريّ الفقيه العابد الحافظ الكبير وسفيان بن عُيينة فقيه الحجاز في زمانه، وسفيان الطيالسي أحد الثقات، وسليمان الأعمش مُحَدِّث الكوفة وقارئها وشريك النخعي القاضي المشهور وعبد الرزاق الصنعاني الحافظ المشهور وعكرمة بن خالد المخزومي وهو تابعيّ مشهور ونكتفي بهؤلاء منعاً للإطالة[٤٧].

كما صنف السيوطي رسالة صغيرة عنوانها أسماء المدلّسين ذكر فيها أيضاً عدداً وفيراً من الأئمة والفقهاء ممن لهم شهرة واسعة منهم: إِسماعيل بن أبي يحيى شيخ الشافعية وحجاج بن أرطأة، حفص بن غياث الكوفي، سعيد بن أبي عروبة، طلحة بن نافع بن

(٤٧) **طبقات المدلّسين**، ابن حجر العسقلاني، تحقيق د. محمد زينهم محمد عزب، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، دار الصحوة، القاهرة.

سليمان، عبد الله بن لهيعة، عمرو بن عبد الله أبو اسحق، قتادة، محمد بن شهاب الزهري، وهشام بن عروة، الوليد بن مسلم، هشام بن كثير، يحيى بن سعيد الأنصاري ــ وغيرهم ــ ومن بين هؤلاء وغيرهم من الأئمة ممن لم نورد إسمه يقول عنه السيوطي مشهور بالتدليس، أو مُكْثر للتدليس أو شهير بالتدليس[٤٨].

وإذا سلم رواة الأحاديث كأشخاص من التجريح وأفلتوا من النقد فإن الخصم لا يهدم ما يطعن به على الحديث أو الخبر فيأتي له من «السلسلة» حتى يجد فيها علّة تقدح فيها فيدّعي أن أحد الرواة لم يقابل من نقل عنه أو حتى لو لقيه كان في سن لا تؤهله للحفظ أو أن أحد رواته «مستور الحال» ورغم أنه وصف لا يشي بالمذمة ولا ينبئ عن التجريح إلا أن:

«المحقّقين من الأصوليين مُجمعون على ردّ كل رواية عن مستور الحال دفعاً للمفسدة فلا بد من تعديله والكشف عما يمكن من دخائله وإن كان التوغل في الكشف عن سريرته ليس من عمل المحدّثين في شيء»[٤٩].

والكشف عن سرائر الناس منهيّ عنه وهو ليس من عمل المحدّثين ولا غير المحدّثين لأن السرائر موكول أمرها إلى الله ولكن من يريد أن يعيب الخبر أو الحديث يقف عند «مستور الحال» ويرفض روايته طالباً من خصمه ضرورة الكشف عن حاله.

ونحن لسنا بصدد كتابة بحث في (الحديث) ولكن ما قصدنا إليه أن معجزات محمد العديدة وقد وردت في أخبار وأحاديث

---

(٤٨) **أسماء المدلّسين**، السيوطي، تحقيق د. محمد زينهم محمد عزب، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، دار الصحوة، القاهرة، والرسالتان يضمهما كتاب واحد.

(٤٩) **علوم الحديث ومصطلحه**، د. صبحي الصالح، ص ١٣١، الحادية عشرة ١٩٧٩م، الطبعة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م، دار العلم للملايين، بيروت.

فإن من الميسور من يبغي أن يغضّ الطرف عنها خاصة من الكتّاب المُحْدَثين أن يلجأ إلى التشكيك فيها ولا يعدم أن يعثر على ضالته في الخبر أو الحديث الذي يحكي عن معجزة ومما يسهّل عليها مأموريته أن هناك ما يقرب من أربعين نوعاً من الحديث لا يزيد المقبول منها على خمسة أنواع أما الباقي منها فهو موضع شك مثل المقطوع والمُعضل والمُعلّق والمتروك والمنسوخ والغريب والمُعَلّل والشاذ والمدلّس والمضطرب والمقلوب والنازل وأخيراً الموضوع(٥٠). إذن من المتوقع مواجهة أخبار المعجزات بأنها وردت في أحاديث والأحاديث فيها مما ذكرناه باختصار وصولاً إلى نفيها واعتماداً على أن معجزة محمد الوحيدة هي القرآن وهذا منهج غير سديد من عدة وجوه.

أولاً: أن حدوث تلك المعجزات لمحمد بقصد تأييد نبوته وتدعيم رسالته لا يضاد معجزة القرآن ولا يتعارض معها فهما مجالان مختلفان ولكنهما غير متنافرين بل يعاضد أحدهما الآخر فإذا كانت المعجزات التي ذكرها يمكن أن يُطْلَق عليها مادية أو عيانية أو حسّية فإن القرآن معجزة معنوية بيانية، وإذا كان القرآن ساهم في دخول الناس أفواجاً مؤمنين بنبوة محمد فإن تلك المعجزات قامت بدور متميز في إيمان العديد من القبائل خاصة وأن توقيت حدوثها كان حصيفاً أريباً وهذا ما سوف نتناوله بعد قليل.

والعرب كما وصفهم محمد بحق أمة أمية ــ حقيقة أنهم كانوا أهل لَسَن وفصاحة ولكن هذا الوصف ينصرف عادة إلى أهل المَدَر أي أهل الحواضر مثل مكة والطائف ويثرب واليمامة ولا نقصد

(٥٠) شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، **علم الحديث**، تحقيق وتعليق موسى محمد علي، ص ٧٧، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، دار الكتب الإسلامية، القاهرة.

باللَسَن والفصاحة البلاغة والتشدق بالكلمات الرنانة وربما الغربية ولكن نعني الثقافة الواسع بمجاليها المتنوعة وتجلياتها المختلفة فهذه كانت متحققة في أهل المدن أو القرى بحسب تعبير القرآن، في حين أن أهل البوادي أو أهل الوبر كانت فيهم الأمية فاشية والبداوة غالبة والجفاوة متمكنة ومَن كان هذا شأنه تبهره المعجزة المادية الحسّية أكثر مما تقنعه المعجزة المعنوية ولذلك لم يكن مصادفة أن يتوافق ظهور المعجزات المادية مع عام الوفود وهي السنة التي رمت فيها قبائل البوادي بأفلاذ أكبادها وأرسلتهم إلى محمد بأثرب ــ ليتحسسوا خبره ويسبروا غوره ويعرفوا ما عنده ــ فمقابلة هؤلاء الوافدين بالمعجزات المادية وبشتى ضروبها ومختلف أشكالها أمر مقرر ومحسوب وكان له أثره البالغ في دفع هذه القبائل إلى التصديق بمحمد ونبوته ــ ورسالته.

فالبدوي الأعرابي الذي يرى أمام عينيه الغيث ينزل فور التوجه للسماء بالدعاء بالإضافة إلى طقوس أخرى والذي يجد البئر الشحيحة تفيض بالماء الغزير إثر إلقاء حصيّات سبع بورك عليها أو فيها أو الذي يُفاجأ بوافده يتلألأ النور في عينيه ذبابة سوطه أو من يدخل خيمة مظلمة فيضيء كل ركن فيها والذي يسمع ممن أرسلتهم قبيلتهم إلى محمد بيثرب، أنهم وهم بضع مئات أخذوا كفايتهم من الزاد من حُفنة تمر ثم عادت كما كانت لن ينقص منها شيء والذي يأوب مجنونه وقد غدا عاقلاً وافر العقل بفضل دعوة محمد بالشفاء له والذي يخبره الكبير الوافد أن محمداً ــ قد ــ بشره بولادة أَمَته لهذا الغلام الذي رزق أثناء سفره... الخ وأن ذلك ما حدث بالفعل حتى صفة المولود... وهذا الأعرابي البدويّ تأخذ هذه المعجزات بلبّه أكثر مما يبهره نص بياني. ولا يتعارض هذا مع كون العربي ساكن الحواضر قد وجد في القرآن معجزة،

لأن من عرفهم من شعراء وخطباء وبلغاء عجزوا عن الإتيان بسورة أو حتى آية مثل سوره وآياته.

إذن فالإصرار على نفي المعجزات المادية اكتفاء بالمعجزة البيانية أمر غير مفهوم لأنه غير منطقي كما أن فيه إهداراً للدور الذي لعبته المعجزات الحسّية العيانية والتي كانت ــ بجانب عوامل أخرى ــ من أهم العوامل في دخول القبائل دين محمد والإيمان به فالمتجاهلون لها لا يستطيعون أن يحللوا الكثافة العددية التي حدثت في مجال المعجزات المادية في عام الوفود بالذات، فلقد مكث محمد قرابة ثلاثة عشر عاماً في مكة ولم تدوّن كتب السيرة أنه أتى بمعجزة واحدة ــ بخلاف معجزة انشقاق القمر التي جاء ذكرها في أول آية من سورة القمر والتي أكدتها كتب السُنّة المعتمدة مثل صحيح البخاري ومسند أحمد وسنن البيهقي في روايات متواترة من طرق شتى، ومن الغريب أن المُحَدثِيْن المُعْرِضيْن عن المعجزات العيانية المادية تغصّ حلوقهم بهذه المعجزة المادية ــ معجزة انشقاق القمر التي ثبت بالقرآن والأحاديث الصحيحة المتواترة فعلى سبيل المثال نجد سيد قطب ــ رحمه الله بعد أن أورد عدة روايات عنها على لسان بعض كبار الصحابة مثل عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس يقول:

> «ومن ثم ثبت الحادث ــ حادث انشقاق القمر ــ بالنص القرآني وبالروايات المتواترة التي تحدد مكان الحادث وزمانه وهيئته ونتوقف في تعليله الذي ذكرته بعض الروايات ونكتفي بإشارة القرآن إليه مع الإشارة إلى اقتراب الساعة باعتبار هذه الإشارة للقلب البشري ليستيقظ ويستجيب»(٥١).

(٥١) **في ظلال القرآن**، سيد قطب، في تفسيره سورة القمر، المجلد السادس، الطبعة الشرعية الحادية عشرة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، دار الشروق، مصر.

سيد قطب يتوقف ولا يؤيد التعليل الذي ذكرته بعض الروايات والذي يتلخص في أن أهل مكة ــ طلبوا من محمد بإلحاح ــ أن يريهم آية تدلّ على نبوته فانْشق القمر فلقتين كل فلقة على جبل ومع ذلك لم يؤمنوا وقالوا: هذا سحر ابن أبي كبشة وهو لقب كانوا يطلقونه عليه استهزاءً به أي لا يؤيد الرأي القائل إن هذه المعجزة المادية وقعت لإقناع المكيين بصدق محمد ونبوته أي أنه نبي مرسل من عند الله وكل ما فيها أنها:

«آية كونية يوجه القرآن الأنظار إليها كما يوجهها دائماً إلى الآيات الكونية الأخرى ويعجب من موقفهم تجاه آيات الله الكونية الأخرى»[٥٢].

وهو تعليل غير مقبول إذ في وجود الآيات الكونية الأخرى ما يُغني عنها، وإذ كان الأمر كما ذهب إليه سيد قطب فلماذا لم تتكرر مرة أخرى؟

وبنظر سيد قطب أن «كل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل ــ صلوات الله عليهم قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم وإن كان لا يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الخوارق»[٥٣]. ــ أي أن الخوارق (المعجزات) التي ظهرت على أيدي الرسل كانت بسبب أن البشرية لم تبلغ ساعتها الرشد والنضج!!! ــ ومع التحفظ الشديد على المقولة التي تتردد على أقلام كثير من الباحثين المُحْدَثِيْن ــ وليس سيد قطب وحده ــ إن البشرية لم تبلغ رشدها ونضوجها إلا في الربع الأول من القرن السابع الميلادي وفي منطقة محددة هي

(٥٢) المرجع نفسه.
(٥٣) المرجع نفسه.

الحجاز، والتي تعني أن البشرية في ظل الحضارات كلها من حضارة مصر القديمة حتى الحضارتين الرومانية والفارسية (اللتين عاصرتا ظهور الإسلام) وما أبدعته جميعها من علوم وثقافات وفنون وآداب، كانت (= البشرية) قاصرة نقول مع التحفظ الشديد على هذه المقولة التي نرى أنها من المدح الفج الذي يضر الإسلام أكثر مما يفيده: فهل كان أهل فلسطين ــ وقت ظهور المسيح ــ أشد قصوراً عقلياً وأكثر بدائية من القبائل المنعزلة في جوف الجزيرة العربية مع أن أهل فلسطين كانوا وقت ذاك على اتصال بكل الثقافات المحيطة بهم ــ اليونانية والرومانية والمصرية والبابلية والأشورية فضلاً عن أنهم كانوا (أهل كتاب) وهم بنص القرآن أرقى عقلية من (الأميين) الأعراب البدو[٥٤].

وبعد هذه الاستطرادة نعود إلى المعجزات الحسّية:

لماذا اختفت هذه المعجزات بعد انشقاق القمر طوال إقامة محمد بقرية القداسة في مكة والتي بلغت ثلاثة عشر عاماً هل لأنهم ردّوا عليه فوراً أن ذلك من أعمال السحر والشعبذة والتخيل؟

أم لأنهم وهم على قدر أوفر من الثقافة من أهل البوادي وساكني الخيام لم تفلح المعجزة الحسّية رغم ضخامتها في إقناعهم بنبوة محمد ورسوليته؟

أياً كان الأمر فإنه من المؤكد والثابت من المؤلفات التي تناولت

---

(٥٤) لأخذ فكرة سريعة عن ثقافة أهل فلسطين وقت بَعْث عيسى بن مريم رسولاً يمكن الرجوع إلى المقدمة أو أورشليم القدس من كتاب: «**ابن الإنسان حياة نبي**»، تأليف إميل لودفيغ، ترجمة عادل زعيتر، الطبعة الأولى ١٩٤٧م، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

سيرة محمد الثَرّة ــ أنه كفّ عن الإتيان بالمعجزات العيانية بعدها ــ كما أنه طوال مكوثه في يثرب/ المدينة لم تظهر على يديه معجزات من هذا النوع مع الوضع في الحسبان أن أهل يثرب/ المدينة أرقى عقلياً من الأعراب الضاربين في الصحراء لأسباب عديدة من بينها أنهم من أصل يمني وكانت في اليمن حضارة متميزة بل تعتبر الحضارة الوحيدة التي ظهرت في الجزيرة العربية ومنها أن اليثاربة كانوا يتاجرون مع غيرهم سواء في الداخل أو الخارج وطرق القوافل تحيط بهم وثالثها مجاورة اليهود لهم واليهود أهل كتاب وفيهم علماء كما حكى عنهم القرآن.

قد يقول قائل إن اليثاربة أدنى حضارة من المكيين وهذا صحيح ولكن مما لا يماري فيه أحد أنهم (اليثاربة) أصحاب ثقافة ومدارك وأنهم بذلك أرقى من البدو. وتبلغ مدة مكوث محمد في قرية يثرب/ المدينة عشرة أعوام وبضعة أشهر لم تقص علينا كتب سيرته خبر حدوث معجزة يُعتدّ بها إبانها. لكن عندما بدأت القبائل القاطنة في جوف الجزيرة وحوافيها ترسل وفودها إليه عادت إلى البروز المعجزات الحسّية وزادت كثافتها حتى إنه يمكن القول دون تجاوز كبير أن أغلب الوافدين قوبلوا بمعجزة وكثيراً ما تتوافق المعجزة إما مع احتياجات القبيلة مثل إنزال المطر لدرء مخاطر الجفاف أو إغزار ماء البئر الشحيح أو وصف أرض القبيلة ووصف من شاهدها وعاش فيها (أرض هجر) وفي هذا إرواء لعاطفة الخيلاء لدى الأعرابي أو تلبي طلبات فردية لكبير في الوفد مثل رفع الغدة التي تمنعه من إمساك خُطام الناقة أو شفاء قريب من الجنون أو الدعاء لولده أو تبشير بغلام زكي ولد له من أمَة تركها حُبْلى أو يحقق مطلباً للوفد كله وأشهرها زوادة الأربعمائة راكب من حفنة من التمور عادت بعدها كما كانت دون نقص.

إذن ظهور المعجزات وكثرتها مع وصول الوفود وحدوثها تقريباً لغالبيتهم ملحظ بالغ الأهمية يدعو إلى الإعجاب لأن هؤلاء الوافدين ما هم إلا رسل لقبائل الجزيرة التي تتسم بالبداوة والجفاوة والأمية والجهالة ممن لا تمس شغاف قلوبهم الغليظة ولا تحرك عقولهم الجوامد إلا المعجزات المحسوسة الملموسة، فعندما يرجع الوافد إلى المضارب ومعه المعجزة مثل إضاءة ذُبابة السوط أو الغرة في الجبين أو الحصيات السبع حاملات الريّ أو العنزات المباركة أو العاقل الكامل العقل الذي كان مجنوناً مطْبقاً ــ أو يعود الرسل ومعهم أخبار المعجزات التي حدثت مثل ولادة الغلام أو الإعلام بحدوث السرقة وردّ المسروق أو بوقوع الهزيمة لديهم وساعة حدوثها أو تأكيدها أن الغيث الذي نزل عليهم في اليوم المحدد كان بفضل الدعاء: دعاء محمد لهم... الخ.

عندما يتحقق ذلك كله لا يكون مفاجأة أن يندفع أفراد القبائل إلى الدخول في الإسلام أفواجاً وهو ما سجّله القرآن في سورة (النصر) ولذا فإن عدد من اْعتنق الإسلام بعد عام الوفود يعتبر أضعاف أعداد من أسلم قبل ذلك وهكذا حققت المعجزات المادية الحسّية الغاية بل وأوفت عليها ــ وليس معنى ذلك أننا نبخس من قيمة العوامل الأخرى التي ذكرناها والتي ساعدت في دخول القبائل الإسلام ــ وكما كان للقرآن ولا زال دور فعّال في إقناع الكثيرين بصدق نبوة محمد فبالمثل فعلت ذلك المعجزات العيانية التي وقعت في عام الوفود، إذن هما أمران متمايزان ولكنهما ليسا متباينين.

إن تجاهل المعجزات العيانية أو الحسّية بالتشكيك في الأخبار أو الأحاديث التي ترويها يندرج تحت باب الهجوم على السُنّة ــ

والسُنّة هي المصدر الثاني وهي التي بيّنت ما أجمله القرآن وفصّلته مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج ــ وهي في رأينا (ديوان الإسلام) كما كان يوصف الشعر السابق على الإسلام (يسمونه الشعر الجاهلي) بأنه (ديوان العرب) ومن يريد معرفة حقيقة الإسلام فعليه يكتب الأحاديث ومؤلفاته السيرة النبوية التي تمثل الجانب التطبيقي ــ فضلاً عن أنها جاءت بتشريعات لم ترد في القرآن منها على سبيل المثال رجم الزاني المحصن وتحريم الحُمُر الأهلية وتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها.

والنص صريح في القرآن ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾(٥٥). وسوّى بين الطاعتيْن ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾(٥٦).

وسُنّة رسول الله ــ ص ــ لها مكانتها بالنسبة للقرآن ولها مكانتها بالنسبة للتشريع إنها المصدر الثاني بعد القرآن للإسلام(٥٧).

وتقبل المسلمون السنة من الرسول ــ ص ــ كما تقبلوا القرآن الكريم استجابة لله ورسوله لأنها المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم بشهادة الله عز وجل ورسوله(٥٨).

ويؤكد الشيخ محمد أبو زهرة ذلك: (عُني المسلمون منذ

---

(٥٥) **القرآن الكريم**، سورة الحشر، الآية ٧.

(٥٦) **القرآن الكريم**، سورة المائدة، الآية ٩٢.

(٥٧) الشيخ عبد الحليم محمود، **السُنّة في مكانتها وفي تاريخها**، ص ٢٠٦، الطبعة الأولى ١٩٦٧م، دار الكتاب العربي، القاهرة، العدد ١٦٦، من المكتبة الثقافية.

(٥٨) **السُنّة قبل التدوين**، د. محمد عجاج الخطيب، ص ٢٥، الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دار الفكر، بيروت.

العصر الأول بنقل أقوال النبي ــ ص ــ وأفعاله وتقريراته نقلاً)[٥٩].

والمعجزات الحسّية أو المادية التي ظهرت على يد محمد لا شك تدخل ضمن ذلك وبالتالي تكون مما عُنيّ المسلمون منذ العصر الأول بنقله ــ فلا مبرر إذن لتجاهل تلك المعجزات وقد ثبت نقل المسلمين الأول لها ــ وإنكار السُنّة داء قديم ظهر مبكراً فقد أورد الشافعي في كتابه «الأم» مناظرة حدثت بينه وبين أحد منكري السنة فنّد فيها حِجَجه وكشف له عن وهَنها وتهافتها حتى أقتنع أخيراً بأن (قبول خبر الرسول قبول عن الله)[٦٠].

ويرجع تجاهل المُحَدَثِيْن ــ على وجه الخصوص ــ لأخبار المعجزات المادية وتوقفهم عندها كما فعل سيد قطب فيما رأيناه سابقاً ــ إلى أن هذه المعجزات فيها كَسْر للنواميس الطبيعية وخَرْق لقوانين الكون التي سار ويسير عليها منذ آلاف السنين وهذا في نظرنا مصادرة على المطلوب إذ لولا قيامها بذلك لما سُمّيت معجزات آناً وخوارق آناً آخر فضلاً عن أنهم بذلك يفتقرون إلى ما نسميه الحاسّة التاريخية أي أنهم ينسون أو ربما يتناسون أن تلك المعجزات أو الخوارق حدثت منذ أربعة عشر قرناً حيث كانت كل الظروف مختلفة اختلافاً جذرياً: الثقافية والحضارية والعقلية والفكرية والمعرفية والإدراكية الخ. وكان هناك إيمان بالعين والحسد والسحر وأثر الرُقى والتعاويذ في شفاء الأبدان ــ فلماذا لا يشككون في الأحاديث والأخبار والآثار التي حملت إلينا هذه الأمور

(٥٩) **أصول الفقه**، الشيخ محمد أبو زهرة، ص ٨٣، بدون تاريخ، دار الفكر العربي، القاهرة.
(٦٠) **السُنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي**، د. مصطفى السباعي، من ص ١٥٣ ــ ١٥٩، الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م، مكتبة دار العروبة، القاهرة.

ويسلّمون بها ويتغافلون عن التي نقلت المعجزات الحسّية:

«حدثني معبد بن خالد قال سمعت عبد الله بن شداد عن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرني رسول الله أو أمر أن يُسترقى من العين»[٦١].

«عن عروة بن الزبير عن زينب ابنة أبي سلمة عن أم سلَمة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في بيتها جارية في وجهها سَفْعة فقال: استرقوا لها فإنّ بها النظرة»[٦٢].

«أخبرنا عيسى بن يونس عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلُ من بني رُزيق يقال له لَبِيْد بن الأعصم حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخَيّل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة هو عندي لكنه دعا ودعا، ثم قال: يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه أتاني رجلان قعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مَطبُوب، قال: من طَبّه؟ قال: لَبِيْد بن الأعصم فقال في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان فأتاها رسول الله ــ ص ــ في ناس من أصحابه فجاء فقال: يا عائشة كأنّ ماءها نقاعة الحناء أو كأن رؤوس نخلها رؤوس شياطين، قلت يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني الله فكرهت أن أثوّر على الناس فيه شراً فأُمر بها فدُفِنت»[٦٣].

«وقال الليث وابن عيينة عن هشام: في مِشْط ومَشَاقة، يقال المِشَاطة ما يخرج من الشعر إذا مُشّط والمَشَاقة من مَشَاقة الكتّان ــ ونرجّح لفظة «المِشَاطة» لأن الشَعْر والأظافر وكذلك صِمْاخ الأذن... الخ

(٦١) رواه البخاري في **صحيحه**، في كتاب الطب.
(٦٢) رواه البخاري في **صحيحه**، في كتاب الطب.
(٦٣) رواه البخاري في **صحيحه**، في كتاب الطب.

ملحقات الإنسان أو الأجزاء التي كانت تكون قطعة منه ثم قُلّمت أو نُظّفت منه فانفصلت عنه لذلك تحرص كثير من شعوب العالم على المحافظة الشديدة عليها لأن لها صلة وثيقة بشخصية صاحبها ويُخشى أن تصل إلى يد عدوه فيستطيع أن يمارس سِحْراً ضاراً بواسطتها»[٦٤].

وقد ورد في هذا الحديث أن (العمل) ونقصد هنا مفهومه الشعبي الذي (عمله) لبيد بن الأعصم ليسحر به محمداً قصداً قد وُضع في بئر ذروان وهو بئر في بني رُزيق ومن المعتقدات الشائعة لدى كثير من الشعوب خاصة في مراحلها الأولى أن البئر (مسكون بِجنيّ أو روح شريرة تبتلع الناس أو الأشياء)[٦٥].

وأورد الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري تكملة للحديث:

«وفي رواية عمرة عن عائشة فنزل رجل فاستخرجه... وجد في الطلعة تمثالاً من شمع، تمثال رسول الله ــ ص ــ وإذا فيه إبر مغروزة وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة، فنزل جبريل بالمعُوذّتين فكلما قرأ آية اِنحلت عقدة وكلما نزع إبرة وجد ألماً ثم بعدها راحة... وفي حديث ابن عباس نحوه... وفي حديث زيد بن أرقم... فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين وفيه فأمره بأن يحل العقد ويقرأ آية فجعل يقرأ ويحلّ حتى قام كأنما نشط من عقال»[٦٦].

ومما يلفت النظر أن مثل هذه الطقوس ما زالت موجودة لدى

---

(٦٤) **علم الفولكلور**، محمد الجوهري، الجزء الثاني، دراسة المعتقدات الشعبية، ص ٥٧٧، الطبعة الأولى ١٩٨٠م، دار المعارف، مصر.

(٦٥) المرجع ذاته، ص ٧٤.

(٦٦) العسقلاني، الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، إخراج وتصحيح محب الدين الخطيب وآخرين الجزء العاشر، ص ٢٤٩، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ، المطبعة السلفية ومكتبتها، الروضة، القاهرة.

الطبقة الشعبية ويطلق عليها (فكّ العمل) ومن الغريب أن رجال الدين[٦٧] المتحذلقين ينهون أفراد الطبقة الشعبية عن ممارسة مثل هذه (الطقوس) ربما لجهلهم أن لها أساساً من السيرة النبوية والأحاديث الصحيحة التي نقلها أهم دواوين السنة.

الأحاديث الثلاثة التي ذكرناها آنفاً أثبتها البخاري في صحيحه الذي هو أول كتب السنة الصحاح ويُقال عنه إنه أصح كتاب بعد القرآن والذي لا يماري مسلم سُنّي في قدره وجلاله ولا يجرؤ على التشكيك في أي حديث ورد به. هذه الأحاديث جاء بها ذكر العين والسحر والاسترقاء من النظرة الشريرة التي تصيب (المعيون) بالأذى في بدنه، وكذلك استخراج (العمل) الذي وضعه الخصم أو العدو في قرار مكين والشفاء بعد ذلك فوراً، كل هذا يحدث وقد بلغت البشرية رشدها وخلعت عنها قصورها العقلي والفكري والمعرفي والإدراكي بشهادة المُحْدَثِيْن منهم على سبيل المثال سيد قطب كما سبق وأوضحناها، إذن فلماذا تغص حلوقهم بالمعجزات الحسّية المادية في حين يقبلون الأحاديث التي أكدت على السحر والعين والإسترقاء من ضرها وأذاها؟

إنها تفرقة تحكمية لا تستند إلى معيار علمي موضوعي أما الحجة الهشّة المتهافتة وهي بلوغ الإنسانية سن رشدها مما يدعو لرفض الاعتقاد في معجزات الحس، هذه الحجة الرخوة سبق لنا أن فندناها وكشفنا عن هشاشتها ورخاوتها، ومن الغريب أنه لا القرآن ولا النبي محمد قد طعن في عقلية البشرية السابقة عليه ولم يوهن

(٦٧) يحلو لهم كثيراً أن يطلقوا على أنفسهم (علماء الدين) بحجة أن الديانة الإسلامية تخلو من «رجال الدين» وهذا وهم شائع لأنه لا يوجد دين حتى ولو كان أرضياً أو غير كتابي أو غير سماوي أي لا ينتسب إلى الوحي إلا وفيه «رجال دين».

من قدر الرسالات السوابق عليها أو يحقّر من شأنها بل على العكس أعطاها حقها من التكريم وأمر بعدم التفرقة بينهم ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾[٦٨] و﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾[٦٩] و﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾[٧٠] و﴿الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾[٧١]، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يتوافق مع المنطق والحس السليم أن هؤلاء الرسل الذين مجّد القرآن مقامهم قد أرسلوا إلى أمم قاصرة لم تبلغ سن رشدها؟ بل أننا نجد أن لفظة علماء لم ترد إلا مرة واحدة: ﴿أولَم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾[٧٢] فكيف يخرج من أمة قاصرة العلماء؟ إذن لا تعارض للمعجزات الحسية مع بلوغ سن الرشد وبالتالي يغدو التشكيك في حدوثها تشكيكاً في السُنّة (النقل) لا مبرر له.

يقول الفيلسوف الألماني المعاصر أرنست كاسيرر ١٩٧٤/ ١٩٤٥ في مؤلفه الضخم «فلسفة الأشكال الرمزية» إن (الإنسان كائن صانع للرموز) وإذا حملنا هذه الحقيقة إلى الفضاء الديني فسوف نجد في المُتَخيّل الجمْعي للمسلمين صورة رمزية مؤسطرة للنبي محمد لا يستريح إليها فحسب بل هو يتطلبها ويسعى إلى تشكيلها وفي مقدمتها (مقدمة الصورة) القدرة الفذة على إتيان المعجزات وإظهار الخوارق ـ هذه الصورة كانت ضرورية لتحريك وجدان القاعدة الجماهيرية العريضة التي تستهويها الرموز والمجازات

---

(٦٨) **القرآن الكريم**، سورة البقرة، الآية ٢٨٥.
(٦٩) **القرآن الكريم**، سورة الأحقاف، الآية ٩.
(٧٠) **القرآن الكريم**، سورة الزخرف، الآية ٤٥.
(٧١) **القرآن الكريم**، سورة النساء، الآية ١٥٢.
(٧٢) **القرآن الكريم**، سورة الشعراء، الآية ١٩٧.

ولتنشيطها نحو الدخول في الدين الجديد والإيمان بنبوة محمد ورسالته.

في الواقع المعاش كان محمد بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتاجر ويرعى الأغنام ويتزوج ويرزق بذرية ويحارب ويجرح في المعركة... الخ وأكد القرآن على بشريته ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ (سورة الكهف، الآية ١١٠ وسورة فصلت الآية ٦). وفي كثير من أحاديثه كان يكرر أنه بشر وابن امرأة كانت تأكل القديد في مكة وكان يكره أن يتميز عن أصحابه ويرفض أن يقوموا له لأن ذلك فعل الأعاجم مع ملوكها إنما هذه الكينونة البشرية لم تكن تُرضي الذين آمنوا به رسولاً له صلة وثيقة بالسماء فهم يريدون كياناً آخر يغدو في نظرهم رمزاً لتجليات عُلْويّة ومجازاً مُبهراً يغلّف هذه الحقيقة المتعينة أمام أنظارهم والتي تأكل وتمشي وتنام وتمرض وتتزوج مثلهم لا فرق.

إن صُنّاع الرموز «بني آدم» ومبدعيها لا يكتفون بهذه الكينونة المتشيئة أمام حواسهم سمعاً وبصراً ولمساً. تنقصهم الكينونة المرموزة التي تشبع نوازعهم نحو المطلق وتبلّ ظمأ أشواقهم إلى المتعالي، فيقومون بإضفاء الرمز والمجاز على هذه الكينونة التي حقّقت حُلمهم بالاتصال بالسماء حيث المطلقية والكمال والتفرد ـ وليس أقرب من المعجزات فهي إحدى الفوارق الحاسمة بين البشري العادي وبين البشري الرسول.

وكان الترميز والأسطورة من الأمور المألوفة في ذلك الوقت وفي تلك البيئة، لقد كان الشعر فيها أهم منتوج ثقافي والشعر كما هو معلوم يعتمد على الخيال والتهاويل والتصاوير المبتدعة وكان العرب آنذاك يقولون إن لكل شاعر ظهيراً من الجن وتكلموا عن وادي

عَبْقَر الذي تقطنه الجن وتكثر فيه ويربطون بين العبقرية والكذب الخالص وليس المقصود منها حكم قيمة ولا له صلة بالأخلاق ولكن المَعْنِيّ هو المزّوق والمموّه والخلاّب الذي يأسر الألباب بالوشي والتلوين وكلها أمور توصل في نهاية المطاف إلى المبعدين عن الواقع المعاش بكل ثقله وزخمه وكثافته والتحليق إلى أفق كله رهافة وشفافية وجمال...

وربما يكون مرد ذلك إلى العيش في بيئة قاسية تتسم بالجهامة والعبوس والصعوبة... وهناك أمر آخر وهو أنه حتى يستقيم أمر الإسلام يتعين سحب عرب الجزيرة من حالة (الجاهلية) التي يعيشونها وإحداث قطيعة شاملة كاملة بينهم وبينها وهي مهمة شديدة العُسْر.

لقد مر عليّ حين من الدهر اعتقدت فيه أن (الجاهلية) كانت تحدياً أيديولوجياً للإسلام وللعلي كتبت ذلك فيما كتبت، كنت مشدود النظر إلى المجابهات السياسية والعسكرية التي حدثت بين محمد بمكة وبين صناديد قريش ثم غيرها من القبائل التي ناوأته، لقد شغلتني تلك المصادمات واستغرقت كل اهتمامي ومن هنا كان اعتقادي أن التحدي أيديولوجي، ولكن بإمعان النظر وبمعاودة الدرس والتحليل تبين لي أن المسألة أعمق من ذلك بما لا يقاس، إذ أن المجابهات العسكرية تُحسم في ميدان القتال والمعارضات السياسية قد تنتهي بالمصالحة كما حدث في «صلح الحديبية». ولكن التحدي الحقيقي من «الجاهلية» كان التحدي الثقافي وهنا ألفت الانتباه إلى أنني أعني الثقافة بمعناها الواسع: طرائق التفكير والكلام حتى التحية العابرة والملبس والمسكن والأحوال الشخصية والقيم القرابية والعلاقات الاجتماعية وأنساق المعاملات (مثال على

ذلك: الربا والنسيئة والتساليف بأنواعها) والانتقالات والتحالفات والمخاصمات... الخ.

كل هذا كان يحتاج إلى سَبْر واختبار وفحص وتدقيق وإعادة نظر وتقييم ووزن بالمقاييس والمكاييل التي جاء بها الإسلام ــ وتتمحور الصعوبة التي ترجع إلى درجة الاستحالة في بعض الأحيان أن هذه الثقافة بفروعها كافة عاشت قروناً وترسّخت وضربت بجذورها في الأعماق فكيف يتأتى اقتلاعها أو تعديلها وتهذيبها وتحسينها في أقل من ربع قرن هو عمر الرسالة المحمدية.

وكثير من الذين خُوطبوا بالإسلام عاشوا (الجاهلية) عقوداً عديدة من السنين بلغت السبعة والثمانين في بعض الأحيان وغالبيتهم وصلوا سن النضج فكيف السبيل إلى تهديم (الجاهلية) بل وتدميرها في نفسهم وإحلال ثقافة أخرى محلها بعد أن تأصلت (الأولى) وتجذرت فيها.

في رأينا أن هذا كان هو التحدي الحقيقي الذي واجهه الإسلام، ولعل هذا ما كان يهدف إليه محمد حصراً عندما قال بعد عودته من إحدى الغزوات (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر).

لقد أدرك بثاقب نظره وبعبقريته الفريدة والتي نعتقد أنّها لم تتكرر في عرب الجزيرة حتى الآن أن استئصال شأفة الثقافة الجاهلية من نفوس عرب الجزيرة وعقولهم وإحلال ثقافة الإسلام محلها هو المهمة الرئيسية والأصلية والجوهرية والتي بدونها يستحيل بلوغ النجاح المنشود واتُخِذت وسائل كثيرة وسُلِكت سبل شتى لتحقيق ذلك ومن بينها اللجوء إلى الترميز والأسطورة والمجاز في شخص حامل الثقافة الجديدة، ولا يُفهم من هذا أن هذه العملية (الترميز

والأسطرة والمجاز) تمت عن وعيّ وتخطيط وترسيم فالقائل بهذا يجهل الآيات التي يشتغل بها (الخيال الجمعي)، هذه العملية تتم من طريق اللاشعور وهناك فرق بين اللاوعي واللاشعور فالأخير جزء من الوعي ولكن الذي تتولاه أو تتولى تحقيقه آليات أخرى خلاف تلك التي تعمل في حالة الوعي، ويخبرنا علم نفس الشعوب أن اللاشعور مع ذلك يقوم بدور لا يقل عن ذلك الذي يلعبه الوعي.

إذن نعود إلى عملية الترميز والأسطرة والمجاز لنقرر أنها وُظفت توظيفاً شديد التأثير في محو الثقافة (الجاهلية) وربما يصبح من الأدق تغييبها لصالح الثقافة الجديدة ــ هذا ما حدث فقد غطّت الثقافة الجديدة الثقافة الأولى «الجاهلية» التي ظلت غائرة في الأعماق ولما أُتيحت لها الفرصة برزت إلى السطح وكان لبروزها دور فعّال في الكثير من أحداث التاريخ العربي الإسلامي وهذه نقطة من أهم النقاط التي أغفلها وما يزال يغفلها الذين أرخوا والذين كتبوا في فلسفة التاريخ على السواء ــ والصورة التي تزياها الترميز والأسطرة والمجاز هي المعجزات التي جرت على يد حامل الثقافة الجديدة التي مطلوب بها زخرفة الثقافة الأولى (الجاهلية) حتى يتيقن المخاطبون بـ الثقافة الجديدة من صدقه وصدق رسالته أو صدق ثقافته التي يدعو إلى إحلالها في نفوسهم وذلك بتأكيد اتصاله الوثيق بعوالم غير مرئية، فوق الزمان وخارج المكان تمنحه المقدرة على خرق النواميس التي درجوا عليها هم وآباؤهم مئات السنين.

نعود إلى رافضي المعجزات ومنكريها، هم يفعلون ذلك من طريق التشكيك في الأحاديث والآثار التي روتها والتي حملتها

كتب السُنّة الصحيحة ــ والذي ينتسب إلى الإسلام والإيمان منهم يذكرها بصيغة (التعريض) وينتهي إلى أنه (يتوقف) عندها، أي لا يصدر حكماً عليها، أما الآخرون فهم يرفضونها رفضاً صريحاً، وكلا الفريقين ينسبان موقفهما إلى العقلانية والحق أنها ليست عقلانية بل هي (عقلانوية) كما يطلق عليها إخوتنا المغاربيون لأن العقلانية الصحيحة لا تبتر الظاهرة موضوع الدراسة من سياقها التاريخي والحضاري وتحكم عليها وقد حدثت في القرن السابع الميلادي بمقاييس أواخر القرن العشرين الميلادي، العقلانية الحقة عندما تفحص ظاهرة وحتى يكون حكمها سديداً أو حتى مقارباً للسداد يجب أن تضع في حُسبانها الظروف البنيوية للظاهرة موضوع الدراسة بل والحافّة بل ولو على الهامش وتحللها وترجعها إلى أصولها الأولى وجذورها العميقة ولا تتجاهل تلك الظروف ولا تضرب بها عُرض الحائط ولا تسخر بها أو تهزأ منها ولا تُلقي بها بكل بساطة في مجالات الاستبعاد والنفي والمقاطعة ــ إنها إنْ فعلت ذلك جاء حكمها صائباً والعكس صحيح.

إذن الرافضون لظاهرة المعجزات والخوارق التي حدثت على يد محمد بصفة عامة وفي عام الوفود خاصة والمتوقفون عن إصدار حكم عليها هؤلاء انطلقوا من موقف منافٍ للعقلانية الحقّة وإن اِدّعوا خلاف ذلك.

لعلنا بهذه الأسباب الثلاثة التي سقناها فيما سلف نكون قد أقنعنا القارئ بعدم سداد منهج مقابلة أخبار المعجزات الحسيّة أو المادية إما بالرفض أو بالتوقف.

والمعجزات إحدى العلامات البارزة والشارات المميزة والآيات الواضحة لـ (عام الوفود) حتى أنه يمكن الادعاء بأنك إذا أخليته منها

فإنه لا يحتفظ بسماته ولا يبقى على مقوماته ولا يظل على بنيته ــ بل ويستحيل أن يظل شكله وتستمر آياته وهيئته بالصورة التي طالعنا بها من خلال صفحات كتب السيّر والتواريخ.

ولئن كفّ محمد عن الإتيان بمعجزة أخرى ــ على قدرٍ من الأهمية بعد معجزة شقّ القمر في قرية التقديس مكة فلأنه فطن إلى أن أهلها (المكاكوة) لا تنفع معهم معجزات العيان وخوارق الحسّ أما الوفود الآتية من جوف الصحارى فأمرها مختلف وشأنها مباين ووضعها مغاير ولعل هذا مما يثبت الملحظ الهام وهو أن الوفدة المتحضرين نسبياً تقلّ بشأنهم أو معهم الخوارق وأن المعجزات تسير طرداً مع تبدّي الوافد وبالتالي جفاوة قبيلته.

إذن يمكن أن نتساءل:

هل المعجزات كانت من ضرورات عام الوفود؟

من الجائز أن تأتي الإجابة بـ لا وبـ نعم... دون أي تناقض!!!

كيف؟

لا يتحتم على أي داعية لعقيدة جديدة أن يلقى الوافدين عليه بالمعجزات والخوارق ونواقص السنن الكونية إنْ وصلوا إلى درجة معقولة من التحضير...

أما المتبدّون الذين جفتهم المدنية فإن استقبالهم بالمعجزات والخوارق أمر لازم لا فكاك منه ولا معدّى عنه...

وهذا الملحظ الدقيق يتأكد لدينا إذا تفرّسنا في سيرة ابن مريم كما روتها الأناجيل فإنْ وعظ أو بشّر في مناطق سكانها أقرب إلى البداوة وأدنى إلى الجفاوة أو حتى عندما يدعو أناساً في المدن بدا أنهم على تلك الشاكلة فسرعان ما تقبّ على سطح أفعاله وأقواله

المعجزات والخوارق أما إذا خاطب فرداً أو نفراً أو جمهوراً يتمتع بقدر من الوعي فإنه ينأى عن الأعاجيب والمدهشات ويخاطبهم بالعقلانية ويحاورهم بالمنطق ويجادلهم بالبرهان ويناقشهم بالحجة... الخ لأنه يوقن في قرارة نفسه أن الأسلوب الذي يطرحه على المتبدّين والجفاة لن يجدي معهم فتيلاً بل وربما أثمر نتيجة معاكسة.

ومثال قد قرب هذه الحقيقة إلى الأذهان: (كرامات الأولياء) لا تبعد كثيراً عن (معجزات الأنبياء) والاختلاف بينهما في الدرجة لا في النوع... والذين يؤمنون بالكرامات يؤكدون لك حدوثها أمامهم وليس لديهم ما يمنع من الحلف بأغلظ الإيمان أنهم رأوها بأعينهم ولمسوها بأيديهم ليس بينهم كبير فارق وبين الذين صدّقوا بـ (المعجزات) التي حدثت على أيدي الأنبياء/ المرسلين: وتوضيح ذلك أن الرجال المباركين وأهل الله وأولياءه الصالحين وأرباب الأحوال ـــ لا تظهر كراماتهم في حواضر المدن والعواصم والبنادر... إنما في الأرياف والبوادي والكفور والنجوع والواحات في جوف الصحراوات... الخ.

وعسى بذلك نكون قد اِستطعنا جلاء مسألة المعجزات التي حدثت بقدر من الكثافة في عام الوفود وقدّمنا بقدر الطاقة ما يعاضد على (عقلنة) شأنها وذلك يربطها أولاً بالمكان الذي حدثت به: منطقة الحجاز أو وسط الجزيرة وبالزمان الذي وقعت فيه: العصور الوسطى المتقدمة أو القرن السابع الميلادي وبالبيئة التي ظهرت فيها وهي بيئة متبدّية وبـ المخاطبين بها وهم أفراد قبائل بدوية جافية قسطها من الحضارة معدوم أو شبه معدوم.

ولكن لمَ إذاً الإطالة في هذه النقطة أو الخصوصية؟

لنردّ على صنفين من البُحّاث:

أولهم: الذين يتوقفون عندها فلا يؤيدونها ولا يعارضونها وهم في الحقيقة يرفضونها إنما لا تؤاتيهم الجرأة على التصريح وهي حيلة معروفة في الثقافة الإسلامية.

أما الفريق الآخر: فهم من يتعالون فينكرونها بحجة لا منطقيتها وعدم معقوليتها... فنرد عليهم قائلين إن اللامنطقية وغير المعقولية مسألة والوقوع التاريخي أو التشيء على الأرض والتموضع في الواقع مسألة أخرى.

فنحن الآن على مشارف القرن الواحد بعد العشرين ويوجد عشرات الألوف في الأرياف والبوادي في غالبية الدول العربية يؤمنون بـِ «كرامات الأولياء» ورجال الله وأهل الحقيقة وأرباب الأحوال ويُقسِم الواحد منهم بالله أنه رآها «رؤية العين» ويرمي من لا يصدقها بالكفر والإلحاد والعلمانية.. الخ ويخشى عليه إنْ كانت تربطه به صلة قرابة أن تصيبه لعنة أولئك الرجال الصالحين المقربين إلى الله!

فما بالكم بالبدو الجُفاة الأميين ــ الذين وصفهم القرآن ذاته بأن أكثرهم لا يعقلون ــ الذين عاشوا في القرن السابع الميلادي في منطقة عجزت الحضارة أن تحوّم وأخفقت المدينة أن تقرب منها...

فالأمر ــ أمر تلك المعجزات ــ لا علاقة له بالعقلنة والمنطق... لأن الحدوث أو الوقوع التاريخي شيء والمعقولية والمنطقية شيء مخالف ولو أننا وزنا أحداث التاريخ بهذا الميزان أو قسناها بهذا المقياس لَسَقَط أغلبها وبَطُل جُلّها...

إن الذي ينتسب إلى العقلانية يتعيّن عليه أن يتحلّى بأفق وسيع

وإدراك عميق وفقه غزير فينظر إلى الأحداث والوقائع والنوازل في زمكانها هي لا زمكانه هو بهذا المنظور أو من هذا المنطلق فإنه يقيّمها التقييم السديد ويحللها التحليل العلمي الموضوعي.

نخلص من ذلك إلى أن معجزات عام الوفود العديدة التي ظهرت للوافدين فانبهروا بها ودهشوا لها وعجبوا من أجلها كانت كلها من العوامل التي دفعتهم وقبائلهم وبطونهم وأفخاذهم... إلى دخول الديانة التي بشّر بها محمد وأن يصطفوا تحت بيرق الدولة القرشية التي أقامها في أثرب...

مغلاق البحث

نرجّح أن هذا الكتاب سوف يسخط الفرقتين ويحنق الجوقتين: الإسلامويين والتقدمويين.

أما زعل[٧٣] الأوّلين فقد خبرناه واكتوينا بلظاه لأن لنا منهجاً في الدراسة يفاصل كتاباتهم الإنشائية وطريقاً يخالف مسطوراتهم الخطابية وهما معاً ثمرة القراءة الواعية والاطلاع المُدقق والرؤية الناقدة ونبذ التسليمية التقليدية الاتباعية.

ولأننا في هذا الكتاب كشفنا عن حقيقة تاريخية مستمدة من (النصوص) ذات الدرجة الأولى (القرآن والسُنّة) ومن كتب التراث العوالي التي يضعها كل مسلم على عينيه ورأسه ولا يماري في مقامها المحمود إلا الشكس النكد العنود.

تلك الحقيقة التاريخية هي استعمال السيف مع كل من رفض اعتناق الدين الإسلامي من المشركين أو الكفار أو الوثنيين وذلك داخل الجزيرة العربية[٧٤]. وقدمنا الأسانيد عليها ومن الغريب أن

(٧٣) في المعجم الوسيط، **زعل من الشيء**: تألم وغضب.
(٧٤) في كتابنا **الشدو**، وثقنا حقيقة أن الإسلام في البلاد المغزوة والموطوءة لم ينتشر بحد

سلفهم الصالح لم يكن يعمل على إخفائها بل كان يظهرها بكل سهولة وسلاسة ثم جاء الخلف الميمون وحاول وما زال يحاول طمسها ودسّها دسيساً متناسين أن الحقائق التاريخية من أعسر العسر بل من المحال حجبها ومواراتها وصرف النظر عنها فما بالك إذا كانت ثابتة ثبوتاً قاطعاً بالنصوص وبالمصادر التراثية صاحبة الرتبة السامية ولإمام أهل الشام الأوزاعي قالة موجزها أنك إذا استندت في تدعيم حجتك إلى أثار السلف فلا يهمك إن قبلك الناس أو رفضوك.

والإسلامويون عندما يجهدون جهدهم في تغطية حقيقة إمتشاق الحسام لإذاعة الديانة الإسلامية (نكرر داخل الجزيرة) ونشرها وفشوها والتضبيب عليها والتعمية عليها بل وحتى تسويغها أو تجميلها وتزيينها... الخ إنما ينطلقون في ذلك من منهج مغلوط مفاده مقايسة أحداث القرون الوسيطة بموازين القرن الواحد بعد العشرين...

وهذا المسلك الذي طبّقه الإسلام والذي أكدته آية السيف وأعلنه محمد في حديث صحيح أوردته العوالي من كتب السنة ومنها الصحاح الستة كما أوضحنا في حينه وهو (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا أو يشهدوا ألا إله إلا الله) هو الذي كان يتوافق مع ظروف ذياك الزمان ويتلاءم مع ذلك المكان ويتواءم مع أولئك المخاطبين بالدين الذي رفضوه ولم يؤمنوا به إلا بحرّ أو بحدّ السيف...

السيف لأن الأعراب الأشاوس فتحوها واستعمروها واستوطنوها، ولم يكن يعنيهم الدين بل كان همهم الأكبر: كسح الخيرات واستعباد الرجال وسبي النسوان والفتايت والاستيطان إذا راق لهم المكان...

ليس هذا دفاعاً أو تبريراً أو تسويغاً أو تزويقاً أو تجميلاً أو نقشاً أو برقشة.. الخ إنما هو عرض لحقيقة تاريخية ثابتة لا سبيل لنكرانها لأن النصوص ومصادر السلف انتصبت لتقديم الأدلة القاطعة عليها... والحقائق التاريخية ليست في حاجة إلى تزيين أو تقبيح إنما المطلوب تحليل للظروف الموضوعية التي واكبتها وليس تحسيناً أو تسويئاً لها ولكن لتجلية صورتها وتوضيح قسماتها وإبراز ملامحها...

والإسلامويون عندما ينكسفون من هذه الحقيقة يخطئون بل ويسيئون إلى الإسلام ذاته وليطّلعوا على التوراة كتاب اليهود فسيجدون فيها وقائع أوعر قام بها أنبياء/ رسل ومع ذلك فإن بني إسرائيل لا يدارئونها بل يتمسكون بها.

لماذا؟ لأنهم يفقهون أنها كانت متناغمة مع أزمنة حدوثها.

وربما يرجع عدم اللجوء إلى السيف من قبل العَرَبة الفاتحين إزاء مواطني البلاد التي دعكوها بخيولهم المباركة ــ بالإضافة إلى نهمتهم الشديدة إلى احتياز الأموال وسبي العذراوات ــ يرجع إلى أنهم لَقنوا أن ما صلح مع أعاريب الجزيرة المتبدين في نشر الإسلام وهو السيف، لا يناسب سكان البلاد المغزوّة المستوطنة أصحاب الحضارات السامقة. وكشف هذه الحقيقة التاريخية الثابتة لا يشكّل السبب الوحيد لغضب الإسلاميين بل هناك أسباب أخرى يتعسّر علينا تكريرها هنا في هذا المِغْلاق إنما نكتفي بمثالين آخرين أولهما: أننا فندنا مقولة أخرى يرددونها بمنتهى الثقة وغاية الاطمئنان ومن عادتهم أنه ما إن ينطق أحدهم بقالة افتخارية، امتداحية، تعظيمية.. الخ حتى يتلقفها منه الآخرون ويردّدونها بكل يقين. وههذ المقولة هي أن البشرية كانت قاصراً ولم تبلغ سن رشدها إلاّ

في القرن السابع الميلادي وفي منطقة الحجاز حصراً وتحديداً عندما أسس محمد الدين الإسلامي وبشّر به فعلى الرغم من أن القرآن والأحاديث لم يرد فيها ما ينبئ بذلك بل العكس هو الصحيح فإنها (= المقولة) تدخل من باب الثناء الفطير والمدح الفجّ والتعظيم العبيط الذي يضر الإسلام ذلك أنه من غير المعقول أن الأعراب الذين ينادون محمداً من وراء الحجرات والذين وصفهم القرآن بأن أكثرهم لا يعقلون والذين تبينت جميع أحوالهم وأفكارهم في ثنايا أخبار الوفود. هؤلاء هم الذين بلغوا سن الرشد؛ وأبناء الحضارات العظيمة الذين برعوا في جميع العلوم والفنون والآداب والفلسفات والصناعات كانوا يَخبون في القصور ويضعون في الصغر ويرتعون في المَجْهَلَة[٧٥].

وهذه القالة من جواهر ما يكتبه المُحْدَثون من الإسلامويون وما يتشدق به خطباؤهم وما تنتفخ به أوداج وعّاظهم ومتكلميهم وهم لا يدرون أنهم بذلك يقدمون بأيديهم ما يقطع بنزقهم ويثبت طيشهم من جانب وما يسيء إلى ديانتهم من جانب آخر...

فإذا تصدينا لهم وكشفنا لهم عن عَوار هذه القالة ومثيلاتها وبعدها عن العلمية والموضوعية بأدلة هادئة عقلانية يُسقط في أيديهم وتنزاح عن أعينهم الغشاوة ويزايلها الغبش ولكن بدلاً من الاعتراف بالحق الذي يحثهم عليه الدين ينتسبون إليه بل يعدّون أنفسهم سدنته ومرازبته. تأخذهم حميّة الدفاع عن الباطل فيرموننا بأبشع التهم ويصفوننا بأشنع النعوت ويرفعون أصواتهم بطلب مصادرة كتبنا.

أما المثال الآخر الذي نرجّح أنه سيثير غضب الإسلامويين

(٧٥) ما يحمل الإنسان على الجهل وفي حديث محمد الابن مبخلة مجهلة.

ويدفعهم إلى الصريخ والولولة هو أننا أتينا برأي جديد ــ كالعادة موثق بالنقل والعقل وهو أن القرآن جُمِع بين دفتيّ مصحف في حياة محمد وأن صحابياً استمنحه مصحفاً فمنحه إياه وأن ما حدث للقرآن بعد ذلك من تدوين في عهديّ التيمي ابن أبي قحافة والأمويّ ابن عفّان جاء لاحقاً وللأسباب التي كشفنا عنها...

وكالعادة لم نُلْقِ أو نقدم هذا الرأي مُرسلاً عاطلاً عن الدليل الذي يؤازره بل العكس هو الصحيح فقد طرحنا بين يديه أدلة الثبوت وبراهين اليقين وحُجج التوثيق من النقل والعقل... من النصوص والمنطق...

وهنا ينتصب سؤال ربما راود الكثيرين:

لماذا يرفض الإسلامويون بفضائلهم كافة وبسائر ألوانهم وبجميع فرقهم كل رأي جديد (في الإسلاميات) ويلفّون حول ذواتهم ويكلّمون أنفسهم وتضيق صدورهم وتبلغ قلوبهم حناجرهم ويحوقلون ويبسملون ويتعوّذون.. الخ مع أن الرأي الجديد ليس فيه مصادمة للنصوص الأصلية ولا يتعارض معها ولا يشكّل خروجاً عن الدين ولا مُروقاً من الملّة ولا تفلّتاً من العقيدة ولا ينضوي على أي مساس بـ (ما هو معلوم من الدين بالضرورة) هذه العبارة (المصيدة) والجملة (الشَبَكَة) التي يحاولون بها اصطياد أصحاب الفكر التجديدي التنويري!!!

نجيب عن هذا السؤال:

الإسلامويون هؤلاء على اختلاف توجهاتهم لا قدرة لهم على الردود الموضوعية ولا طاقة لهم بها بل ولا صلاحية لديهم لها ولذلك فإنهم يلجأون للأساليب الآتية:

السبّ والشتم واللمز والغمز أو السخرية الفارغة والتهكم

الأجواف أو اللجوء إلى القضاء الذي مجاله يندّ عن محاكمة الفكر أو تقديم البلاغات والشكاوى وطلب المنع والمصادرة والتحفظ أو الرمّي بالكفر والإلحاد والعلمانية... الخ.

وهذا أمر طبيعي بل بديهي لأن فاقد الشيء لا يعطيه فكيف تتوقع منهم رداً موضوعياً عقلانياً هادئاً شأن المتحضرين وهم من كل هذا خَلاَء...

وصدق الشاعر:

ومُكلِّف الأشياء ضد طبــاعها متطلب في المـــاء جذوة نــار

هذا غيض من فيض مما نرجّح أنه سوف يغيظ الإسلامويون في هذه الدراسة.

أما الفريق الآخر وهم التقدمويون (مدعو التقدمية) فأغلب الظن أن الكتابة عن المعجزات والخوارق لا تروق لهم رغم أننا كالعادة التزمنا فيها بالموضوعية الصارمة وأوضحنا ملابساتها وكشفنا عن حوافّها ورفعنا الحجاب عن دوافعها وكشفنا الستار عن الظروف التي حايثتها وطرحنا الأسباب التي تعقلن حدوثها في ذلك الزمكان ومع أولئك الذين وُجهت إليهم وأظهرنا الفروق الدقيقة بين حدوثها تاريخياً في ذلك الوقت وفي تلك البقعة ولدى سكانها. وإثبات الحدوث في كتب السنن والسير والتواريخ ذات المقام المحمود شيء وبين وزنها بموازين الحداثة وما بعد الحداثة شيء آخر. إن استبعادها ونفيها وتجاهلها واحتقارها وازدراءها بحجة عدم معقوليتها ولا منطقيتها ومنافاتها للنواميس الكونية وخرقها لقوانين الطبيعة... الخ كلها أمور تتنافى مع التقدمية إذ أنه ليس أسهل ولا أيسر من ذلك النفي والاستبعاد... الخ إنما التقدمية الحقة تتمثل في

تأطيرها في مكانها وزمانها ولدى جمهورها وتوضيح أنها جزء عضوي لا مكمل فقط بل لا غنى عنه عند تصوير تلك الحقبة وإضاءة كل جوانبها... وبذلك يأتي القياس دقيقاً والوزن صحيحاً والسَبْر عميقاً والاختبار مضبوطاً.

وما لم يطرح التقدمويون (مُدّعو التقدمية) عنهم هذه الأوهام جانباً فإن الفرق بينهم وبين الإسلامويين سيغدو منحصراً في الدرجة لا في النوع حتى إنه يمكن أن يقال إنهما وجهان لعملة واحدة وأوشكت أن أكتب لعملة زائفة(٧٦).

بقيت كلمة أخير نختم بها هذا المِغْلاق أو لعلنا نُحكم إغلاقه وهي أننا في كل ما نكتب نعتمد على فَطَانة القارئ ولوذَعيته وعمق فهمه ولَقَفانه (سرعة إدراكه) ولَقَانته (عقله وذكائه) في فقه «ما بين السطور» والتعرف إلى «المسكوت عنه» الذي لم يأن الأوان للبوح به ونحن نعدّ (ما بين السطور) و(المسكوت عنه) جزءاً مكملاً لجميع ما نحرره سواء أكان كتباً (بحوثاً ودراسات) أو حتى مقالات تُنشر في الصحف السيارة وبدونها... لا يتم من جانب القارئ استيعابها الاستيعاب السليم.

وبعد

فإنّ هذا الكتاب أو الدراسة أو البحث مساهمة في الكتابة الموضوعية للسيرة المحمدية وبالتالي تطبيق عمليّ لما نادينا به من ضرورة إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي بطريقة تلتزم بالمنهج العلمي الصارم ينأى عن العواطف الفجّة الفطيرة التي لم تفرز حتى

---

(٧٦) العامة في مصر تصف العملة المزيفة أنها مضروبة وهي كلمة فصيحة ففي قواميس اللغة: ضربه البرد أي أذاه وضرّه وبالتالي فالعملة ضربها التزييف أي ضرّها فأخرجها من سوق التداول.

الآن سوى الإنشائيّات والخطابيّات والحماسيّات وهو المنهج الذي سرنا عليه منذ كتابنا (قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية).

الإثنين غرة المحرم ١٤١٩هـ

٢٧/ أبريل ١٩٩٨م

خليل عبد الكريم

أولاً: فوق المصادر

١ ــ القرآن

٢ ــ الكتاب المقدس بـ قسميْه: العهد القديم والعهد الجديد

٣ ــ صحيح البخاري

٤ ــ صحيح مسلم

٥ ــ سنن الترمذي

ثانياً: المصادر

١ ــ **الدرر في اختصار المغازي والسير**، ابن عبد البر ٣٦٨هـ/ ٤٦٣هـ، تحقيق شوقي ضيف، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر.

٢ ــ **الروض الأُنُف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، أبو القاسم السُهيْلي، طبعة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، مكتبة شقرون، مصر.

٣ ــ **تاريخ الرسل والملوك**، المعروف بـ **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، العدد/ ٣٠ من سلسلة ذخائر العرب، الطبعة الرابعة، دار المعارف، مصر.

٤ ــ **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون**، الشهير بالسيرة الحلبية، علي

ابن برهان الدين الحلبي، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ/ ١٩٨٤م، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

٥ ــ **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، محمد بن يوسف الصالحيّ، الجزء السادس، تحقيق: ابراهيم الترزي وعبد الكريم الغرباوي، طبعة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨١م، المجلس الأعلى لـ الشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف، مصر. وكان جلّ اعتمادنا عليه في أخبار الوفود لأنه جمع خلاصة ما جاء في كتب السيرة التي سبقته.

٦ ــ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، نظام الدين القمّي النيسابوري ــ ت ٧٢٨هـ.

٧ ــ **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، عز الدين بن الأثير الجزري، د. ت. ن ــ دار الشعب، مصر.

٨ ــ **المعجم الكبير**، الطبراني.

٩ ــ **جمع الجوامع**، المعروف **بالجامع الكبير**، جلال الدين السيوطي، من إصدارات مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، مصر.

١٠ ــ **كتاب المسالك والممالك**، أبو عبيد البكري، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الطبعة الأولى، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس.

١١ ــ **السيرة النبوية**، ابن هشام، توجد لدينا منها ثلاث طبعات.

١٢ ــ **الرياض النضرة في مناقب العشرة**، المحب الطبري، تحقيق د. حمزة النشرتي وآخرين.

١٣ ــ **أسباب النزول**، الواحدي النيسابوري، طبعة ١٩٦٨، مؤسسة الحلبي للنشر، مصر.

١٤ ــ **الطبقات الكبرى**، ابن سعد.

١٥ ــ **المسند**، أحمد بن حنبل.

١٦ ــ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ابن عبد البر.

١٧ ــ **سنن البيهقي**.

١٨ ــ **فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن**، ابن الجوزي، دراسة وتحقيق محمد ابراهيم سليم، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، مكتبة ابن سينا، مصر الجديدة.

١٩ ــ **التحبير في علم التفسير**، جلال الدين السيوطي، تحقيق فتحي عبد القادر فريد، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، دار المنار، القاهرة.

٢٠ ــ **خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي**، تأليف وتحقيق د. حمزة النشرتي وآخرين، د. ت. ن.، المكتبة القيّمة، القاهرة.

٢١ ــ **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، البيهقي، تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٠م.

٢٢ ــ **كتاب المجروحين من المُحدّثين والضعفاء والمتروكين**، محمد حبّان البُستي، تحقيق محمد ابراهيم زايد، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ، دار الوعي، حلب.

٢٣ ــ **طبقات المدلّسين**، ابن حجر العسقلاني، تحقيق د. محمد زينهم محمد عزب، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، دار الصحوة، القاهرة.

٢٤ ــ **أسماء المدلّسين**، جلال الدين السيوطي، تحقيق د. محمد زينهم محمد عزب، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، دار الصحوة، القاهرة.

٢٥ ــ **علوم الحديث ومصطلحه**، د. صبحي الصالح، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٩م/ ١٣٧٨هـ، دار العلم للملايين، بيروت.

٢٦ ــ **علم الحديث**، ابن تيمية، تحقيق وتعليق أحمد موسى محمد علي، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، دار الكتب الإسلامية، مصر.

٢٧ ــ **فتح الباري بـ شرح صحيح البخاري**، ابن حجر العسقلاني، تصحيح محب الدين الخطيب وآخرين، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ، المطبعة السلفية ومكتبتها، الروضة، القاهرة.

ثالثاً: المراجع

١ ــ **العرب والمرأة: حفرية في الإسطير المخيم**، خليل عبد الكريم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دار سينا، مصر ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت.

٢ ــ **خاتم النبيين ــ ص**، الشيخ محمد أبو زهرة، الطبعة الأولى ١٩٧١م، دار الفكر العربي، مصر.

٣ ــ **تاريخ الصحابة والتابعين**، د. حمزة النشرتي وآخرون، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دون دار نشر.

٤ ــ **شدو الربابة بـ أحوال مجتمع الصحابة**، خليل عبد الكريم، ١٩٩٧م، دار سينا، مصر ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت.

٥ ــ **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية**، خليل عبد الكريم، الطبعة الأولى ١٩٩٣م وطبع طبعة ثانية منقحة ومزيدة ١٩٩٧م، دار سينا، مصر ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت.

٦ ــ **الشفاهية والكتابية**، والتر ج. أونج، ترجمة حسن البنا عز الدين، الطبعة الأولى، شعبان ١٤١٤هـ/ فبراير ١٩٩٤م، العدد ١٨٢ من سلسلة عالم المعرفة، الكويت.

٧ ــ **الأصولية الإسلامية: تحديد عقدي للمشكلات والأفكار والمداخل**، تأليف د. صادق جلال العظم، ترجمة د. عاطف أحمد، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، الناشر مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، مصر.

٨ ــ **الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية**، خليل عبد الكريم، الطبعة الأولى ١٩٩٠م، دار سينا، مصر، والطبعة الثانية ١٩٩٧م، دار سينا ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت.

٩ ــ **دفاع عن القرآن ضد منتقديه**، الدكتور عبد الرحمان بدوي، ترجمة د. كمال جاد الله، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، دار الجليل، مصر.

١٠ ــ **المواجهة بين القرآن والإسرائيليات**، حسن يوسف الأطير، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، مكتبة الزهراء، القاهرة.

١١ ــ **الرحيق المختوم**، صفيّ الدين المبارك فوري، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤، مكتبة السُنّة، القاهرة.

١٢ ــ **في ظلال القرآن**، سيد قطب، الطبعة الشرعية الحادية عشرة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، دار الشروق، مصر.

١٣ ــ ابن **الإنسان حياة نبي**، أميل لودفيغ، ترجمة عادل زعيتر، الطبعة الأولى ١٩٤٧م، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

١٤ ــ **السُنّة في مكانتها وفي تاريخها**، عبد الحليم محمود، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، العدد ١٦٦ من المكتبة الثقافية، دار الكتاب العربي، القاهرة.

١٥ ــ **السُنّة قبل التدوين**، محمد عجاج الخطيب، الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دار الفكر، بيروت.

١٦ ــ **أصول الفقه**، محمد أبو زهرة، د. ت. ن، دار الفكر العربي، مصر.

١٧ ــ **السُنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي**، د. مصطفى السباعي، الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م، مكتبة دار العروبة، القاهرة.

١٨ ــ **الفولكلور ــ دراسة المعتقدات الشعبية**، الجزء الثاني، د. محمد الجوهري، الطبعة الأولى ١٩٨٠م، دار المعارف، مصر.

رابعاً: القواميس والمعاجم وكتب اللغة

١ ــ **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، مصر.

٢ ــ **كتاب الفروق**، أبو هلال العسكري، تحقيق د. أحمد سليم الحمصي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، جروس برس، لبنان.

٣ ــ **القاموس المحيط**، الفيروزآبادي.

٤ ــ **إصلاح المنطق**، ابن السكيت، شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر.

٥ ــ **المعجم الكبير**، مجمع اللغة العربية.

٦ ــ **مختار الصحاح**، محمد بن أبي بكر الرازي.

٧ ــ **أساس البلاغة**، جار الله الزمخشري.

٨ ــ **المصباح المنير**، المقرّي الفيومي.

٩ ــ **شرح الفصيح في اللغة**، أبو منصور الجبّان، دراسة وتحقيق د. عبد الجبار جعفر القزاز، طبعة ١٩٩١م، دار الشئون الثقافية، بغداد.

١٠ ــ **تاج العروس من جواهر القاموس**، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي.

إحصاء

أ ــ فوق المصادر: خمس

المصادر: سبعة وعشرون

المراجع: ثمانية عشر

القواميس: عشرة

المجموع: ستون

ب ــ راعينا في ترتيبها في (الثبت) أسبقية ورودها بـ متن الكتب لأن هذه الطريقة أصح من السرد الألفبائي.

ج ــ فضلنا تقديم اسم الكتاب على اسم المؤلف لأنها الأمثل فهي من ناحية أصيلة في تراثنا ومن ناحية أخرى لأن الكتاب كثيراً ما يكون أكثر شهرة من صاحبه فعلى سبيل المثال:

من السيرة: الطبقات الكبرى والروض الأنف والشامية والحلبية.. الخ.

ومن المعاجم: القاموس المحيط ــ وأساس البلاغة والمصباح المنير.. الخ.

وإذا كان هذا المقياس لا ينطبق على (المراجع) فيكفي أنه يسري على الأغلب والأهم وأيا كان الأمر فكما يقول المثل: لكل شيخ طريقة وهذه هي الطريقة التي اخترناها.